سراج الظلمات

شرح رسالة " أيّها الْوَلَد " للإمام الغزالي

الشارح

الشيخ محمد الخادمي

أبو سعيد محمد بن مصطفى بن عثمان الحسيني

المتوفى ١١٧٦ هـ

تحقيق

أبي هاشم الأثري

obeikandl.com

الطبعة الاولى
2012هـ-1433
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الخادفى ، محمد بن مصطفى بن عثمان الحسينى ، 000-1762
سراج الظلمات شرح رسالة ابها الولد للامام الغزالى / الشارح : ابو سعيد محمد بن مصطفى الحسينى ، تحقيق: ابى هاشم الاثرى
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2012
260 ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-559-9
1- التصوف الاسلامى
2- الغزالى ، محمد بن محمد بن محمد ، 1058-1111
ا- الاثرى ، ابى هاشم (محقق)

ديوى:260

رقم الايداع: 2012/2792

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله تعالى وهو للحمد أهل، وأشكره وقد وعد الشاكرين بالزيادة والفضل، أشهد أن لا إله إلا الله، بفضله اهتدى المهتدون، وبعدله ضل الضالون، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لهذه الأمة، وبيَّن لها طريق الحق وأمرها بسلوكه، وحذَّرها من طرق الضلالة والغواية، وجاهد في الله حق جهاده فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، الذين استقاموا على سنته، ودعوا إلى ملته، ومن سار على نهجهم ولزم هديهم، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

هناك أناس علموا حقاً ما يعنيه تكليف الإنسان بمهمة عمارة الأرض، الذي ابتدئ منذ خلقه، بل وقبل ذلك حين قال الله عز وجل في قصة بداية الخلق للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ومن بين هؤلاء الإمام الحجة أبو حامد الغزالي، الذي أحيى – ليس بالإحياء فقط – عقيدة أمة كانت قد شارفت على الهلاك في ذلك الوقت.

يُعد أبو حامد الغزالي من كبار المفكرين المسلمين بعامه، ومن كبار المفكرين بمجال علم الأخلاق والتربية بخاصه، وقد استفاد الغزالي من تجربته العميقة معتمدًا على الشريعة الإسلامية في بناء منهجية متكاملة في تربية النفس الإنسانية. كما بين الطرق العمليه لتربية الأبناء وإصلاح الأخلاق الذميمة وتخليص الإنسان منها، فكان بذلك مفكراً ومربياً ومصلحاً اجتماعياً في آن معاً.

يرى الغزالي أن الأخلاق ترجع إلى النفس لا إلى الجسد، فالخلق عنده هيئه ثابته في النفس تدفع الإنسان للقيام بالأفعال الأخلاقيه بسهوله ويسر دون الحاجة إلى التفكير الطويل.

openkanal.com

ويرى الغزالي أن الأخلاق الفاضلة لا تولد مع الإنسان، وإنما يكتسبها عن طريق التربية والتعليم من البيئة التي يعيش فيها. والتربية الأخلاقية السليمة في نظر الغزالي تبدأ بتعويد الطفل على فضائل الأخلاق وممارستها مع الحرص على تجنيبه مخالطة قرناء السوء حتى لا يكتسب منهم الرذائل، وفي سن النضج العقلي تشرح له الفضائل شرحاً علمياً يبين سبب عدها فضائل، وكذلك الرذائل وسبب عدها رذائل، حتى يصبح سلوكه مبيناً على علم ومعرفة واعية.

يقول الإمام الغزالي: (أولادنا جواهر، لذا كان حريٌ بنا تعلم حرفة الصِّياغة، ومعرفة الأدوات والظروف الملائمة لمثل هذه العملية للحصول على أنقى وأجمل شكل).

فأنت أيُّها الصَّائغ من (أبٍ وأمٍ ومرشدٍ ومربٍّ) ممَّن سيصوغ هذه الذَّات، ويجعل منها شخصية إيجابية، عليك فهم هذه المهمَّة، والتعامل الجيّد معها، لتخرِّج نفساً على درجة عاليةٍ من اللياقة الفكرية والشعورية والنفسية، تتمتع بالطمأنينة والارتياح مزدهرة بالإنتاجية الفاعلة، فكم نحن بحاجة إلى مثل تلك النماذج التي تفتقر لها الأمَّة.

فالتربية عملية إجتماعية، وهذا ما يجعلها تختلف باختلاف المجتمعات تبعاً للحضـــارة والثقافة والقيم التي تسودها، ولقد صحبت التربية الإنسان منذ وجوده الأول على الأرض، إذاً فهي وثيقة الصلة بالمجتمع تعكس فلسفته وأهدافه وظروف حياته وألوان نشاطه وقيمه ومعتقداته.

وسيراً على خطى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ومن بعـــدهم التابعين والعلماء الصالحين أدرك الغزالي أهمية العلم والتعلم والتعليم، وبالتالي أهمية التربيـــة وخطورة دورها في بناء الفرد والمجتمع انطلاقاً من فهمه العميق للإسلام على أساس أنـــه (رسالة تربية قبل أن يكون رسالة تشريع ورسالة خلق، بل أن يكون رسالة جهاد ورسالة سمو وقيم قبل أن يكون رسالة كثرة واتساع).

ولقد جمع الغزالي ما بين طرق التربية والتعليم وطرق التزكية والتصفية فأبدع في ذلك مستفيداً مما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول وعلوم من سبقوه من علماء المسلمين وغير المسلمين بما يخدم رسالة التوحيد.

وتجلي ذلك من خلال ما جاء في رسالة « **أيها الولد** » وكتاب «**إحياء علوم الدين**» وغيرها من الكتب التي لم تخرج عما ورد في الكتابين السابقين. كما ذلك ايماناً منه بأهمية التربية في عملية بناء الإنسان والمجتمع الإسلامي.

فرسالة «**أيها الولد**» للإمام الغزالي من الكتب المشهورة والذائعة الصيت خاصة بين أهل الذوق الصوفي. وهي عبارة عن مجموعة من النصائح والإرشادات وجهها الغزالي لأحد تلامذته لتكون دستورًا ومنهجًا وطريقة له في حياته.

وهي رسالة عظيمة الفائدة في أصول التربية في الإسلام، وفيها الحض على طلب العلم وتعهده بالعمل به، وبيان أشرف العلوم التي يجب الاشتغال بها، وفيها دعوة إلى تزكية النفس، ووسائل هذه التزكية.

وقد وفقنا الله تعالى في العثور على شرح رائع لهذا الكتاب القيم، أبدع فيه مؤلفه، فقد قام بشرحها الشيخ محمد الخادمي شرحًا رائعًا بديعًا، وأسماه «**سراج الظلمات**» فهو كالدرة اللامعة التي تهدي الحائرين وتنير طريق السالكين.

وقد حاولنا جاهدين إخراج هذا الكتاب الماتع في أبهى صورة، وندعو من الله التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله وسلم على سيّد البلغاء من الناس مُحمّدِ بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

obeikandi.com

مقدمة في علم التصوف

تمهيد

الصوفية أو التصوف وفق الرؤية الإسلامية ليست مذهبًا، وإنما هو أحد أركان الدين الثلاثة (الإسلام، الإيمان، الإحسان)، فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، وعلم العقيدة بالإيمان، فإن التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان (وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة.

وهذا المنهج كما يقولون أنه يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فجعلوه علما سموه بـــ« علم التصوف»، أو «علم التزكية»، أو «علم الأخلاق»، فألفوا فيه الكتب الكثيرة بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهر هذه الكتب: قواعد التصوف، للشيخ أحمد زروق، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، والرسالة القشيرية للإمام القشيري.

انتشرت حركة التصوف في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقا مميزة متنوعة معروفة باسم الطرق الصوفية.

والتاريخ الإسلامي زاخر بعلماء مسلمين انتسبوا للتصوف مثل النووي والغزالي والعز بن عبد السلام كما القادة مثل صلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح والأمير عبد القادر وعمر المختار وعز الدين القسام.

تعريف "التصوف"

أولا: من حيث اللغة:

كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف عند المسلمين على عدة أقوال، أشهرها:

١- أنه من الصوفة، لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى.

٢- أنه من الصِّفة، إذ أن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات، وترك المذموم منها.

٣- أنه من الصُفّة، لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُفّة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف (وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي الشريف ويعطيهم رسول الله من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم).

٤- أنه من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله تعالى؛ وتسابقهم في سائر الطاعات.

٥- أنه من الصوف، لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والاخشيشان.

٦- أنه من الصفاء، فلفظة «صوفي» على وزن «عوفي»، أي: عافاه الله فعوفي، وقال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... وظنه البعض مشتقاً من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتىً ... صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي

وقد أرجع بعض الباحثين والمؤرخين المختصين بعلوم الديانات القديمة من غير المتصوفة، الكلمة إلى أصل يوناني، هو كلمة: (سوفيا)، ومعناها الحكمة. وأول من عرف بهذا الرأي: البيروني ووافقه الدكتور محمد جميل غازي، الذي قال: «الصوفية كما نعلم اسم يوناني قديم مأخوذ من الحكمة (صوفيا) وليس كما يقولون إنه مأخوذ من الصوف».

ثانيا: من حيث الاصطلاح:

كثرت الأقوال أيضا في تعريف التصوف تعريفا اصطلاحيا على آراء متقاربة، كل منها يشير إلى جانب رئيسي في التصوف، والتي منها:

١- قول زكريا الأنصاري: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية.

٢- قول الشيخ أحمد زروق: التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول «علم التوحيد» لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان. وقال أيضا: وقد حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع، كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه.

٣- قول الجنيد: التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني.

obeikandi.com

٤- قول أبو الحسن الشاذلي: التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية.

٥- قول ابن عجيبة: التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة.

النشأة والتاريخ

أصل التصوف:

يُرجع الصوفية أصل التصوف كسلوك وتعبد وزهد في الدنيا وإقبال على العبادات واجتناب المنهيات ومجاهدة للنفس وكثرة لذكر الله إلى عهد رسول الإسلام محمد وعهد الصحابة، وأنه يستمد أصوله وفروعه من تعاليم الدين الإسلامي المستمدة من القرآن والسنة النبوية.

بداية ظهور اسم الصوفية:

يقول القشيري: «اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله لم يَتَسمِّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم «الصحابة»، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين «الزهاد» و«العُبَّاد»، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادًا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم «التصوف»، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة».

ويقول محمد صديق الغماري: «ويعضد ما ذكره ابن خلدون في تاريخ ظهور اسم التصوف ما ذكره الكِنْدي - وكان من أهل القرن الرابع - في كتاب «ولاة مصر» في حوادث سنة المائتين: «أنه ظهر بالإسكندرية طائفة يسمَّوْن بالصوفية يأمرون بالمعروف». وكذلك ما ذكره المسعودي في «مروج الذهب» حاكيًا عن يحيى بن أكثم فقال: «إن المأمون يومًا لجالس، إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين؛ رجل

واقفٌ بالباب، عليه ثياب بيض غلاظ، يطلب الدخول للمناظرة، فعلمت أنه بعض الصوفية». فهاتان الحكايتان تشهدان لكلام ابن خلدون في تاريخ نشأة التصوف. وذُكر في «كشف الظنون» أن أول من سمي بالصوفي «أبو هاشم الصوفي» المتوفى سنة خمسين ومئة».

ظهور التصوف كعلم:

بعد عهد الصحابة والتابعين، دخل في دين الإسلام أُمم شتى وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يُجيده أكثر من غيره، فنشأ - بعد تدوين النحو في الصدر الأول - علم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض «الميراث» وغيرها.

وبعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، من باب سد النقص، واستكمال حاجات الدين في جميع نواحي النشاط.

وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

١- الحارث المحاسبي، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ، ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، وآداب النفوس، ورسالة التوهم.

٢- أبو سعيد الخراز، المتوفى سنة ٢٧٧ هـ، ومن كتبه: الطريق إلى الله.

٣- أبو عبد الرحمن السلمي، المتوفى سنة ٣٢٥ هـ، ومن كتبه: آداب الصوفية.

٤- أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفى سنة ٣٧٨ هـ، وله كتاب: اللمع في التصوف.

٥- أبو بكر الكلاباذي، المتوفى سنة ٣٨٠ هـ، وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف.

٦- أبو طالب المكي، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.

٧- أبو قاسم القشيري، المتوفى سنة ٤٦٥ هـ، وله الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف.

٨- أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها الكثير. ويعد كتاب إحياء علوم الدين من أشهر - إن لم يكن الأشهر- كتب التصوف ومن أجمعها.

وشهدت الصوفية بعد جيل الجنيد قفزة جديدة مع الإمام الغزالي خاصة كتابه «إحياء علوم الدين» محاولة لتأسيس العلوم الشرعية بصياغة تربوبة، تلاه اعتماد الكثير من الفقهاء أبرزهم عبد القادر الجيلاني للصوفية كطريقة للتربية الإيمانية، ويبدو أن الجيلاني وتلاميذه الذين انتشروا في كافة بقاع المشرق العربي حافظوا على الجذور الإسلامية للتصوف بالتركيز على تعليم القرآن والحديث مقتدين بأشخاص مثل الحارث المحاسبي، والدليل على ذلك أن حتى ابن تيمية رغم الهجوم الضاري الذي يشنه على الصوفية في عصره، لا يرى بأساً في بعض أفكار التصوف ويمتدح أشخاصا مثل الجيلاني وأحمد الرفاعي. وينسب المؤرخين لهذه المدارس الصوفية المنتشرة دورا كبيرا في تأسيس الجيش المؤمن الذي ساند صلاح الدين في حربه ضد الصليبيين.

ظهور التصوف كطرق ومدارس:

يرجع أصل الطرق الصوفية إلى عهد سيد البشر أجمعين رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يخصّ كل من الصحابة بورد يتفق مع درجته وأحواله:

- أما الصحابي علي بن أبي طالب، فقد أخذ من النبى الذكر بالنفي والإثبات وهو (لا إله إلا الله).

- وأما الصحابي أبو بكر الصديق، فقد أخذ عنه الذكر بالاسم المفرد (الله).

ثم أخذ عنهما من التابعين هذه الأذكار وسميت الطريقتين: بالبكرية والعلوية. ثم نقلت الطريقتين حتى إلتقتا عند الإمام أبو القاسم الجنيد. ثم تفرعتا إلى الخلوتية، والنقشبندية.

واستمر الحال كذلك حتى جاء الأقطاب الأربعة: السيد أحمد الرفاعي، والسيد عبد القادر الجيلاني، والسيد أحمد البدوي، والسيد إبراهيم الدسوقي، وشيّدوا طرقهم الرئيسية الأربعة وأضافوا إليها أورادهم وأدعيتهم، وتوجد اليوم طرق عديدة جدًا في أنحاء العالم ولكنها كلها مستمدة من هذه الطرق الأربعة، إضافة إلى أوراد السيد أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية والتي تعتبر أوراده جزءًا من أوراد أى طريقة موجودة اليوم.

الطرق الصوفية

الطريق لغة: هي «السيرة»، وطريقة الرجل: مذهبه، يقال: هو على طريقة حسنة وطريقة سيئة.

واصطلاحاً: اسم لمنهج أحد العارفين في التزكية والتربية والأذكار والأوراد أخذ بها نفسه حتى وصل إلى معرفة الله، فينسب هذا المنهج إليه ويعرف باسمه، فيقال الطريقة الشاذلية والقادرية والرفاعية نسبة لرجالاتها. وقد أخذ اسم الطريقة من القرآن: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

تختلف الطرق التي يتبعها مشايخ الطرق في تربية طلابهم ومريديهم باختلاف مشاربهم وأذواقهم الروحية، وباختلاف البيئة الاجتماعية التي يظهرون فيها.

فقد يسلك بعض المشايخ طريق الشدة في تربية المريدين فيأخذونهم بالمجاهدات العنيفة ومنها كثرة الصيام والسهر وكثرة الخلوة والاعتزال عن الناس وكثرة الذكر والفكر.

وقد يسلك بعض المشايخ طريقة اللين في تربية المريدين فيأمرونهم بممارسة شيء من الصيام وقيام مقدار من الليل وكثرة الذكر، ولكن لا يلزمونهم بالخلوة والابتعاد عن الناس إلا قليلا.

ومن المشايخ من يتخذ طريقة وسطى بين الشدة واللين في تربية المريدين.

وكل هذه الأساليب لا تخرج عن كتاب الله وسنة رسوله، كما يقولون، بل هي من باب الاجتهاد. ولذلك يقولون: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق.

وللطرق الصوفية شارات وبيارق وألوان يتميزون بها: فيتميز الرفاعية باللون الأسود. ويتميز القادرية باللون الأخضر. ويتميز الأحمدية باللون الأحمر. أما البرهانية فإنها لا تتميز

obeikandi.com

بلون واحد كسائر الطرق بل تتميز بثلاث ألوان: الأبيض الذي تميز به إبراهيم الدسوقي، والأصفر الذي تميز به أبو الحسن الشاذلي ومنحه لابن أخته إبراهيم الدسوقي، والأخضر وهو كناية عن شرف الانتساب لأهل بيت رسول الإسلام محمد.

ومن أهم الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي:

اسم الطريقة	نسبتها	تاريخ الوفاة	أماكن الانتشار
الطريقة القادرية	الشيخ عبد القادر الجيلاني	561هـ	العراق وتونس ومصر وشرق أفريقيا
الطريقة السعدية	الشيخ سعد الدين الجباوي	575هـ	بلاد الشام
الطريقة الرفاعية	الشيخ أحمد بن علي الرفاعي	578هـ	العراق ومصر وغرب آسيا
الطريقة الأحمدية أو البدوية	الشيخ أحمد البدوي	627هـ	مصر
الطريقة الأكبرية	الشيخ محيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر	638هـ	مصر
طريقة السادة آل باعلوي	الشيخ محمد بن علي باعلوي	653هـ	اليمن وأندونيسيا وشرق آسيا والحجاز
الطريقة الشاذلية	الشيخ أبي الحسن الشاذلي	656هـ	مصر والسودان والمغرب العربي واليمن وسوريا والأردن
الطريقة البرهانية الدسوقية	الشيخ إبراهيم الدسوقي	676هـ	مصر والسودان
الطريقة النقشبندية	الشيخ محمد بهاء الدين شاه نقشبند	791هـ	آسيا الوسطى وسوريا
الطريقة العروسية	الشيخ أحمد بن عروس	869هـ	ليبيا وتونس
الطريقة العيساوية	الشيخ محمد بن عيسى	933هـ	المغرب وتونس
الطريقة الخلوتية	الشيخ محمد بن أحمد بن محمد كريم الدين الخلوتي	986هـ	مصر وتركيا وفلسطين والأردن
الطريقة السمانية	الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان	1189هـ	السودان
الطريقة التيجانية	الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني	1230هـ	المغرب وتونس والسنغال وغرب أفريقيا
الطريقة الإدريسية	الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي	1253هـ	السودان والصومال
الطريقة المولوية	الشيخ جلال الدين الرومي	1272هـ	تركيا وحلب
الطريقة الختمية	الشيخ محمد عثمان الميرغني الختم	1267هـ	السودان وأريتريا وأثيوبيا
الطريقة السنوسية	الشيخ محمد بن علي السنوسي	1276هـ	ليبيا وشمالي أفريقيا والسودان والصومال

obeikandi.com

الطريقة الكسنزانية	الشيخ عبد الكريم شاه الكسنزان	1317هـ	العراق
الطريقة العلاوية	الشيخ أحمد مصطفى العلاوي	1353هـ	الجزائر
الطريقة المحمدية الفوزوية الكركرية	الشيخ محمد فوزي الكركري	1396هـ	المغرب وفرنسا وأندونيسا وباكستان
الطريقة الجعفرية	الشيخ صالح الجعفري الحسيني إمام الأزهر	1399هـ	المغرب والسنغال وغرب أفريقيا
الطريقة القادرية البودشيشية	سيدي علي بن محمد الملقب بسيدي علي بودشيش		المغرب

اتباعهم للقرآن والسنة

يرى أئمة التصوف أنهم متبعين للكتاب والسنة، وأن علمهم هذا كباقي العلوم الإسلامية من الفقه والعقيدة مستمد من الكتاب والسنة، دل على اعتقادهم بذلك أقوالهم، والتي منها:

١- قول الجنيد: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم». وقال أيضا: «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».

٢- قول سهل التستري: «أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسوله، وأكل الحلال، وكفِ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق».

٣- قول أبو الحسن الشاذلي: «إذا عارض كشفُك الصحيح الكتابَ والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام».

٤- قول أبو الحسين الوراق: «لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه في شرائعه، ومَنْ جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث يظن أنه مهتد».

٥- قول عبد الوهاب الشعراني: «إن طريق القوم - أي الصوفية - محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون».

obeikandi.com

٦- قول أبي يزيد البسطامي حيث سئل عن الصوفي فقال: «هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله بشماله، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة، وبالأخرى إلى النار، ويأتزر بالدنيا، ويرتدي بالآخرة، ويلبي من بينهما للمولى: لبيك اللهم لبيك».

ويستدلون أيضا على صحة توجههم بمواقف أئمة المذاهب السنية الأربعة الداعية إلى التصوف بمعناه الصحيح.

مصطلحات الصوفية

إن لكل علم من العلوم كالفقه والحديث والمنطق والنحو والهندسة والفلسفة اصطلاحات خاصة به، لا يعلمها إلا أصحاب ذلك العلم، ومن قرأ كتب علم من العلوم دون أن يعرف اصطلاحاته، أو يطلع على رموزه وإشاراته، فإنه يؤول الكلام تأويلات شتى مغايرة لما يقصده العلماء، ومناقضة لما يريده الكاتبون فيتيه ويضل.

وللصوفية اصطلاحاتهم التي قامت بعض الشيء مقام العبارة في تصوير مدركاتهم ومواجيدهم، حين عجزت اللغة عن ذلك.

فبسبب ذلك دعى الصوفية من يريد الفهم عنهم إلى صحبتهم حتى تتضح لهم عباراتهم، ويتعرفوا على إشاراتهم ومصطلحاتهم.

قال بعض الصوفية: «نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا».

وقال عبد الوهاب الشعراني: سمعت سيدي عليًا الخواص يقول: «إياك أن تعتقد يا أخي إذا طالعت كتب القوم، وعرفت مصطلحهم في ألفاظهم أنك صرت صوفيًا، إنما التصوف التخلق بأخلاقهم، ومعرفة طرق استنباطهم لجميع الآداب والأخلاق التي تحلّوْا بها من الكتاب والسنة».

وإن كلام الصوفية في تحذير من لا يفهم كلامهم ولا يعرف اصطلاحاتهم من قراءة كتبهم ليس من قبيل كتم العلم، ولكن خوفاً من أن يفهم الناس من كتبهم غير ما يقصدون، وخشية أن يؤولوا كلامهم على غير حقيقته، فيقعوا في الإنكار والاعتراض، شأن من يجهل علماً من العلوم؛ لأن المطلوب من المؤمن أن يخاطب الناس بما يناسبهم من الكلام وما يتفق مع مستواهم في العلم والفهم والاستعداد.

فمن هذه المصطلحات:

الزهد: قال الجنيد: الزهد هو خلو الأيدي من الأملاك، والقلوب من التتبع.

الأنس: سئل الجنيد عن الأنس، فقال: الأنس هو ارتفاع الحشمة -أي: أن يكون الرجاء أغلب عليه من الخوف- مع وجود الهيبة. وقيل: هو انبساط المحب إلى المحبوب وفرحه به.

الاتصال: أي أن ينفصل بسره عما سوى الله، فلا يَرَى بسره - بمعنى التعظيم - غيرَه، ولا يسمع إلا منه.

قال النوري: الاتصال: مكاشفات القلوب، ومشاهدات الأسرار.

وقال بعض الكبار: الاتصال: أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه.

التجريد والتفريد: «التجريد»: أن يتجرد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض (أي: ألا يأخذ من عرض الدنيا شيئا، ولا يطلب على ما ترك منها عوضا: من عاجل ولا آجل)، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى، لا لعلة غيره، ولا لسبب سواه، ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التي يخلها، والأحوال التي ينازلها (بمعنى: السكون إليها والاعتناق لها).

و«التفريد»: أن يتفرد عن الأشكال، وينفرد في الأحوال، ويتوحد في الأفعال (وهو: أن تكون أفعاله لله وحده، فلا يكون فيها رؤية نفس، ولا مراعاة خلق، ولا مطالعة عوض، ويتفرد في الأحوال عن الأحوال: فلا يرى لنفسه حالا، بل يغيب برؤية محولها عنها، ويتفرد عن الأشكال: فلا يأنس بها، ولا يستوحش منها).

وقيل: التجريد: أن لا يَملِك، والتفريد: أن لا يُمْلَك.

الوجد والتواجد: «الوجد» هو ما صادف القلب من فزع، أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد والله.

و«التواجد»: ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره، ومن قوى تمكن فسكن.

قال النوري: الوجد لهيب ينشأ في الأسرار، ويسنح عن الشوق، فتضطرب الجوارح: طربا أو حزنا عند ذلك الوارد. وقالوا: الوجد مقرون بالزوال، والمعرفة ثابتة بالله تعالى لا تزول.

الغلبة: حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب، ولا مراعاة الأدب، ويكون مأخوذًا عن تمييز ما يستقبله، فربما خرج إلى بعض ما يُنْكِر عليه من لم يعرف حاله، ويرجع على نفسه صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده. ويكون الذي غلب عليه: خوف، أو هيبة، أو إجلال، أو حياء، أو بعض هذه الأحوال. ويكون الساكن فيها بما هو أرفع منه في الحال: أمكن وأتم حالة؛ كما كان أبو بكر الصديق.

السكر والصحوة: السكر: أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء. وهو أن لا يميز بين مرافقة وملاذه، وبين أضدادها في مرافقة الحق؛ فإن غلبات وجود الحقِّ تُسْقِطه عن التمييز بين ما يؤلمه ويلذه، كما روي في بعض الروايات في حديث حارثة، أنه قال: «استوى عندي حجرها ومدرها، وذهبها وفضتها»، وكما قال عبد الله بن مسعود: «ما أبالي على أي الحالين وقعت: على غنى، أو فقر؛ إن كان فقرًا فإن فيه الصبر، وإن كان غنى فإن فيه الشكر»، ذهب عنه التمييز بين الأرفق وضده، وغلب عليه رؤية ما للحق من الصبر والشكر.

والصحو الذي هو عقيب السكر: هو أن يميز، فيعرف المؤلم من الملذ، فيختار المؤلم في موافقة الحق ولا يشهد الألم، بل يجد لذة في المؤلم. كما جاء عن بعض الكبار أنه قال: لو قطعني البلاء إرَبًا إرَبًا، ما ازددت لك إلا حُبًّا حُبًّا. وهذه الحالة أتم؛ لأن صاحب السكر يقع على المكروه من حيث لا يدري، ويغيب عن وجود التكره. وهذا يختار الآلام على الملاذ، ثم يجد اللذة فيما يؤلمه بغلبة شهود فاعله. والصاحي الذي نعته قبل نعت السكر: ربما يختار الآلام على الملاذ لرؤية ثواب، أو مطالعة عوض، وهو متألم في الآلام ومتلذذ في الملاذ، فهو نعت الصحو والسكر.

الغيبة والشهود: الغَيْبَة: أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها، وهي – أي الحظوظ – قائمة معه، موجودة فيه، غير أنه غائب عنها بشهود ما للحق؛ كما قال أبو سليمان

الداراني – وبلغه أنه قيل للأوزاعي: رأينا جاريتك الزرقاء في السوق فقال: أو زرقاء هي؟ – فقال سليمان: «انفتحت عيون قلوبهم، وانطبقت عيون رؤوسهم»، أخبر أن غيبته عن زرقتها كانت مع بقاء لذة الحور فيه؛ بقوله أو زرقاء هي؟

والشُّهُودُ: أن يرى حظوظ نفسه. ومعنى ذلك: أن يأخذ ما يأخذ بحال العبودية وخضوع البشرية، لا للذة والشهوة. وغيبة أخرى وراء هذه: وهي أن يغيب عن الفناء والفاني، بشهود البقاء والباقي لا غير؛ كما أخبر حارثة عن نفسه، ويكون الشهود: شهود عيان، ويكون غيبته عما غاب: غيبة شهود الضر والنفع، لا غيبة استتار واحتجاب.

الجمع والتفرقة: أول الجمع: جمع الهمة: وهو أن تكون الهموم كلها هما واحدا؛ وفي الحديث: «**من جعل الهموم همًا واحدا: هَمِّ المعاد، كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله في أي أوديتها هلك**»(١). وهذه حال المجاهدة والرياضة. والجمع الذي يعنيه أهله: هو أن يصير ذلك حالا له، وهو: أن لا تتفرق همومه فيجمعها تكلف العبد، بل تجتمع الهموم فتصير بشهود الجامع لها هما واحدا، ويحصل الجمع إذ كان بالله وحده دون غيره. وجمع الجمع مقام آخر وأتم من الجمع. فالجمع: شهود الأشياء بالله والتبري من الحول والقوة إلا بالله، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية، والفناء عما سوى الله، وهو المرتبة الأحدية.

والتفرقة التي هي عقيب الجمع: هو أن يفرق بين العبد وبين همومه في حظوظه، وبين طلب مرافقه وملاذه، فيكون مفرقا بينه وبين نفسه، فلا تكون حركاته لها. وقد يكون المجموع ناظرًا إلى حظوظه في بعض الأحوال، غير أنه ممنوع منها؛ قد حيل بينه وبينها، لا يتأتى له منها شيء، وهو غير كاره لذلك، بل مريد له؛ لعلمه بأنه فعل الحق به، واختصاصه له، وجذبه إياه مما دونه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٥/١، رقم ٢٥٧) قال البوصيرى (٣٨/١): هذا إسناد ضعيف. والحكيم (١٣٤/٤). وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (٧٦/٧، رقم ٣٤٣١٣)، والبزار (٦٨/٥، رقم ١٦٣٨)، والشاشى (٣٣٨/١، رقم ٣١٧)، أورده ابن أبي حاتم فى العلل (١٢٢/٢، رقم ١٨٥٩) وقال: سمعت أبي يقول هذا حديث منكر ونهشل بن سعيد متروك الحديث. وأبو نعيم فى الحلية (١٠٥/٢) وقال: غريب.

obeikandl.com

التجلي والاستتار: قال سهل: التجلي على ثلاثة أحوال: تجلي ذات (وهي المكاشفة)، وتجلي صفات الذات (وهي موضع النور)، وتجلّي حكم الذات (وهي الآخرة وما فيها).

معنى قوله «تجلي ذات وهي المكاشفة»: كشوف القلب في الدنيا؛ كما في الحديث: «**اعبد الله كأنك تراه**»[١]. وكشوف العيان في الآخرة.

ومعنى قوله «تجلي صفات الذات وهي موضع النور»: هو أن تتجلى له قدرته عليه فلا يخاف غيره، وكفايته له فلا يرجو سواه، وكذلك جميع الصفات؛ كما قال حارثة: «**كأني أنظر إلى عرش ربي بارزا**»[٢]، كأنه تجلى له كلامه في أخباره، فصار الخبر له كالمعاينة.

و«تجلي حكم الذات»: يكون في الآخرة: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

والاستتار الذي يعقب التجلي: هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشاهدها، كقول عبد الله بن عمر – للذي سلم عليه وهو في الطواف فلم يرد عليه فشكاه – فقال: إنا كنا نتراءى الله في ذلك المكان؛ أخبر عن تجلي الحق له بقوله: « كنا نتراءى الله »، وأخبر عن الاستتار بغيبته عن التسليم عليه.

الفناء والبقاء: الفناء: هو أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز؛ فناءً عن الأشياء كلها شغلا بما فني به، كما قال عامر بن عبد الله: ما أبالي امرأة رأيت أم حائطًا، والحق يتولى تصريفه، فيصرفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظًا فيما لله عليه، مأخوذا عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل (وهو: العصمة)، وذلك معنى الحديث: « **كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ** »[٣].

---

(١) أخرجه البخارى (١/٢٧، رقم ٥٠)، ومسلم (١/٣٩، رقم ٩)، وابن ماجه (١/٢٥، رقم ٦٤).

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٧/٣٦٢، رقم ١٠٥٩٠).

(٣) أخرجه البخارى (٥/٢٣٨٤، رقم ٦١٣٧). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٢/٥٨، رقم ٣٤٧)، والبيهقى (١٠/٢١٩، رقم ٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٤).

والبقاء الذي يعقبه: هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله. قال بعض الكبار: البقاء مقام النبيين، ألبسوا السكينة، لا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه، ولا عن فضله؛ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٥٤].

والباقي: هو أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانيا عن المخالفات، باقيا في الموافقات. وليس معنى « أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا »: أن تصير المخالفات له موافقات، فيكون ما نهى عنه كما أمر به! ولكن على معنى أن لا يجري عليه إلا ما أمر به، وما يرضاه الله تعالى دون ما يكرهه، ويفعل ما يفعل لله لا لحظ له فيه في عاجل أو آجل، وهذا معنى قولهم: «يكون فانيًا عن أوصافه باقيا بأوصاف الحق »؛ لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له، لأنه لا يَجُرُّ به نفعا ولا يدفع به ضرا – تعالى الله عن ذلك –، وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرهم. فالباقي بالحق: الفاني عن نفسه: يفعل الأشياء لا لِجَرِّ منفعة إلى نفسه، ولا لدفع مضرة عنها، بل على معنى أنه لا يقصد في فعله جَرّ المنفعة ودفع المضرة؛ قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها (بمعنى: القصد والنية)، ولا بمعنى أنه لا يجد حظاً فيما يعمل مما لله عليه، يفعله لله، لا لِطَمَع ثواب، ولا لخوف عقاب، وهما – أعني: الخوف والطمع – باقيان معه، قائمان فيه، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى؛ لأنه رغّب فيه، وأمر أن يسأل ذلك منه، ولا يفعله للذة نفسه، ويخاف عقابه إجلالا له، وموافقة له؛ لأنه خَوَّفَ عباده، ويفعل سائر الحركات لحظ الغير لا لحظ نفسه، كما قيل: المؤمن يأكل بشهوة عياله. فجملة الفناء والبقاء: أن يفنى عن حظوظه، ويبقى بحظوظ غيره.

المريد والمراد: المُرِيْد: مُرَادٌ في الحقيقة، والمُرَادُ: مُرِيْد؛ لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله تقدمت له؛ قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤]، فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له؛ إذ علة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، ومن أراده الحق فمحال أن لا يريده العبد، فجعل المريد مرادًا، والمراد مريدًا، غير أن المريد: هو الذي سبق اجتهاده كشوفه، والمراد: هو الذي سبق كشوفه اجتهاده. فالمريد: هو الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت٦٩]، وهو الذي يريده الله تعالى فيقبل

بقلبه، ويحدث فيه لطفا يثير منه فيه: الاجتهاد فيه، والإقبال عليه، والإرادة له، ثم يكاشفه الأحوال؛ كما قال حارثة: «عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، ثم قال: وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا »، فأخبر: أن كشوف أحوال الغيب له كان عقيب عزوفه عن الدنيا.

والمراد: هو الذي يجذبه الحق جذبه القدرة، ويكاشفه بالأحوال، فيثير قوة الشهود منه اجتهادًا فيه، وإقبالا عليه، وتحملا لأثقاله؛ كسحرة فرعون لما كوشفوا بالحال في الوقت، سهل عليهم تحمل ما توعدهم به فرعون فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢].

الأبد: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، كما أن الأزل استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، مدة لا يتوهم انتهاؤها بالفكر والتأمل ألبتة؛ وهو الشيء الذي لا نهاية له.

الاتحاد: هو تصيير الذاتين واحدة، ولا يكون إلا في العدد من الاثنين فصاعداً، في الجنس: يسمى: مجانسة، وفي النوع: مماثلةً، وفي الخاصة: مشاكلة، وفي الكم: مساواة، وفي الأطراف: مطابقة، وفي الإضافة: مناسبة، وفي وضع الأجزاء: موازنة، وهو شهود الوجود الحق الواحد المطلق، الذي الكل موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجوداً به، معدوماً بنفسه، لا من حيث إن له وجوداً خاصاً اتحد به، فإنه محال. وقيل: الاتحاد: امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى صيرا شيئاً واحداً، لاتصال نهايات الاتحاد. وقيل: الاتحاد، وهو لقول من غير رؤية وفكر.

أحد: أحد هو اسم الذات مع اعتبار تعدد الصفات، والأسماء والغيب والتعينات الأحدية اعتبارها من حيث هي بلا إسقاطها ولا إثباتها، بحيث يندرج فيها لسبب الخطرة الواحدة.

أحدية الجمع: معناه لا تنافي الكثرة أحدية الغبن هي من حيث اغناؤه عنا وعن الأسماء، ويسمى هذا جمع الجمع.

أحدية الكثرة: معناه واحد يتعقل فيه كثرة نسبية، ويسمى هذا بمقام الجمع، وأحدية الجمع.

الإحسان: هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته، فهو يراه يقيناً ولا يراه حقيقة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «كأنك تراه»، لأنه يراه من وراء حجب صفاته، فلا يرى الحقيقة بالحقيقة، لأنه الله هو الداعي، وصفة لوصفه، هو دون مقام المشاهدة في مقام الروح.

الإدراك: إحاطة الشيء بكماله، وهو حصول الصورة عند النفس الناطقة، وتمثيل حقيقة الشيء وحده من غير حكم عليه بنفي أو إثبات، ويسمى: تصوراً، ومع الحكم بأحدهما يسمى: تصديقاً.

الإرادة: صفة توجب للحي حالا يقع منه الفعل على وجهٍ دون وجه، وفي الحقيقة: هي ما لا يتعلق دائماً إلا بالمعدوم، فإنها صفة تخصص أمراً لحصوله ووجوده، كما ذكر القرآن: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. وميل يعقب اعتقاد النفع؛ ومطالبة القلب غذاء الروح من طيب النفس، وقيل: الإرادة حب النفس عن مراداتها، والإقبال على أوامر الله والرضا، وقيل: الإرادة: جورٌة من نار المحبة في القلب مقتضية لإجابة دواعي الحقيقة.

الإرهاص: ما يظهر من الخوارق عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره، النور الذي كان في جبين آباء نبينا، صلى الله عليه وسلم، وإحداث أمر خارق للعادة دال على بعثة نبي قبل بعثته؛ وما يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة من أمر خارق للعادة، وقيل: إنها من قبيل الكرامات، فإن الأنبياء قبل النبوة لا يقصرون عن درجة الأولياء.

الأزل: استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، كما أن الأبد: استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل.

الأزلي: ما لا يكون مسبوقاً بالعدم. واعلم أن الموجود أقسام ثلاثة لا رابع لها، فإنه إما أزلي وأبدي، وهو الله، أولا أزلي ولا أبدي، وهو الآخرة، وعكسه محال، فإن ما ثبت قدمه امتنع عدمه، والذي لم يكن ليس، والذي لم يكن ليس لا علة له في الوجود.

الاستدراج: هو أن تكون بعيداً من رحمة الله، وقريباً إلى العقاب تدريجياً، وأن يجعل الله العبد مقبول الحاجة وقتاً فوقتاً إلى أقصى عمره للابتدال بالبلاء والعذاب. وقيل: الإهانة

بالنظر إلى المآل، والدنو إلى عذاب الله بالإمهال قليلا قليلا، وأن يرفعه الشيطان درجة إلى مكان عال ثم يسقط من ذلك المكان حتى يهلك هلاكاً. وأن يقرب الله العبد إلى لعذاب والشدة والبلاء في يوم الحساب كما حكي عن فرعون لما سأل الله قبل حاجته للابتلاء بالعذاب والبلاء في الآخرة

الاستغراق: الشمول لجميع الأفراد، بحيث لا يخرج عنه شيء.

الاستقامة: هي الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل لأمور، من الطعام والشراء واللباس، وفي كل أمر ديني ودنيوي، فذلك هو الصراط المستقيم، كالصراط المستقيم في الآخرة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**شيبتني سورة هود**[1]، إذ أنزل فيها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢] ». وأن يجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي، وقيل: الاستقامة ضد الاعوجاج، وهي مرور العبد إلى طريق العبودية بإرشاد الشرع والعقل، والمدومة.

الاسم: ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو ينقسم إلى اسم عين، وهو الدال على معنى يقوم بذاته، كزيد وعمرو. وإلى اسم معنى، وهو ما لا يقوم بذاته، سواء كان معناه وجوديًا كالعلم أو عدميًا كالجهل.

الاسم الأعظم: الاسم الجامع لجميع الأسماء. وقيل: هو الله؛ لأنه اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات، أي المسماة بجميع الأسماء.

الأفق الأعلى: نهاية مقام الروح وهو الحضرة الواحدية، وحضرة الألوهية.

الله: علم دالٌ على الإله الحق دلالةً جامعةً لمعاني الأسماء الحسنى كلها.

الإلهام: ما يلقى في الروع بطريق الفيض. وقيل: الإلهام: ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة، وهو ليس بحجة عند العلماء، إلا عند الصوفيين.

---

(١) أخرجه الترمذى (٥/٤٠٢، رقم ٣٢٩٧) وقال: حسن غريب، والحاكم (٢/٣٧٤، رقم ٣٣١٤) وقال: صحيح على شرط البخارى. وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٦/١٥٢، رقم ٣٠٢٦٨).

openkandil.com

الفرق بينه وبين الإعلام: أن الإلهام أخص من الإعلام، لأنه قد يكون بطريق الكسب، وقد يكون بطريق التنبيه.

الإلهية: أحدية جمع جميع الحقائق الوجودية كما أن آدم، عليه الصلاة والسلام، أحدية لجمع جميع الصور البشرية إذ للأحدية الجمعية الكمالية مرتبتان: إحداهما قبل التفصيل، لكون كل كثرة مسبوقة بواحد هي فيه بالقوة هو، وتذكر قول القرآن: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] فإنه لسانٌ من ألسنة شهود المفصل في المجمل مفصلا ليس كشهود العالم من الخلق في النواة الواحدة النخيل الكامنة فيه بالقوة، فإنه شهود المفضل في المجمل مجملا لا مفصلا، شهود المفصل في المجمل مفصلا يتصل بالحق، وبمن جاء بالحق أن يشهده من الكمل، وهو خاتم الأنبياء وخاتم الأولياء.

الإنابة: إخراج القلب من ظلمات الشبهات. وقيل: الإنابة: الرجوع من الكل إلى من له الكل. وقيل: الإنابة: الرجوع من الغفلة إلى الذكر، ومن الوحشة إلى الأنس.

الإنسان الكامل: هو الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية، الكلية والجزئية وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية، فمن حيث روحه وعقله: كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه: كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه: كتاب المحو والإثبات، فهو الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية، فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقائقه بعينها نسبة الروح الإنساني إلى البدن وقواه، وإن النفس الكلية قلب العالم الكبير، كما أن النفس الناطقة قلب الإنسان، ولذلك سمى العالم بالإنسان الكبير.

البصيرة: قوة للقلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها، بمثابة البصر للنفس يرى به باطن الأشياء وظواهرها، وهي التي يسميها الحكماء: العاقلة النظرية، والقوة القدسية.

التجلي: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وإنما جمع الغيوب باعتبار تعدد موارد التجلي، فإن لكل اسم إلهي بحسب حيطه ووجوهه تجليات متنوعة، وأمهات الغيوب، التي

تظهر التجليات من بطائنها: سبعة: غيب الحق وحقائقه، وغيب الخفاء المنفصل من الغيب المطلق بالتمييز الأخفى في حضرة أو أدنى، وغيب السر المنفصل من الغيب الإلهي بالتمييز الخفي في حضرة قاب قوسين، وغيب الروح، وهو حضرة السر الوجودي المنفصل بالتمييز الأخفى والخفي في التابع الأمري، وغيب القلب، وهو موقع تعانق الروح والنفس، ومحل استيلاد السر الوجودي، ومنصة استجلائه في كسوة أحدية جمع لكمال، وغيب النفس، وهو أن المناظرة، وغيب الطائف البدنية، وهي مطارح أنظاره لكشف ما يحق له جمعاً وتفصيلا.

والتجلي الذاتي: ما يكون مبدؤه الذات من غير اعتبار. صفة من الصفات معها، وإن كان لا يحصل ذلك إلا بواسطة الأسماء والصفات، إذ لا ينجلي الحق من حيث ذاته على الموجودات إلا من وراء حجاب من الحجب الأسمائية.

والتجلي الصفاتي: ما يكون مبدؤه من الصفات من حيث تعينها وامتيازها عن الذات.

التدلي: نزول المقربين بوجود الصحو المفيق بعد ارتقائهم إلى منتهى مناهجهم، ويطلق إزاء نزول الحق من قدس ذات الذي لا تطؤه قدم استعداداتهم السوى حسبما تقتضي سعة استعداداتهم وضيقها عند التداني.

التعين: ما به امتياز شيء عن غيره، بحيث لا يشاركه فيه غيره.

التمكين: هو مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تمكين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين.

التنزيه: عبارة عن تبعيد الرب عن أوصاف البشر.

التوفيق: جعل الله فعل عباده موافقاً بما يحبه ويرضاه.

الجلوة: خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية، إذ عين العبد وأعضاؤه ممحوة عن الأنانية، والأعضاء مضافة إلى الحق بلا عبد، كقول القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

الحال: هي ما يبين هيئة الفاعل أو المفعول به لفظاً، نحو: ضربت زيداً قائماً، أو معنى، نحو: زيد في الدار قائماً، والحال عند أهل الحق: معنى يرد على القلب من غير تصنع، ولا اجتلاب، ولا اكتساب، من طرب، أو حزن، أو قبض، أو بسط، أو هيبة، ويزول بظهور صفات النفس، سواء يعقبه المثل أولا، فإذا دام وصار ملكاً، يسمى: مقاماً، فالأحوال واهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود.

الحجاب: كل ما يستر مطل بك، وهو عند أهل الحق: انطباع الصور الكونية في القلب المانعة لقبول تجلي الحق.

وحجاب الغرة: هو العمى والحيرة؛ إذ لا تأثير للإدراكات الكشفية في كنه الذات، فعدم نفوذها فيه حجاب لا يرتفع في حق الغير أبداً.

حد: قول دال على ماهية الشيء، وعند أهل الله: الفصل بينك وبين مولاك، كتعبدك وانحصارك في الزمان والمكان المحدودين.

الحدس: سرعة انتقال الذهن من المبادي إلى المطالب، ويقابله الفكر، وهو أدنى مراتب الكشف.

الحق: اسم من أسماء الله، والشيء الحق، أي الثابت حقيقة، ويستعمل في الصدق والصواب أيضاً، يقال: قول حق وصواب.

وفي اللغة: هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره.

وفي اصطلاح أهل المعاني: هو الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل.

وأما الصدق فقد شاع في الأقوال خاصة، ويقابله الكذب، وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع، وفي الصدق من جانب الحكم، فمعنى صدق الحكم مطابقة للواقع، ومعنى حقيقته مطابقة الواقع إياه.

الحضرات الخمس الإلهية:

حضرة الغيب المطلق: وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية، وفي مقابلتها.

حضرة الشهادة المطلقة: وعالمها عالم الملك.

obeikandl.com

حضرة الغيب المضاف: وهي تنقسم إلى ما يكون أقرب منه الغيب المطلق، وعالمه عالم الأرواح الجبروتية.

حضرة الملكوتية: أعني عالم العقول والنفوس المجردة، إلى ما يكون أقرب من الشهادة المطلقة، وعالمها عالم المثال، ويسمى بعالم الملكوت.

الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة: وعالمها عالم الإنسان الجامع لجميع العوالم وما فيها، فعالم الملك مظهر عالم الملكوت، وهو عالم المثال المطلق، وهو مظهر عالم الجبروت، أي عالم المجردات، وهو مظهر عالم الأعيان الثابتة وهو مظهر الأسماء الإلهية والحضرة الواحدية، وهي مظهر الحضرة الأحدية.

حقائق الأسماء: هي تعينات الذات ونسبها، إلا أنها صفات يميزها الإنسان بعضها عن بعض.

obeikandl.com

المنهج العملي في التصوف

يرى الصوفية أنهم لا يكتفون بأن يوضحوا للناس أحكام الشرع وآدابه بمجرد الكلام النظري، ولكنهم بالإضافة إلى ذلك يأخذون بيد تلميذهم ويسيرون به في مدارج الترقي، ويرافقونه في جميع مراحل سيره إلى الله، يحيطونه برعايتهم وعنايتهم، ويوجهونه بحالهم وقولهم، يذكرونه إذا نسي، ويقوّمونه إذا انحرف، ويتفقدونه إذا غاب، وينشطونه إذا فتر.

وهكذا يرسمون له المنهج العملي الذي يمكنه به أن يتحقق بأركان الدين الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان.

ومن أهم الطرق العملية التي يطبقها رجال التصوف للوصول إلى رضا الله ومعرفته:

العلم:

يعتقد الصوفية أن العلم والعمل توأمان لا ينفكان عن بعضهما، والسالك في طريق الإيمان والتعرف على الله والوصول إلى رضاه لا يستغني عن العلم في أية مرحلة من مراحل سلوكه. ففي ابتداء سيره لا بد له من علم العقائد وتصحيح العبادات واستقامة المعاملات، وفي أثناء سلوكه لا يستغني عن علم أحوال القلب وحسن الأخلاق وتزكية النفس؛ ولهذا اعتُبِرَ اكتساب العلم الضروري من أهم النقاط الأساسية في المنهج العملي للتصوف، إذ يرى الصوفية أن التصوف ليس إلا التطبيق العملي للإسلام كاملا غير منقوص في جميع جوانبه الظاهرة والباطنة.

الصحبة:

يعتقد الصوفية أن للصحبة أثراً عميقاً في شخصية المرء وأخلاقه وسلوكه، وأن الصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر الروحي والاقتداء العملي. وأن الصحابة ما نالوا هذا المقام السامي والدرجة الرفيعة إلا بمصاحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومجالستهم له. وأن التابعون أحرزوا هذا الشرف باجتماعهم بالصحابة.

obeikandi.com

وبما أن الصوفية وباقي المسلمين يؤمنون بأن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة خالدة إلى قيام الساعة، فإن الصوفية يرون أن لرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ورّاثاً من العلماء العارفين بالله، ورثوا عن نبيهم العلم والخُلق والإيمان والتقوى، فكانوا خلفاء عنه في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الله، فمَنْ جالسهم سرى إليه من حالهم الذي اقتبسوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومَنْ نصرهم فقد نصر الدين، ومن ربط حبله بحبالهم فقد اتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم حسب اعتقادهم.

ويرون أن هؤلاء الوراث هم الذين ينقلون للناس الدين، مُمَثّلا في سلوكهم، حيّاً في أحوالهم، واضحاً في حركاتهم وسكناتهم، هم من الذين عناهم الرسول صلى اله عليه وسلم بقوله: « **لا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَذَلِكَ** »[1]. ويعتقدون أن أمثال هؤلاء الوراث لا ينقطع أثرهم على مر الزمان، ولا يخلو منهم بلد، وأن صحبتهم دواء مجرب، والبعد عنهم سم قاتل، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم؛ مرافقتهم هي العلاج العملي الفعّال لإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، وغرس العقيدة، ورسوخ الإيمان.

ويستدلون على أهمية الصحبة بآيات من القرآن، منها:

١- ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

٢- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٣- ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

٤- ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

٥- ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٢٣/٣، رقم ١٩٢٠)، والترمذى (٥٠٤/٤، رقم ٢٢٢٩) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٥/١، رقم ١٠).

ويقول أئمة التصوف في أهمية صحبة الشيوخ المرشدين:

١- قال أبو حامد الغزالي: «مما يجب في حق سالكِ طريق الحق أن يكون له مرشدٌ ومربٌّ ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة».

٢- قال ابن عطاء الله السكندري: «وينبغي لمن عزم على الاسترشاد، وسلوك طريق الرشاد، أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينْتهِ عما نهى عنه وزجر».

٣- قال أحمد زروق: «أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم من أخذه دونهم ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، فلزمت المشيخة».

مجاهدة النفس:

يعرّف الصوفية مجاهدة النفس على أنها: «بذل الوسع في حمل النفس على خلاف هواها ومرادها المذموم، وإلزامها تطبيق شرع الله أمراً ونهياً».

ويقولون: أنه ليس المراد من مجاهدة النفس استئصال صفاتها؛ بل المراد تصعيدها من سيء إلى حسن، وتسييرها على مراد الله وابتغاء مرضاته.

ويستدلون على المجاهدة بآيات من القرآن وأحاديث من السنة، منها:

في القرآن: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وفي السنة النبوية الحديث الشريف: «**المجاهدُ مَنْ جاهد نفسَهُ في الله**»(١).

ومن أقوال الأئمة في الحث على مجاهدة النفس:

١- قال أبو عثمان المغربي: « من ظن أنه يُفتح له بهذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها لا بلزوم المجاهدة فهو في غلط».

---

(١) أخرجه الترمذى (٤/١٦٥، رقم ١٦٢١) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (١٠/٤٨٤، رقم ٤٦٢٤). وأخرجه أيضًا: ابن المبارك فى الجهاد (١/١٤٢، رقم ١٧٥)، وأحمد (٦/٢٠، رقم ٢٣٩٩٧)، والطبرانى (١٨/٣٠٩، رقم ٧٩٧)، والبيهقى فى كتاب الزهد الكبير (٢/١٦٣، رقم ٣٦٩)، والقضاعى (١/١٤٠، رقم ١٨٤)، والديلمى (٤/٢٠٦، رقم ٦٦٢٩).

٢- قال زكريا الأنصاري: « إنّ نجاة النفس أنْ يخالف العبدُ هواها، ويحملَها على ما طلب منها ربُّها».

٣- قال أحمد بن عجيبة: « لابد للمريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهي مُظهِر ومجلاة للنهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جادّاً في طلب الحق باذلا نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية؛ علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصّراً علمنا قصوره عما هنالك».

واعترض أقوام على رجال التصوف واتهموهم بأنهم يُحَرّمون ما أحل الله من أنواع اللذائذ والمتع، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾ [الأعراف:٣٢].

ولكن رجال التصوف ردوا عليهم بقولهم أنهم لم يجعلوا الحلالَ حراماً، إذْ أسمى مقاصدهم هو التقيد بشرع الله، ولكنهم حين عرفوا أن تزكية النفس فرضُ عين، وأن للنفس أخلاقاً سيئة وتعلقات شهوانية، توصِل صاحبها إلى الردى، وتعيقه عن الترقي في مدراج الكمال، وجدوا لزاماً عليهم أن يهذبوا نفوسهم ويحرروها من سجن الهوى.

وبهذا المعنى يقول الصوفي الحكيم الترمذي رداً على هذه النقطة، وجواباً لمن احتج بالآية القرآنية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾: «فهذا الاحتجاج تعنيف، ومن القول تحريف لأنّا لم نُرِدْ بهذا، التحريمَ، ولكنا أردنا تأديب النفس حتى تأخذ الأدب وتعلم كيف ينبغي أن تعمل في ذلك، ألا ترى إلى قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣] فالبغيُ في الشيء الحلال حرامٌ، والفخرُ حرام، والمباهاةُ حرام، والرياء حرام، والإسراف حرام، فإنما أُوتِيَت النفسُ هذا المنعَ من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها، حتى فسد القلب، فلما رأيتُ النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق تريد بذلك تغنياً أو مباهاة أو رياء علمتُ أنها خلطت حراماً بحلال فضيّعَتِ الشكرَ، وإنما رُزِقَتْ لتشكُرَ لا لِتكْفرَ، فلما رأيتُ سوء أدبها منعتُها، حتى إذا ذلّت وانقمعت، ورآني ربي مجاهداً في ذاته حق جهاده، هداني سبيله كما وعد الله

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فصرتُ عنده بالمجاهدة محسناً فكان الله معي، ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، وقذفَ في القلب من النور نوراً عاجلا في دار الدنيا حتى يوصله إلى ثواب الآجل».

ذكر الله:

يعرّف الإمام ابن عطاء الله السكندري الذكر على أنه: هو التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق، وقيل: ترديد اسم الله بالقلب واللسان، أو ترديد صفة من صفاته، أو حكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله، أو غير ذلك مما يُتقرّبُ به إلى الله تعالى.

ويعتقد الصوفية أن الذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، ويثمر المعارف والأحوال التي شمّر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها، كان أعظم لثمرتها وفائدتها.

وهو أصل كل مقام وقاعدته التي يبني عليها، كما يُبنى الحائط على أساسه، وكما يقوم السقف على جداره.

حث أئمة التصوف على الذكر كثيرا، فقال الإمام أبو القاسم القشيري: الذكر منشور الولاية، ومنار الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة النهاية، فليس وراء الذكر شيء؛ وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ومنشؤها عن الذكر.

وقال أيضاً: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر.

ويجعل الصوفية للذكر أنواع، ولكل منها أدلة عندهم من الكتاب والسنة يجيزونها بها، ولكل منها فوائد تعود على السالك إلى الله بما يناسب حاله، فيذكرون:

١- ذكر السرّ، وذكر الجهر.

٢- الذكر الفردي، والذكر الجماعي.

٣- الذكر باللسان، والذكر بالقلب.

الخلوة:

يعرف الصوفية الخلوة على أنها: انقطاع عن البشر لفترة محدودة، وترك للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة، كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، ثم ذكرٌ لله بقلب حاضر خاشع، وتفكرٌ في آلائه آناء الليل وأطراف النهار، وذلك بإرشاد شيخ عارف بالله، يُعلِّمه إذا جهل، ويذكِّره إذا غفل، وينشطه إذا فتر، ويساعده على دفع الوساوس وهواجس النفس.

أما عن دليلها الذي يستدلون به من الكتاب والسنة، عديدة، منها:

١- الآية القرآنية: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا﴾ [المزمل: ٨] وقد قال العلامة أبو السعود مفسراً لهذه الآية: ودُم على ذكره تعالى ليلا ونهاراً على أي وجه كان؛ من التسبيح والتهليل والتحميد... إلى أن قال: وانقطعَ إليه بمجامع الهمة واستغراق العزيمة في مراقبته، وحيث لم يكن ذلك إلا بتجريد نفسه عليه الصلاة والسلام عن العوائق الصادرة المانعة عن مراقبة الله تعالى، وقطع العلائق عما سواه.

٢- حديث عن عائشة أنها قالت: « **كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ أُولاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجَئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ** »[1].

وقد قال ابن أبي جمرة في شرحه لهذا الحديث: «في الحديث دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبده وصلاح دينه، لأن النبي لما اعتزل عن الناس وخلا بنفسه، أتاه هذا الخير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم له من مقامات الولاية. وفيه دليل على أن الأوْلى بأهل البداية الخلوة والاعتزال، لأن النبي كان في أول أمره يخلو بنفسه».

---

(١) أخرجه البخاري (١/٤، رقم ٣)، ومسلم (١٦٠).

وقال القسطلاني في شرحه لحديث عائشة المذكور: «وفيه تنبيه على فضل العزلة لأنها تريح القلب من أشغال الدنيا، وتفرغه لله تعالى، فتنفجر منه ينابيع الحكمة. والخلوة أن يخلو عن غيره، بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يصير خليقاً بأن يكون قالبه ممراً لواردات علوم الغيب، وقلبه مقراً لها».

ويذكر الإمام الغزالي طريقة الخلوة ومراحلها ومقاماتها، فيقول: «أن الشيخ يُلزِم المريد زاوية ينفرد بها، ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال – فإنّ أصل الدين القوت الحلال – وعند ذلك يلقنه ذكراً من الأذكار، حتى يشغل به لسانه وقلبه، فيجلس ويقول مثلا: الله، الله، أو سبحان الله، سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الكلمات، فلا يزال يواظب عليه، حتى يسقط الأثر عن اللسان، وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى تُمحى من القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه، غالبة عليه، قد فرغ عن كل ما سواه؛ لأن القلب إذا اشتغل بشيء خلا عن غيره – أيِّ شيء كان – فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود، خلا لا محالة من غيره. وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب، والخواطر التي تتعلق بالدنيا، وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه – ولو في لحظة – خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة، وكان أيضاً نقصاناً، فليجتهد في دفع ذلك، ومهما دفع الوساوس كلها، وردِّ النفس إلى هذه الكلمة، جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وإنها ما هي؟ وما معنى قولنا: الله؟ ولأي معنى كان إلهاً، وكان معبوداً؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر، وربما يَرِدُ عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة، ومهما كان كارهاً لذلك، ومُتَشمِّراً لإماطته عن القلب لم يضره ذلك».

ويجعل الصوفية للخلوة نوعين، هما:

١– خلوة عامة: ينفرد بها المؤمن ليتفرغ لذكر الله بأية صيغة كانت، أو لتلاوة القرآن، أو محاسبة نفسه، أو ليتفكر في خلق السموت والأرض.

٢– خلوة خاصة: يقصد منها الوصول إلى مراتب الإحسان والتحقق بمدارج المعرفة، وهذه لا تكون إلا بإشراف مرشدٍ مأذون، يُلَقِّنُ المريدَ ذكراً معيناً، ويكون على صلة دائمة

به ليزيل عنه الشكوك ويدفعه إلى آفاق المعرفة، ويرفع عنه الحجب والأوهام والوساوس، وينقله من الكون إلى المُكَوِّن.

عقيدة الصوفية في الأولياء

الولي عندهم هو: عبد لله، اختصه الله بعنايته وتوفيقه واصطفاه من بين عبيده، وهو عبد لا يضر ولا ينفع بذاته كباقي البشر، هو دون الأنبياء في المرتبة والمنزلة، إذ لا أحد يصل إلى رتبة الأنبياء مهما ارتقى في مراتب الولاية، لذلك فالولي ليس بمعصوم عن الخطأ، إلا من عصمه الله. ويستشهدون بالآية القرآنية: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣] فالمتقون هم أولياء الله. وقد ورد تحذير في أحاديث النبي محمد، وذلك كما في الحديث القدسي: «**مَنْ عَادَى لِيَ وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**»(١).

مراتب الأولياء:

جعل الصوفيةُ الأولياءَ على مراتب، وذلك بحسب اجتهادهم في دقائق التقوى – وبحسب ما يعتبرونه توفيقًا من الله لهم–، وبذلك تفاوتت مراتبهم في مقامات الولاية، فليس كل المتقين على درجة واحدة. أما من حيث الدرجات، فيجعلون المراتب من الأفضل إلى الأدنى كالتالي:

١– القطب الغوث، الذي به يغاث عباد الله وبواسطته تنزل الرحمة، اشتهر منهم أربعة: الإمام عبد القادر الجيلاني، والإمام أحمد الرفاعي، والإمام أحمد البدوي، والإمام إبراهيم الدسوقي.

٢– ثم الإمامان، وهما كالوزيرين له.

٣– ثم الأربعة الأوتاد الحافظون لجهات الأرض.

٤– ثم السبعة النجباء والحافظون للأقاليم السبعة.

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٢٣٨٤، رقم ٦١٣٧). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٢/٥٨، رقم ٣٤٧)، والبيهقى (١٠/٢١٩، رقم ٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٤).

٥- ثم الأربعون الأبدال الساعون في قضاء حوائج المسلمين، وهم في الشام. وقد ورد فيهم أحاديث مختلف في صحتها منها قول النبي محمد: «**الأبدال بالشام، وهم أربعون رجلا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا، يُسقَى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب**»(١).

٦- ثم التسعة والتسعون الذين هو مظاهر أسماء الله.

٧- ثم الثلاثمائة والتسعون الأولياء الصالحون من المؤمنين.

وأهل المراتب لا بد من وجودهم في زمان إلى نزول عيسى بن مريم.

كرامات الأولياء:

الكرامة: هي أمر خارق للعادة غير مقرونة بدعوى النبوة، يظهرها الله على أوليائه الصالحين من أتباع الرسل كرامة لهم. وقد أجمع أهل التصوف على إثبات كرامات الأولياء، كالمشي على الماء، وكلام البهائم، وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته.

ويستدلون على صحتها ووجودها بآيات من القرآن، منها:

١- قصة الذي عنده علم من الكتاب في الآية القرآنية: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

٢- قصة مريم بنت عمران حين قال لها نبي الله زكريا عليه السلام: ﴿أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧].

٣- ومن الأحاديث الشريفة: « **أَنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى تَفَرَّقَا، فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا** »(٢).

٤- ومن قصص وقعت للصحابة: قصة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عن ابن عمر قال: وجه عمر جيشا وولى عليهم رجلا يدعى سارية، فبينما عمر في المدينة

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٢٨٩/١) وقال: هذا منقطع بين شريح وعلى فإنه لم يلقه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٤/٣، رقم ٣٥٩٤).

يخطب على المنبر جعل ينادي: يا سارية الجبل!! ثلاثا. ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين؛ هُزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتا ينادي: يا سارية الجبل ثلاثا، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله. قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح هكذا وهكذا.

الصوفية يعتبرون أن أعظم الكرامات هي الاستقامة على شرع الله؛ قال أبو القاسم القشيري: واعلم أن من أجلِّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، والحفظ من المعاصي والمخالفات.

والصوفية يمنعون إظهار الكرامة إلا لغرض صحيح؛ كنصرة شريعة الله أمام الكافرين والمعاندين، أما إظهارها بدون سبب مشروع فهو مذموم، لما فيه من حظ النفس والمفاخرة والعجب.

قال الشيخ محي الدين بن عربي: ولا يخفى أن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس، إلا إنْ كانت لنصر دين أو جلب مصلحة؛ لأن الله تعالى هو الفاعل عندهم، لا هُمْ، هذا مشهدهم، وليس وجه الخصوصية إلا وقوع ذلك الفعل الخارق على يدهم دون غيرهم؛ فإذا أحيا كبشاً مثلا أو دجاجة فإنما ذلك بقدرة الله لا بقدرتهم، وإذا رجع الأمر إلى القدرة فلا تعجب.

كما أن الصوفية لا يعتبرون ظهور الكرامات على يد الولي الصالح دليلا على أفضليته على غيره؛ قال الإمام اليافعي: لا يلزم أن يكون كلُّ مَنْ له كرامة من الأولياء أفضلَ من كل من ليس له كرامة منهم، بل قد يكون بعض مَنْ ليس له كرامة منهم أفضل من بعض مَنْ له كرامة؛ لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها، ودليلا على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته، وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين، وكمال المعرفة بالله تعالى.

ويعتبر الصوفية أن عدم ظهور الكرامة على يد الولي الصالح ليس دليلا على عدم ولايته؛ قال الإمام القشيري: لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا، لم يقدح عدمها في كونه ولياً.

هل يجوز للولي أن يعرف أنه ولي؟

اختلف الصوفية في الولي: هل يجوز أن يعرف أنه ولي أم لا؟ على قولين:

١- فقال بعضهم: لا يجوز ذلك؛ لأن معرفة ذلك تزيل عنه خوف العاقبة، وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن، وفي وجوب الأمن زوال العبودية؛ لأن العبد بين الخوف والرجاء.

٢- وقال الأجلة منهم والكبار: يجوز أن يعرف الولي ولايته؛ لأنها كرامة من الله للعبد، والكرامات والنعم يجوز أن يعلم ذلك فيقتضي زيادة الشكر.

ويستدل هؤلاء بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أصحابه بأنهم من أهل الجنة، وشهد للعشرة بالجنة، وشهادة النبي صلى الله عليه وسلم توجب سكونا إليها، وطمأنينة بها، وتصديقا لها، ومع ذلك فقد أخبرهم النبي بذلك.

الشريعة والطريقة والحقيقة

يقسّم الصوفية الدين إلى ثلاثة أركان رئيسية: هي الشريعة، والطريقة، والحقيقة.

ويستدل الصوفية على صحة هذا التقسيم ما ورد بحديث نبي الإسلام محمد الذي اشتهر باسم حديث جبريل وهو مروي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال:

بَيْنَما نحنُ جلوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يومٍ، إذ طَلعَ علَيْنا رجلٌ شَديدُ بياض الثِّياب، شديدُ سوادِ الشَّعر، لا يُرى عليه أثرُ السَّفَر، ولا يعرفُه مِنَّا أحدٌ، حتَّى جَلَسَ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فأسْندَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووَضعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيهِ وقال: يا محمَّدُ؛ أخبرني عن الإسلام؟ فقالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أن تَشهدَ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلاة، وتؤتِيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتَحُجَّ البيْتَ إن استطعت إليه سبيلا». قال: صدقت، قال: فَعَجِبنا لَهُ يَسْأَلُه ويُصدِّقُه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أنْ تُؤمن باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكتبه، ورُسُلِه، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خَيْرِهِ وشَرِّهِ». قال: صدَقْتَ.

قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تَراه، فإنه يَراكَ».

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعْلَمَ من السَّائِلِ». قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها، وأنْ تَرَى الحُفَاةَ الْعُرَاةَ، العالَةَ رِعاءَ الشاءِ يتَطاوَلون في البُنْيان»، قال: ثم انطلَقَ، فلبِثَ مَليًّا ثم قال لي: «يا عمر؛ أتدري مَن السَّائل؟» قُلْتُ: الله ورسُولُه أعلم، قال: «فإنَّه جبريل أتاكم يُعلِّمُكم دينَكُمْ»، هذا لفظُ مُسْلِمٍ(١).

فالحديث يذكر أقسام الدين كما يقولون، وهي:

١- ركن الإسلام: وهو الجانب العملي؛ من عبادات ومعاملات وأُمور تعبدية، ومحله الأعضاء الظاهرة الجسمانية. وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشريعة، واختص بدراسته الفقهاء.

٢- ركن الإيمان: وهو الجانب الاعتقادي القلبي؛ من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر. وقد اختص بدراسته علماء التوحيد.

٣- ركن الإحسان: وهو الجانب الروحي القلبي؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وما ينتج عن ذلك من أحوال وأذواق وجدانية، ومقامات عرفانية، وعلوم وهبية، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة، واختص ببحثه الصوفية.

وللوصول إلى هذا المقام، والإيمان الكامل، لابد من سلوك الطريقة، وهي مجاهدة النفس، وتصعيد صفاتها الناقصة إلى صفات كاملة، والترقي في مقامات الكمال بصحبة المرشدين، فهي الجسر الموصل من الشريعة إلى الحقيقة.

قال السيد في تعريفاته: «الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى، من قطع المنازل والترقي في المقامات».

---

(١) أخرجه مسلم (١/٣٦، رقم ٨)، وأبو داود (٤/٢٢٣، رقم ٤٦٩٥)، والترمذى (٥/٦، رقم ٢٦١٠) وقال: حسن صحيح. والنسائى فى الكبرى (٦/٥٢٨، رقم ١١٧٢١)، وابن ماجه (١/٢٤، رقم ٦٣)، وابن خزيمة (٤/١٢٧، رقم ٢٥٠٤)، وابن حبان (١/٣٨٩، رقم ١٦٨)، وأخرجه أيضًا: الدارقطنى (٢/٢٨٢)، والبيهقى (١٠/٢٠٣، رقم ٢٠٦٦٠).

obeikandl.com

ولتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة يضربون لذلك مثلا الصلاة، فالإتيان بحركاتها وأعمالها الظاهرة، والتزام أركانها وشروطها، وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه، يمثل جانب الشريعة، وهو جسد الصلاة. وحضور القلب مع الله في الصلاة يمثل جانب الحقيقة، وهو روح الصلاة. فأعمال الصلاة البدنية هي جسدها، والخشوع روحها. وما فائدة الجسد بلا روح؟! وكما أن الروح تحتاج إلى جسد تقوم فيه، فكذلك الجسد يحتاج إلى روح يقوم بها، ويستدلون على ذلك بالآية القرآنية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:٤٣] ولا تكون الإقامة إلا بجسد وروح، ولذا لم يقل: أوجدوا الصلاة.

فالشريعة عندهم هي الأساس، والطريقة هي الوسيلة، والحقيقة هي الثمرة، وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة، فَمَنْ تمسَّك بالأولى منها سلك الثانية فوصل إلى الثالثة، وليس بينها تعارض ولا تناقض، ولذلك يقول الصوفية في قواعدهم المشهورة: (كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة).

ويقول الشيخ أحمد زروق: لا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه. ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى. ولا هما (التصوف والفقه) إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما دونه. فلزم الجميع لتلازمها في الحكم، كتلازم الأجسام للأرواح، ولا وجود لها إلا فيها، كما لا حياة لها إلا بها، فافهم.

ويقولون: أنه كما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة، كذلك حفظ علماء التصوف آدابها وروحها، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع، والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يَرِدْ فيه نص، فكذلك لعلماء الصوفية أن يستنبطوا آداباً ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السالكين.

موقف أئمة السنة من التصوف

١- الإمام أبو حنيفة النعمان، لكونه صاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة فهو صاحب طريقة في التصوف، قال علي الدقاق: أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباذي، وقال أبو القاسم: أنا أخذها من الشبلي، وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه، وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله.

٢- الإمام مالك بن أنس، قال: من تفقه و لم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف و لم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.

٣- الإمام محمد بن إدريس الشافعي، قال: حُبب إليّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف.

٤- الإمام أحمد بن حنبل، قال عن الصوفية: لا أعلم أقواماً أفضل منهم. قيل له: إنهم يستمعون ويتواجدون؟ قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة.

وكان الإمام أحمد بن حنبل قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله: يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه. فلمّا صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم، أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة.

٥- الإمام أبو حامد الغزالي، قال: إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقةٍ طهارتُها - وهي أول شروطها - تطهيرُ القلب بالكلية عما سوى الله

تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله.

٦- الإمام العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، وقد أخذ التصوف عن شهاب الدين عمر السهروردي، وسلك على يد الشيخ أبي الحسن الشاذلي، قال: قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم، ومما يدلك على ذلك، ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربات الحق لهم، ورضاه عنهم، ولو كان العلم من غير عمل، يرضي الحق تعالى كل الرضى، لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم، ولو لم يعملوا بعلمهم، هيهات هيهات.

٧- الإمام النووي، قال في رسالته المقاصد: أصول طريق التصوف خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، الرضى عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء.

٨- الإمام تاج الدين السبكي، قال في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم»، تحت عنوان الصوفية: حياهم الله وبيّاهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم. وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المُتلبّسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم لأنه لا حدَّ لهم. والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة.. ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويُستنزل الغيث بدعائهم، فوعنّا بهم.

٩- الإمام جلال الدين السيوطي، قال: إن التصوف في نفسه علم شريف، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع، والتبرّي من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومراداتها واختياراتها، والتسليم لله، والرضى به وبقضائه، وطلب محبته، واحتقار ما سواه.. وعلمتُ أيضاً أنه قد كثر فيه الدخيل من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، فوجّه أهلُ العلم للتمييز بين الصنفين ليُعلمَ أهل الحق من أهل الباطل، وقد تأملتُ الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية فلم أرَ

صوفياً محقّقاً يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاةُ الذين ادّعَوْا أنهم صوفية وليسوا منهم.

١٠- الإمام ابن عابدين، وقد تحدّثَ عن البدع الدخيلة على الدين مما يجري في المآتم والختمات من قِبل أشخاص تزينوا بزي العلم، وانتحلوا اسم الصوفية، ثم استدرك الكلام عن الصوفية الصادقين حتى لا يُظن أنه يتكلم عنهم عامة فقال: ولا كلام لنا مع الصُدّق من ساداتنا الصوفية المبرئين عن كل خصلة رديّة، فقد سُئل إمامُ الطائفتين الجنيد: إن أقواماً يتواجدون ويتمايلون؟ فقال: دعوهم مع الله تعالى يفرحون، فإنهم قوم قطّعت الطريقُ أكبادَهم، ومزّق النصبُ فؤادَهم، وضاقوا ذرعاً فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواةً لحالهم، ولو ذُقْتَ مذاقهم عذرتهم في صياحهم.

المصادر والمراجع:

١- الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية.

٢- قواعد التصوف، تأليف: أحمد زروق.

٣- النصرة النبوية، تأليف: مصطفى المدني.

٤- نور التحقيق، تأليف: حامد صقر.

٥- معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تأليف: أحمد بن عجيبة الحسني.

٦- حقائق عن التصوف، تأليف عبد القادر عيسى.

٧- كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، تأليف: حاجي خليفة.

٨- الانتصار لطريق الصوفية، تأليف: محمد صديق الغماري.

٩- مجلة العشيرة المحمدية، عدد محرم ١٣٧٦هـ، من بحث: التصوف من الوجهة التاريخية، للدكتور أحمد علوش.

١٠- طبقات الصوفية، تأليف: أبو عبد الرحمن السلمي.

١١- إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، تأليف أحمد بن عجيبة.

١٢- لطائف المنن والأخلاق، تأليف: عبد الوهاب الشعراني.

١٣- اليواقيت والجواهر للشعراني.

obeikandl.com

١٤- التعرف على مذهب أهل التصوف، تأليف: الكلاباذي.

١٥- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، تأليف: ابن عطاء الله السكندري.

١٦- الرسالة القشيرية.

١٧- بهجة النفوس شرح مختصر البخاري للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المتوفى ٦٩٩هـ.

١٨- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣هـ.

١٩- الإحياء للغزالي.

٢٠- المنقذ من الضلال، للغزالي.

obeikandl.com

الإمام الغزالي
ورحلة البحث عن الحقيقة
(٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨م - ١١١١م)

اسمه ونسبه:

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري، الملقب بحجة الإسلام، وزين الدين، مجدد القرن الخامس الهجري، أحد أهم أعلام عصره، وأحد أشهر علماء الدين في التاريخ الإسلامي.

ولادته:

ولد أبو حامد الغزالي في قرية «غزالة» القريبة من طوس من إقليم خراسان عام (٤٥٠هـ الموافق ١٠٥٨م)، وإليها يُنسب.

نشأته:

نشأ في بيت فقير من عائلة خراسانية، فقد كان والده رجلا زاهداً ومتصوفاً لا يملك غير حرفته، ولكن كانت لديه رغبة شديدة في تعليم ولديه محمد وأحمد، وحينما حضرته الوفاة عهد إلى صديق له متصوف برعاية ولديه، وأعطاه ما لديه من مال يسير، وأوصاه بتعليمهما وتأديبهما، فاجتهد الرجل في تنفيذ وصية الأب على خير وجه حتى نفد ما تركه لهما أبوهما من المال، وتعذر عليه القيام برعايتهما والإنفاق عليهما، فألحقهما بإحدى المدارس التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، والتي كانت تكفل طلاب العلم فيها.

تلقيه العلم:

ابتدأ طلبه للعلم في صباه، فأخذ الفقه في طوس، ثم قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين الجويني في نيسابور، فأخذ عنه جملة من العلوم في الفقه وأصوله وعلم الكلام والمنطق، وفي هذه الفترة ألف الغزالي كتابه «المنخول» وعرضه على شيخه الجويني، فأعجب به قائلا: «دفنتني وأنا حي! هلا صبرت حتى أموت؟!». واجتهد الغزالي في طلب العلم حتى تخرج في مدة قريبة وصار أفضل أهل زمانه وأوحد أقرانه.

obeikandl.com

شيوخه:

درس الغزالي على عدد من العلماء والأعلام، منهم:

١- أحمد الرازكاني، أخذ عنه الفقه في طوس.

٢- أبو نصر الإسماعيلي.

٣- أبو المعالي الجويني، أخذ عنه الفقه وأصوله وعلم الكلام والمنطق والفلسفة.

٤- الفضل بن محمد الفارمذي، تلميذ أبو القاسم القشيري، والذي اشتهر في زمانه حتى صار مقصد طالبي التصوف، وقد أخذ عنه الغزالي التصوف.

٥- الشيخ يوسف النساج، وقد أخذ عنه التصوف.

تلاميذه:

١- أبو منصور ابن الرزاز.

٢- أبو عبد الله الجيلي.

٣- الباربابذي.

٤- أبو الفتح الباقرجي.

٥- أبو العباس الأقليشي.

٦- أبو بكر بن العربي.

٧- عبد القادر الجيلاني.

حياته:

جلس الغزالي للإقراء وإرشاد الطلبة وتأليف الكتب في أيام إمامه الجويني، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه. ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلا عظيماً لعلو درجته وحسن مناظرته، وكان مجلس نظام الملك محطاً لرحال العلماء، ومقصد الأئمة والفضلاء، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول، فظهر اسمه وطار صيته، فأشار عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بالتدريس في المدرسة النظامية، فسار إليها سنة (٤٨٤هـ) وأعجب الكل بتدريسه ومناظرته وحضره الأئمة الكبار كابن عقيل وأبي الخطاب، وتعجبوا من كلامه ونقلوه في

obeikandi.com

مصنفاتهم، فصار إمام العراق بعد أن حاز إمامة خراسان، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة.

رحلة البحث عن الحقيقة:

مرّ الغزالي في حياته بمرحلة شكّ خلالها في الحواس والعقل وفي قدرتهما على تحصيل العلم اليقيني (وهذه الحالة هي التي تسمى فترة الشك وهي غير الأزمة الروحانية التي أدت بالغزالي إلى ترك بغداد؛ وهي الأزمة الأولى وهي بطابعها غير روحانية وإنما هي معرفية) ودخل في مرحلة من السفسطة الغير منطقية حتى شفاه الله منها بعد مدة شهرين تقريبًا، حيث يقول عن نفسه: «فلما خطرت لي هذه الخواطر - خواطر الشك في المحسوسات والمعقولات - وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، و لم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين؛ و لم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف»[1].

ويتابع الغزالي قائلا عن نفسه: ولما شفاني الله من هذا المرض بفضله وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

١- المتكلمون: وهم يدّعون أنـــهم أهل الرأي والنظر.

٢- الباطنية: وهم يزعمون أنـــهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣- الفلاسفة: وهم يزعمون أنـــهم أهل المنطق والبرهان.

٤- الصوفية: وهم يدعون أنـــهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة.

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ٨/١.

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع... فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق، مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعلم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية.

١ – المتكلمون:

بدأ الغزالي في تحصيل علم الكلام وطالع كتب المحققين منهم، حتى عقله وفهمه حق الفهم، بل وصنف فيه عدة من الكتب التي أصبحت مرجعا في علم الكلام فيما بعد مثل كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد».

ولقد قال الغزالي عن علم الكلام: أنه حفظ العقيدة من الشكوك التي تثار حولها والطعون التي توجه إليها. أما أن يخلق علم الكلام عقيدة الإسلام في إنسان نشأ خاليا عنها غير مؤمن بها، فهذا ما لم يحاوله علم الكلام، وما لم يكن في مهمته، وقد قضت عليه مهمته تلك أن يأخذ مقدماته من هؤلاء الطاعنين المشككين ليؤاخذهم بلوازم مسلماتهم، وهي مقدمات واهية ضعيفة قال: وكان أكثر خوضهم (يقصد علم الكلام) في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم.

هذا هو مقصود علم الكلام؛ أما مقصود الغزالي فهو إدراك الحقيقة الدينية إداركا يقينيا عن مكاشفة ودقة ووضوح؛ لهذا يقول الغزالي مشيرا إلى علم الكلام: فلم يكن الكلام في حقي كافيا، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافيا[1].

لم يجد الغزالي ضآلته المنشودة في علم الكلام، ورآه غير واف بمقصوده، إذن لم يكن علم الكلام مقنعا للغزالي فظل يبحث عن الحقيقة انتقل إلى الصنف الثاني من طالبين الحقيقة وهم الفلاسفة.

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ١/١١.

٢- الفلاسفة:

تناول الغزالي بحوث الفلاسفة التي تعرضوا فيها لموضوعات العقيدة، عله يجد لديهم من فنون المحاولات العقلية ما يقطع بصحة ما ذهبوا إليه بشأنها، فوجدهم قد اختلفوا فيها اختلافا كبيرا، وسرعان ما أدرك الغزالي أن مزاولة العقل لهذه المهمة إقحام له فيما لا طاقة له به، وأن أسلوب العقل في تفهم الأمور الرياضية لا يمكن أن تخضع له المسائل الإلهية. فألف الغزالي في نقدهم وتفنيد آرائهم كتبا أهمها كتاب «تهافت الفلاسفة».

لذلك خرج الغزالي بهذه النتيجة: فإني رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً؛ وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه[1].

فكذلك لم يجد الغزالي ضآلته في الفلسفة ورآها غير جديرة بما يمنحها الناس من ثقة، فاتجه إلى ثالث فرقة من أصناف الباحثين عن الحق وهي الباطنية أو التعليمية.

٣- الباطنية:

في عهد الخليفة العباسي المستظهر برزت فرقة تسمى الباطنية، وكانت ترى أنه يجب تأويل القرآن والبحث في باطنه وعدم قبول ظاهره فقد كانوا يؤمنون بالمعاني الباطنة. وإن لهذه الفرقة أفكار ضآلة وملحدة حتى أنها كانت تهدف إلى التشكيك في أركان الشريعة فمثلا يقولون: ما الهدف من رمي الحجارة؟ وما الداعي للسعي بين الصفا والمروة؟ إذن كانت فرقة ملحدة تكفيرية خطيرة أحس الخليفة العباسي بخطرها فطلب من الغزالي أن يؤلف كتاب يقوم فيه بالرد عليهم. فتمعن الغزالي بأفكارهم وتعمق بها وكتب كتاب «فضائح الباطنية»، فانتقدهم في كتابه وتأثر بكتب من سبقوه في نقد هذه الفرقة.

يقول الباطنية: إن العقل لا يؤمن عليه الغلط، فلا يصح أخذ حقائق الدين عنه. وإلى هذا الحكم انتهى الغزالي عند امتحانه للفلاسفة، فهم إذن في هذه النقطة متفقون. عماذا إذن يأخذون قضايا الدين في ثوبها اليقيني؟! يأخذونها عن الإمام المعصوم الذي يتلقى عن

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ١/١٤.

الله بواسطة النبي. أحب بهذا الإمام وبما يأتي عن طريقه. ولكن أين ذلك الإمام، فتش عنه الغزالي طويلا فلم يجده، وتبين أنهم فيه مخدوعون، وأن هذا الإمام لا حقيقة له في الأعيان، فعاد أدراجه وكرّ راجعا، بعد ما ألف كتبا ضدهم أوجعهم فيها نقدًا وتفنيدًا كما يقول: فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً.

وأيضا لم يجد الغزالي ضآلته عند الباطنية، ورآهم غارقين في حيرة، فوصل أخيرا عند الصوفية، وعندها ابتدأ اعتزاله عن الناس وسفره.

٤- الصوفية:

عندما فرغ الغزالي من هذه العلوم، أقبل بهمته على طريق الصوفية، وبما أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنــزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بــها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله. ابتدأ الغزالي بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل:

١- «قوت القلوب» لأبي طالب المكي.

٢- كتب الحارث المحاسبي.

٣- المتفرقات المأثورة عن الجنيد.

٤- المتفرقات المأثورة عن الشبلي.

٥- المتفرقات المأثورة عن أبي يزيد البسطامي.

وبعد أن اطلع الغزالي على كنه مقاصدهم العلمية، وحصل ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر له أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. فيقول عن نفسه: فعلمت يقيناً أنــهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصّلته، ولم يبقَ إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك[(١)].

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ١/٣٠.

عند ذلك لاحظ الغزالي على نفسه انغماسه في العلائق وأنه في تدريسه وتعليمه مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ونيته غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت. فلم يزل يتفكر مدة، حتى صمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، ويحل العزم يوماً، ويقدم فيه رجلا ويؤخر عنه أخرى.

يقول الغزالي عن نفسه: فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة (٤٨٨ هـ). وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة...ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبّر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي على المقام في الشام؛ فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً.

ثم دخل الشام، وأقام به قريباً من سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة؛ والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كان يحصله من كتب الصوفية. فكان يعتكف مدة في مسجد دمشق، يصعد منارة المسجد طول النهار، ويغلق بابها على نفسه. ثم رحل منها إلى بيت المقدس، يدخل كل يوم الصخرة، ويغلق بابها على نفسه. ثم يتابع الغزالي رحلته وخلوته ويقول عن نفسه: ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة. وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه؛ فسرت إلى الحجاز.

ودام الغزالي في خلوته مقدار عشر سنين؛ ليصل إلى نتيجة وهي في قوله: إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟ وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه. ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه[1].

وخلال فترة اعتزاله ألف الغزالي كتابه «إحياء علوم الدين» والذي ابتدأ تأليفه في القدس ثم أتمه بدمشق، وهو يمثل تجربته التي عاشها في تلك الفترة. ويعتبر كتاب «الإحياء» أحد أهم كتبه التي ألفها، وأحد أهم وأشمل الكتب في علم التصوف. حتى أنه قيل عنه: من لم يقرأ «الإحياء» فليس من الأحياء. كما وألف كتابه «المنقذ من الضلال» كتب فيه قصة اعتزاله وعودته.

اتسم منهج الامام الغزالي بعد مسيرته الصوفية بشيء من الوسطية ووقف بآرائة ضد العصبية الدينية والافكار التكفيرية، حيث ارجع ابتعاد الناس عن طريق الحق والتدين متمثل

(١) انظر: المنقذ من الضلال ١/٣٤.

في طريقة الدعوة التي تباناها أشخاص يزكون أنفسم بإظهار فساد غيرهم وان لم يكن فاسد، وإخراج الدين عن منهج الفطرة الذي اتسم به منذ بداية الدعوة، فكانت من حكمة الشهيرة في كتاب «إحياء علوم الدين» قوله: « إن انتشار الكفر في العالم يحمل نصف أوزاره متدينون بغضوا الله إلى خلقه بسوء صنيعهم وسوء كلامهم». كانت تختصر هذه الحكمة منهجًا قد ساد في زمن الامام الغزالي، تمثل بتشويه أفراد متعصبين دينيًا لأسس الدعوة الإسلامية أو أسس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى بغضهم الناس وبغضوا ما اقترن فيهم من تدين، أي أنهم بغضو الدين لأجل هؤلاء الأفراد.

عودته إلى بلده:

يقول الغزالي عن نفسه: لما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بـــهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم – أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء–، انقدح في نفسي أن ذلك –الرجوع إلى بلده – متعين في هذا الوقت، محتوم. فماذا تغني الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك؟... فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية؛ وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدّرها الله سبحانه على رأس هذه المائة؛ فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظنّ بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة. ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة، سنة تسع وتسعين وأربع مائة (٤٩٩ هـــ). وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة (٤٨٨ هـــ). وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنة. وهذه حركة قدّرها الله تعالى، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد، والنـــزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلا بالبال؛ والله تعالى مقلب القلوب والأحوال و«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابعِ الرحمن».

وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت! فإن الرجوع عَودٌ إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي. وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه، ويعرف بـــه سقوط رتبة الجاه. هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي؛ يعلم الله ذلك مني؛ وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصِل مرادي أم أُحترم دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم؛ وأني لم أتحرك، لكنه حركني؛ وإني لم أعمل، لكنه استعملني؛ فأسأله أن يصلحني أولا، ثم يُصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي؛ وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلا، ويرزقني اجتنابه[1].

عاد الغزالي إذن إلى وطنه طوس لازماً بيته مقبلا على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعائهم إلى الله تعالى، والاستعداد للدار الآخرة مرشد الضالين ومفيد الطالبين، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف. فلما صارت الوزارة إلى فخر الملك أحضره وسمع كلامه وألزمه بالخروج إلى نيسابور، فخرج ودرس ثم عاد إلى وطنه واتخذ في جواره مدرسة ورباطًا للصوفية وبنى دارًا حسنة وغرس فيها بستانًا وتشاغل بالقران وسمع الصحاح.

مؤلفاته:

ألّف الإمام الغزالي خلال مدة حياته (٥٥ سنة) الكثير من الكتب في مختلف صنوف العلم، حتى أنه قيل: إن تصانيفه لو وزعت على أيام عمره أصاب كل يوم كتاب. حيث بلغت (٤٥٧) مصنفًا ما بين كتاب ورسالة، كثير منها لا يزال مخطوطًا، ومعظمها مفقود. ومن هذه الكتب:

أولا: في العقيدة وعلم الكلام والفلسفة:

١- مقاصد الفلاسفة.

٢- تهافت الفلاسفة.

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال ١/٤٢.

٣- الاقتصاد في الاعتقاد.

٤- بغية المريد في مسائل التوحيد.

٥- إلجام العوام عن علم الكلام.

٦- المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى.

٧- فضائح الباطنية.

٨- القسطاس المستقيم (الرد على الإسماعيلية).

٩- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

ثانيًا: في الفقه وأصوله والمنطق:

١- المستصفى في علم أصول الفقه.

٢- المنخول في تعليقات الأصول.

٣- الوسيط في فقه الإمام الشافعي.

٤- الوجيز في فقه الإمام الشافعي.

٥- معيار العلم في المنطق.

٦- محك النظر (منطق).

ثالثًا: في التصوف:

١- إحياء علوم الدين.

٢- بداية الهداية.

٣- المنقذ من الضلال.

٤- روضة الطالبين وعمدة السالكين.

٥- الأربعين في أصول الدين.

٦- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين.

٧- معارج القدس في مدارج معرفة النفس.

٨- الدعوات المستجابه ومفاتيح الفرج.

٩- مدخل السلوك الي منازل الملوك.

obeikandl.com

١٠- أصناف المغرورين.

١١- مشكاة الأنوار.

١٢- ميزان العمل.

١٣- أيها الولد المحب: من الكتب المشهورة والذائعة الصيت خاصة بين أهل الذوق الصوفي. وهي عبارة عن مجموعة من النصائح والإرشادات وجهها الغزالي لأحد تلامذته لتكون دستورًا ومنهجًا وطريقة له في حياته.

وفيها يبين الطريقة السليمة لتربية أولاد المسلمين، ويحدد العلوم التي ينبغي أن يتعلمها التلميذ، والصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المدرس، وكيف تكون العلاقة بينهما.

١٤- كيمياء السعادة (في الفارسية: كيمياي سعادت).

١٥- سر العالمين وكشف ما في الدارين.

١٦- مكاشفه القلوب إلي حضره علام الغيوب.

رابعًا: متنوعة:

١- جواهر القرآن ودرره.

٢- الحكمة في مخلوقات الله.

٣- التبر المسبوك في نصحية الملوك.

٤- آداب النكاح وكسر الشهوتين.

٥- القصيدة المنفرجة.

٦- شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل.

ثناء العلماء على الإمام الغزالي:

١- شيخه أبو المعالي الجويني: الغزالي بحر مغدق. وعندما ألف الغزالي (المنخول في أصول الفقه) في مطلع شبابه، قال له الجويني: دفنتني وأنا حي، هلا صبرت حتى أموت، كتابك غطى على كتابي.

٢- الذهبي: الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط.

obeikandl.com

٣- ابن الجوزي: صنف الكتب الحسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها.

٤- تاج الدين السبكي: حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، جرت الأئمة قبله بشأو ولم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلب وراء مطلب لأصحاب النهاية والبداية.

٥- ابن النجار: أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ورباني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه، وعين أوانه برع في المذهب والأصول والخلاف والجدل والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة، وفهم كلامهم وتصدى للرد عليهم، وكان شديد الذكاء، قوي الإدراك، ذا فطنة ثاقبة، وغوص على المعاني.

٦- أبو الحسن الشاذلي: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد.

٧- أبو العباس المرسي: إنا لنشهد له بالصديقية العظمى.

٨- ابن العماد الحنبلي: الإمام زين الدين حجة الإسلام، أبو حامد أحد الأعلام، صنف التصانيف مع التصون والذكاء المفرط والاستبحار في العلم وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه.

٩- ابن كثير: كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه.

١٠- أبو بكر ابن العربي: رأيت الغزالي ببغداد يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم.

١١- أسعد الميهني: لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.

١٢- عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي: أبو حامد الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، من لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاءً وطبعاً.

١٣- محمد بن يحيى: الغزالي هو الشافعي الثاني.

١٤- الأسنوي: الغزالي إمام باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرءوس. وقال أيضا: وهو قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود وروح خلاصة أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن يتقرب إلى الله تعالى به كل صديق ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق.

١٥- تلميذه الشيخ أبو العباس الأقليشي المحدّث الصّوفي، مدحه ومدح كتاب «إحياء علوم الدين» في أبيات من الشعر:

أبا حامد أنت المخصص بالمجـــــدِ وأنت الذي علمتنا ســـنن الرشـــدِ
وضعت لنا الإحياء تحيي نفوســـنا وتنقذنا من طاعة النـــازغ المـــردي
فربـــع عباداتـــه وعاداتـــه الـــتي يعاقبها كالـــدر نظـــم في العقـــدِ
وثالثهـــا في المهلكـــات وإنـــه لمنج من الهلـــك المـــبرح والبعـــدِ
ورابعهـــا في المنجيـــات وإنـــه ليسرح بالأرواح في جنـــة الخُلْـــدِ
ومنها ابتهاج للجـــوارح ظـــاهر ومنها صلاح للقلوب مـــن الحقـــدِ

رؤيا في الإمام الغزالي:

قال الحافظ ابن عساكر(١): سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفراييني يقول: سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاوي بمكة المشرفة يقول: دخلت المسجد الحرام يوماً فطرأ عليّ حال وأخذني عن نفسي، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي، فوقعت على جنبي الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة، وكنت أطرد عن نفسي النوم، فأخذتني سنة بين النوم واليقظة، فرأيت النبي في أكمل صورة وأحسن زي من القميص والعمامة، ورأيت الأئمة الشافعي ومالكاً وأبا حنيفة وأحمد رحمهم الله يعرضون عليه مذاهبهم واحداً بعد واحد، وهو يقررهم عليها، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبي بطرده وإهانته، فتقدمت أنا وقلت: يا رسول الله، هذا الكتاب - أعني «إحياء علوم الدين» - معتقدي ومعتقد أهل

(١) انظر: كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، تأليف: عبد القادر العيدروس باعلوي، ص٥.

السنة والجماعة، فلو أذنت لي حتى أقرأه عليك فأذن لي فقرأت عليه من (كتاب قواعد العقائد): بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب قواعد العقائد؛ وفيه أربعة فصول: الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة، حتى انتهيت إلى قول الغزالي: وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمداً إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس؛ فرأيت البشاشة في وجهه. ثم التفت وقال: أين الغزالي؟ وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال: ها أنا ذا يا رسول الله، وتقدم وسلم، فرد عليه الصلاة والسلام، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها، وما رأيت النبي أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتي عليه الإحياء، ثم انتبهت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات.

وفاته:

توفي الإمام أبو حامد الغزالي يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥ هـ، الموافق ١٩ ديسمبر ١١١١م، في مدينة طوس، وسأله قبيل الموت بعض أصحابه: أوص، فقال: عليك بالإخلاص، فلم يزل يكررها حتى مات.

مصادر الترجمة:

١- المنقذ من الضلال، تأليف: الغزالي نفسه.
٢- وفيات الأعيان ٤ / ٢١٦ - ٢١٩.
٣- شذرات الذهب ٤ / ١٠ - ١٣.
٤- طبقات السبكي ٤ / ١٠١.
٥- تبيين كذب المفتري ص ٢٩١ - ٣٠٦.
٦- المنتظم ٩ / ١٦٨.

obeikandl.com

أفكار الإمام الغزالي التربوية

يرى الغزالي أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢] هو التعليم والإرشاد.

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من جمع العرب حوله في حلقة لأخذ العلم، فلم تكن العرب في الجاهلية تعرف الاجتماع لهذا الغرض.

لذلك اعتبر الغزالي التربية والتعليم رسالة؛ إذ على المربي أن لا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يُعَلِّم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه مِنَّه عليهم وإن كانت الْمِنَّة لازمة عليهم.

وفي نظر الغزالي إن ثواب العلم أعظم من ثواب المتعلم عند الله تعالى، ولقد حذَّرَ علماء المسلمين من طلب العلم لأغراض دنيوية، واعتبروا أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم والزلفى لديه في جناب النعيم.

وليس هناك ما يمنع من أن تكون رسالة التعليم – التي تقوم على اقتناع داخلي عميق بما يؤديه صاحبها من عمل – مهنة أو وظيفة حيث أن مثل هذا العمل لابد وأن يتحول إلى رسالة لطالما حدد المعلم أهدافه على ضوء إلتزامه بعقيدة الإسلام. ولذلك نتيجة لتطوير المجتمع الإسلامي وتعقيدات الحياة منه لم يجد الغزالي حرجاً في إباحة أخذ الأجرة.

ولئن أباح الغزالي الأجر على إفادة العلم فإنما كان ذلك من منطلق حرصة على نشر العلم وإفساح المجال للمدرس كي يفرغ قلبه عن العلائق التي قد تحول دون القيام برسالة التربية والتعليم ونشر تعاليم الدين.

أما المربي الفرنسي المعاصر روينه أوبير فيقول: (التربية جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنسان في كائن إنساني آخر وفي الغالب راشد في صغير، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل الغايات التي يعد لها حين يبلغ طور النضج).

ويقول الإمام الغزالي: (الصبي أمانة عند والدية وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما يُنقش، ومائل لكل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له

ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم والوالي له).

ويعكس كلام الغزالي فهمه للتربية الذي يأخذ بعين الاعتبار فطرة الإنسان معتمداً في ذلك على قول الرسول صلى الله عليه وسلم[1]: « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ** ».

فالمسئولية إذن حسب الغزالي مسئولية الأبوين أو المربي في تحديد مصير الطفل لجهة بناء شخصيته القادرة على القيام بأعباء الخلافة.

فالتربية عند الغزالي عملية رعاية وبناء لشخصية الطفل بحيث يصبح فرداً صالحاً في مجتمع صالح متوازن متطور قائم على أسس ثابتة تراعي طبيعة الإنسان القائمة على ضرورة التوازن بين متطلبات الجسد والروح إلى جانب الدنيا والآخرة.

ويحدد الغزالي مفهوم التربية بإيجاز ووضوح عندما يقول: (ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الذرع ليحسن نباته ويكمل ريعة).

فالتربية عملية إجتماعية، وهذا ما يجعلها تختلف بإختلاف المجتمعات تبعاً للحضارة والثقافة والقيم التي تسودها، ولقد صحبت التربية الإنسان منذ وجوده الأول على الأرض، إذاً فهي وثيقة الصلة بالمجتمع تعكس فلسفته وأهدافه وظروف حياته وألوان نشاطه وقيمه ومعتقداته.

وسيراً على خطى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ومن بعدهم التابعين والعلماء الصالحين أدرك الغزالي أهمية العلم والتعلم والتعليم، وبالتالي أهمية التربية وخطورة دورها في بناء الفرد والمجتمع انطلاقاً من فهمه العميق للإسلام على أساس أنه (رسالة تربية قبل أن يكون رسالة تشريع ورسالة خلق، بل أن يكون رسالة جهاد ورسالة سمو وقيم قبل أن يكون رسالة كثرة واتساع).

---

(١) أخرجه البخارى (٤٥٦/١، رقم ١٢٩٢)، ومسلم (٢٠٤٧/٤، رقم ٢٦٥٨)، وأبو داود (٢٢٩/٤، رقم ٤٧١٤).

obeikandl.com

ولقد جمع الغزالي ما بين طرق التربية والتعليم وطرق التزكية والتصفية فأبدع في ذلك مستفيداً مما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول وعلوم من سبقوه من علماء المسلمين وغير المسلمين بما يخدم رسالة التوحيد. وتجلي ذلك من خلال ما جاء في رسالة « **أيها الولد** » وكتاب «إحياء علوم الدين» وغيرها من الكتب التي لم تخرج عما ورد في الكتابين السابقين. كما ذلك ايماناً منه بأهمية التربية في عملية بناء الإنسان والمجتمع الإسلامي.

ومن المؤشرات الدالة على أهمية التربية في نظر الغزالي إيمانه العميق بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتأثير التربية عليها سلباً أو إيجابياً، والتربية في نظر الغزالي أيضاً وسيلة لإعادة الاعتدال في حالة انحرف الإنسان عن فطرته وهذا ما جاء به الإسلام.

وإلى جانب رد الاعتدال إلى الفطرة تبرز أهمية التربية في نظر الغزالي كما تشير أقواله السابقة إلى الدور الذي تلعبه التربية في رعاية وتكملة نمو الكفل حيث أن الطفل يولد ضعيفاً وغير مكتمل النمو مما يجعله بحاجة للاتكال على غيره، أي: أنه يفتقر إلى من يرعاه كي يصبح عضواً فاعلا في مجتمعه قادراً على نفع نفسه وغيره والقيام بما خلق لأجله.

ومن دلائل أهمية التربية أيضاً عند الغزالي كونها وسيلة لانتقال العلم من جيل إلى جيل؛ لأن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم، وفي هذا إظهار لقيمة العلماء والعلم فلولاهم لأصبح الناس مثل البهائم.

ومن أجل استمرار الحياة وإعمار الأرض والتغلب على ما قد يواجه الإنسان من تعقيدات وتحولات تبرز التربية كضرورة ملازمة للإنسان.

إذن كان ما سبق تأكيد على أهمية التربية كضرورة فردية واجتماعية من أجل الحفاظ على التراث الإسلامي ونشر رسالة الإسلام لتكون دستور الناس أجمعين حتى رث الله الأرض ومن عليها.

أهداف التربية عند الغزالي:

إن التربية عملية متعددة الجوانب، فهناك الأسرة والمدرسة والمجتمع وهناك المعلم والمتعلم. وهناك الطرائق والمواد التعليمية، علاوة على الأهداف التي تسعى التربية لتحقيقها من خلال رعاية الإستعدادات الفطرية وتنميتها لدى الطفل التي تكفل له النمو السليم.

وترتبط أهداف التربية بعوالم كثيرة منها حاجات الأطفال الذين يربون، وخصائص الحياة التي يعدون لها، ومنها نوع المجتمع ودرجة التقدم التي وصل إليها والظروف الخاصة به، ومنها آراء المفكرين الذين يهتمون بالشئون التربوية ورغبات السلطات والهيئات التي تشرف على المدارس.

لقد كانت أهداف التربية الإسلامية متميزة عن غيرها من الأهداف تبعاً لتميز نظرة الإسلام لله والإنسان والكون والمجتمع والحياة الآخرة.

ولقد أدرك المربون المسلمون أهمية التربية وأثرها في بناء شخصية الطفل مما جعلهم يهتمون بعملية تأديبه، وتهذيبه، تطلعاً لتحقيق غايتين:

أولاهما: الإعداد للحياة الآخرة وهي الأهم.

وثانيهما: بتمكين الفرد من معرفة طائفة من العلوم والمهارات التي تؤهله للنجاح في الحياة الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فالمتمعن في الآية الكريمة يدرك أن وسائل بناء الشخصية الإنسانية على أساس من النقاء والطهر واضحة جلية، فالتزكية تمام الأخلاق والتعليم للكتاب تمام معرفة الأوامر والنواحي والحقوق والواجبات كما أنه يفيد معنى زوال الجهل وتعليم الحكمة هو أعلى درجات التعليم لأنها تعني في عرف العلماء الإصابة في القول والعمل، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة يكون قد حصل الخير كله.

وفي إطار تحديد أهدافه التربوية يقول الغزالي: (ونحن نبتغي من العلم تبليغ النفس كمالها) وفي هذا تأكيد على أنه يسعى لبناء شخصية متكاملة تنمو في كافة الأبعاد

والجوانب الروحية والنفسية والعقلية والاجتماعية والجسمية بشكل مترابط ومنسق، شخصية تعرف أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها. كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه.

فالغزالي يسعى لتحقيق الشخصية المسلمة المتميزة بذاتها إلا أن هذا التميز لا يعني أنها ذات منعزلة بوجودها مكتفية بحدودها، مغلقة بأستارها مغلقة بأقفالها بل هي ذات إيجابية ومتفتحة على الحياة كلها، وذلك لأنه يرى أن العلم والعمل يجب أن يسيرا على ضوء تعاليم الشارع بعيداً عن شطحات المتصوفة ذلك لأن الصوفية في نظره هي المجاهدة.

وإن كان من أحد يسعى لإيجاد طبقة كاملة الرجولة سامية الأخلاق نبيلة الأهداف فإن الغزالي يعتبر رائداً في وضع الصورة الحقيقية لمثل هذا النوع من البشرية.

فللغزالي آراء محمودة في التربية وفي التعليم حيث يرى الغزالي أن الغرض من طلب العلوم هو في المقام الأول التقرب إلى الله تعالى، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة.

كما أن للغزالي آراء في ما يجب أن يكون عليه المعلم والصفات التي يتوجب أن يتحلى بها المتعلم سوف نقوم بإيضاحها إن شاء الله تعالى.

ومهمة التربية وواجبها ووظيفتها في نظر الغزالي: صيانة الطفل من قرناء السوء، وتشجيع الأطفال على الأخلاق الكريمة، واستخدام اللوم والعتاب والتوبيخ ولكن بحكمة، ومنع الطفل المتعلم من أن يفعل الشيء خفية، وتعليم الطالب على كيفية تعامله مع أقرانه من المتعلمين، والزهد والرفعة في الإعطاء لا الأخذ.

ويتوجب كما يرى الغزالي أن يكون المتعلم صبورا، وعليه أن يكون مطيعاً لوالديه ومعلمه.

التربية الخلقية:

تهدف التربية الخلقية عند الإمام الغزالي إلى تحقيق بعض الغايات والأهداف التي تؤدي إلى رفع المستوى الروحي والخلقي والفكري والاجتماعي والسياسي للفرد والمجتمع، ومن تلك الأهداف التي حرص الغزالي على تحقيقها:

١- الكمال الإنساني:

وذلك بارتقاء النفس الإنسانية من مجال الحس إلى مجال التفكير، والارتقاء بالإنسان من مستوى الخضوع للأهواء والشهوات إلى مقام العبودية لله، حتى تصل إلى حالة تطل بها على عالم الغيب، فتطّلع على الحقيقة، وتصل إلى أقصى مراتب الكمال الإنساني باقترابها من الخالق سبحانه وتعالى.

٢- تربية النفس على الفضيلة:

فقد ركز الإمام الغزالي على أساسيات الفضائل، واعتبرها أربعة هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

ويرى أن تحقيق الفضيلة إنما يكون من خلال تصفية القلب لذكر الله تعالى، والعمل على تزكية النفس وتهذيب الأخلاق.

ويؤكد الغزالي على أهمية الفضائل ودورها في ضبط قوى النفس الإنسانية، وتنمية الاستعدادات الفطرية الخيرة فيها.

٣- تهذيب قوى النفس الإنسانية:

وهو يرى أن ذلك لا يعني قمع نزعاتها وغرائزها واستئصالها تماما، فإن ذلك مخالف لفطرة الإنسان وطبيعته؛ لأن الشهوة إنما خلقت لفائدة، ولها وظيفة لا غنى للإنسان عنها، ولا بقاء له من دونها، فشهوة الطعام ضرورية لحياته ونموه، وشهوة الجنس تحفظ النسل وتساهم في بقاء النوع الإنساني، ولكنه يربط هذه الشهوات بالاعتدال والعفة والعقل.

٤- حسن توجيه طاقات الأمة:

فالغزالي يؤكد على أهمية حفظ طاقات النفس وتوجيهها للإفادة منها على النحو الأمثل، كما دعا إلى ضرورة تخليص الأمة من الشهوات المفسدة للروح الإسلامية، وأكد على الأثر التهذيبي للشريعة الإسلامية في كل من الفرد والمجتمع.

٥- تكوين الشخصية المتوازنة:

ويركز الغزالي في التربية الخلقية على المكونات الرئيسية للنفس الإنسانية وهي: العقل والروح والجسم، وينظر إليها باعتبارها كيانا واحدا متكاملا، ومن ثم جاء تأكيد الغزالي

obeikandl.com

على بعض الأساليب والطرائق التربوية التي تتناول تلك المكونات بشكل متكامل ومتوازن، كالمجاهدة والرياضة لتزكية القلب والروح، والتفكر لتربية العقل، وترقية النفس الإنسانية في مجالات الإدراك، واللعب لتربية الجسم وتنشيط العقل والحواس.

٦- إرضاء الله سبحانه وتعالى:

دعا الغزالي إلى توخي إرضاء الله تعالى، وحذر من مطامع الدنيا الفانية، وحث على إحياء الشريعة الإسلامية والتماس رضوان الله تعالى، ولذلك فهو يرى أن من أهداف التربية الخلقية إعداد الإنسان في هذه الحياة الفانية للدار الآخرة الباقية؛ لأن الغاية المثلى للإنسان في هذه الدنيا هي حسن العبودية لله وتمام الطاعة والخضوع له.

مهنة التعليم في نظر الغزالي:

يرى الغزالي أن مهنة التعليم أشرف مهنة وأفضل صناعة يستطيع الإنسان أن يتخذها حرفة له.

ويستدل على ذلك بالكثير من الأدلة النقلية ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم، فرأى مجلسين: أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه. وفي الثاني جماعة يعلمون الناس، فقال: « **أما هؤلاء فيسألون الله فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ. وأما هؤلاء يُعَلِّمُونَ النَّاسَ وَيَتَعَلَّمُونَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا** »[(١)]. ثم ذهب اليهم وجلس معهم.

دور المعلم وواجبه:

١- يجب على المعلم الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه.

٢- أن يقتدي بالمصطفى صلى الله عليه وسلم فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى، ونحن لا ننتظر من معلمي اليوم التعليم بلا أجر إنما يتوجب عليهم الإخلاص في تعليمهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/٨٣، رقم ٢٢٩)، والطيالسي (ص ٢٩٨، رقم ٢٢٥١)، والبزار (٦/٤٢٨، رقم ٢٤٥٨)، والحارث (١/١٨٥، رقم ٤٠).

٣- ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً.

٤- أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطرق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ.

٥- ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه. كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه مثلاً.

٦- أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه.

وقد ذكر الغزالي في «إحيائه» أن من وظائف المعلم: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره، أو يخبط عليه عقله اقتداء بسيد البشر صلى الله عليه وسلم، ولا يبث إليه الحقيقة إلا إذا علم أنه يستقل بفهمها، وقد قال علي رضي الله عنه وأشار إلي صدره: إن هنا لمعلومات جمه لو وجدت لها حملة! فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلي كل أحد، هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا لإنتفاع به فكيف فيما لا يفهمه؟ ولذلك قيل: كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار العاص على بعض السرايا الحربية، وعلى حين كلف حسان بن ثابت أن يدافع عنه إمام هجاء الشعراء من قريش بسلاح الشعر الذي هو أشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام، ولم يجب أبا ذر إلي طلبه حين سأله أن يوليه لما يعرف من صرامة وقد قال تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:٥] ومعنى ذلك أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منح المستحق.

ويقول الغزالي أيضاً: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي، ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه؛ إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق! بل لا ينبغي أن يخاص مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعلم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار، لما نطق به

القرآن ولا يحرك عليهم شبهة؛ فإنه ربما تعلق الشبهة في قلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك.

والمقصود: أن المعلم طبيب يداوي القلوب والعقول بما يناسبها وليس كل دواء يصلح لكل دواء.

٧- أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار.

صفات المتعلم:

١- الابتعاد عن التكبر:

لا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم، أو يستنكف عن الإستفادة إلا من المرموقين المشهورين، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يفر بها.

فالعلم لا يُنال إلا بالتواضع، وحسن الإصغاء، وإلقاء السمع، قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده، وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه.

فلكي ينتفع في نظرنا بالدراسة يجب أن يكون قابلا للعلم قادرًا على الفهم، مصغياً كل الاصغاء إلى أستاذه، ليستقبل كل ما ألقى إليه وما سمعه بصدر رحب، وسرور جم، وشكر لمعلمه.

٢- المودة والمحبة بين المتعلمين:

كما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا، فكذلك حق تلاميذ الرجل الواحد التحاب والتوادد، لا التحاسد والتباغض، قال تعالى في كتابه الحكيم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

والغزالي يدعو المتعلمين إلى المودة والمحبة والتعاون، لا المنافسة والحقد والكراهية، يدعو إلى الصداقة البريئة، والأخوة المخلصة، والتودد تقرباً إلى الله.

٣- الابتعاد في بداية دراسته عن الخلافات:

يجب على المتعلم أن يبتعد في أول دراسته عن الخلافات بين المذاهب في المسائل العلمية، ذلك أن الخوض في العلم يدهش عقله، ويحير ذهنه، ويجعل رأيه فاتراً، ويبعده عن الإدراك والاطلاع.

وعلينا أن نتفق مع الغزالي في هذا الرأي، فالتلميذ يجب أن يبدأ بالسهل وينتقل منه الى الصعب، ويترك الخلافات العلمية، والآراء المتشعبة حتى لا يقف طالب العلم في حيرة من أمره، ولا يصل اليأس الى قلبه، ووظيفة المعلم هنا هي أن يسهل الصعب ويوضح الخفي، ويرشد المتعلم الى الطريق السهل.

٤- النظر في مختلف العلوم:

«يجب ألا يدع الطالب فنا من العلوم المحمودة، ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر تبحر فيه».

obeikandl.com

ترجمة الشارح: الشيخ محمد الخادمي

(١١١٣ - ١١٧٦ هـ = ١٧٠١ - ١٧٦٣ م)

اسمه ونسبه:

هو محمد بن محمد بن مصطفى بن عثمان، أبو سعيد الخادمى، الحسيني، العلوي، الحنفي، فقيه أصولي، من علماء الحنفية، مشارك في بعض العلوم.

وجاء على طرة المخطوط:

(السيد محمد سعيد بن محمد بن مصطفى الحسيني العلوي، شارح رسالة أيها الولد للغزالي، وغيره، وشرح الطريقة المحمدية، وله حاشية على الدرر والغرر، وله عرائس المنطق، وشح البسملة، وله رسالة النقشبندية.

الحادمي: إلى خادم قوروسي بالقاف المعروفة مفتيًا، أبو سعيد النقشبندي محمد بن الشيخ الحسيني المفتي السيد مصطفى ابن السيد المفتي المدفون (المقتول) فيض الله أفندي في زاويته التي بناها بجنينة فناري حلبي بقرب أبي أيوب الأنصاري، وتوطن فيها إلى أن توفي الواقف، وصلى الشيخ عليه ثم رحل إلى وطنه الأول، أخذ العلم والطريقة من أبيه، ومن جلبي أفندي الأركلي.

توفي أبو سعيد في أواسط سنة -أرختها فارسية- ١١٧٦ هـ خاتمة صالحا روح الله روحه).

الجلبي: الفاضل المعروف باركلي، اسمه عبد الرحمن المفتي بنوشهر توفي سنة ١١٥٧، أخذ العلوم والطريقة عن المرعشي وهو عن عبد الغني ابن النابلسي المتوفي ١١٤٣ هـ.

حياته:

أصله من بخارى. ومولده ووفاته في قرية (خادم) من توابع قونية.

قرأ على أبيه وغيره. واشتهر بدرس ألقاه في أيا صوفية باستنبول، في تفسير الفاتحة.

مؤلفاته:

له تآليف، منها:

١- «مجمع الحقائق» في أصول الفقه.

٢- وشرحه «منافع الدقائق».

openkandil.com

٣- و«حاشية على درر الحكام في شرح غرر الأحكام لملا خسرو » في فروع فقه الحنفية.

٤- و«البريقة المحمودية في شرح الطريقة المحمدية والشريعة النبوية في السيرة الأحمدية » وهو شرح على الطريقة المحمدية للبيركلي، أربعة أجزاء، فرغ من تأليفها في ١٦ رمضان (١١٦٨ هـ).

٥- و«شرح الرسالة الولدية للغزالي » المسمى بـ«سراج الظلمات» وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

٦- و«الوصايا » في الأزهرية.

٧- و«حقيقة كلمة التوحيد عند الكلاميين والصوفية » في دار الكتب (٢١٦٠٦ب).

٨- ورسالة في «حكم قراءة آية الكرسي عقب الصلاة » ٢٥ ورقة في دار الكتب (٢١٦٠٦ ب).

٩- وأخرى في «تفسير: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦] » في دار الكتب (٢١٦٠٦ ب)

١٠- و«خزائن الجواهر ومخازن الزواهر ».

١١- ورسالة في تفسير البسملة: «إبداع حكمة الحكيم في بيان بسم الله الرحمن الرحيم».

وفاته:

توفي الإمام محمد الخادمي عام (١١٧٦ هـ)، وقد كتب نفس هذا التاريخ على طرة المخطوط.

مصادر الترجمة:

١- الأعلام للزركلي ٦٨/٧.

٢- سلك الدرر ١١٠/٤.

٣- معجم المطبوعات ٨٠٨، ٨٠٩.

٤- فهرس الأزهرية ٢/ ٧٢، ٦/ ٢١٦.

٥- فهرس دار الكتب المصرية ٦/ ١٦٥.

obeikandi.com

وصف النسخ الخطية

١- اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب القيم النادر «سراج الظلمات» على نسخة محفوظة في دار الكتب المصرية برقم (٤١٦٠) تصوف، وتقع في (٧٩) لوحة، وفي الورقة (٢٥) سطرًا، وقد كتبت بخط نسخ واضح.

وجاء في نهايتها: (بخط الشيخ محمد المالكي مذهبًا والشافعي لقبًا والجناحي بلدًا بقرب رشيد، المدرس بجامع الأزهر، المتوفي بمصر سنة ١٢٠٠).

٢- واعتمدنا النسخة الأزهرية لرسالة «أيها الولد» للإمام الغزالي أصلا، وهي تقع في (٢٣) لوحة، وفي الورقة (١١) سطرًا، وقد كتبت بخط نسخ جميل وواضح.

٣- ثم طابقناها على نسخة جامعة الملك سعود التي كتبت عام ١١٢٣ هـ، وهي تقع في (٤٥) لوحة، وفي الصفحة (١٣) سطرًا، ومقاس الورق ١٢.٥/١٩.٥ سم. وهي نسخة جيدة كتبت بخط حسن.

obeikandl.com

عملنا في الكتاب

سار عملنا في الكتاب وفق المنهج التالي:

١- نسخ نص رسالة «أيها الولد» نسخا علميًا دقيقًا من النسخة الأزهرية.

٢- مطابقة نص الرسالة على نسخة جامعة الملك سعود ومراجعتها.

٣- نسخ شرح «سراج الظلمات» نسخا علميًا دقيقًا من نسخة دار الكتب المصرية.

٤- ومطابقة النص جيدًا ومراجعته.

٥- وضع نص رسالة «أيها الولد» ومن تحته «سراج الظلمات» زيادة في الإيضاح.

٦- وضع عناوين للنصائح.

٧- تخريج الآيات القرآنية وفق مواضعها من المصحف الشريف.

٨- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة وفق مواضعها من كتب السنة النبوية المطهرة.

٩- التعليق على المواضع التي تحتاج زيادة إيضاح، أو بسط مسألة، أو بيان مشكل.

١٠- ترقيم النص حسب قواعد الترقيم الحديثة.

١١- صنع مقدمة حول علم التصوف، مع ترجمة وافية للإمام الغزالي، والخادمي.

١٢- عمل فهارس تفصيلية لأبواب الكتاب.

وأخيرًا فهذا هو جهد المقل، والمرجو ممن يطلع على كتابنا فيجد فيه عيبًا أن يبادرنا بالنصيحة، والتصويب، فكل معرض للخطأ، ولا كمال إلا لله سبحانه وتعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

المحقق

obeikandl.com

اللوحة الأولى من النسخة الأزهرية لرسالة «أيها الولد»

obeikandl.com

اللوحة الأخيرة من النسخة الأزهرية لرسالة «أيها الولد»

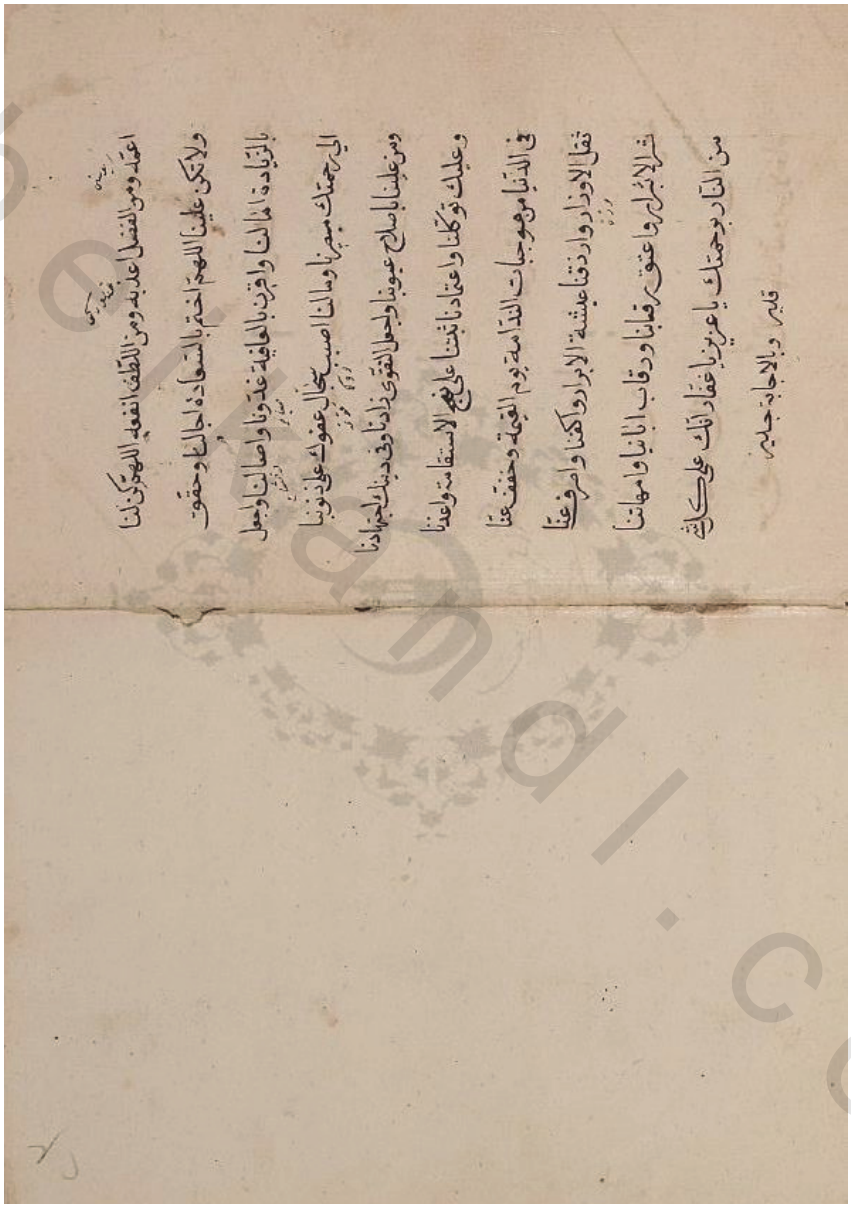

اللوحة الأولى من نسخة جامعة الملك سعود لرسالة «أيها الولد»

اللوحة الأخيرة من نسخة جامعة الملك سعود لرسالة «أيها الولد»

طرة المخطوط لكتاب «سراج الظلمات»

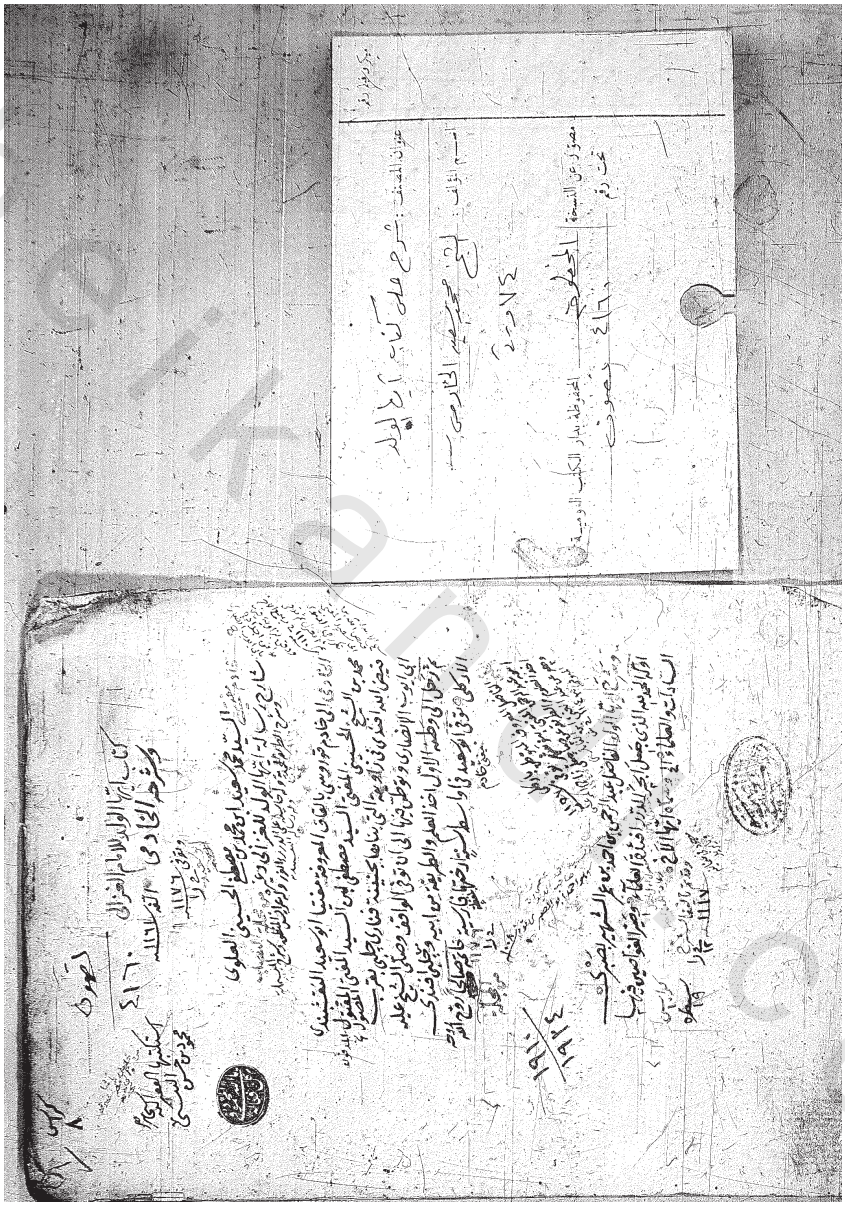

اللوحة الأولى لكتاب «سراج الظلمات»

obeikandl.com

اللوحة الثانية لكتاب «سراج الظلمات»

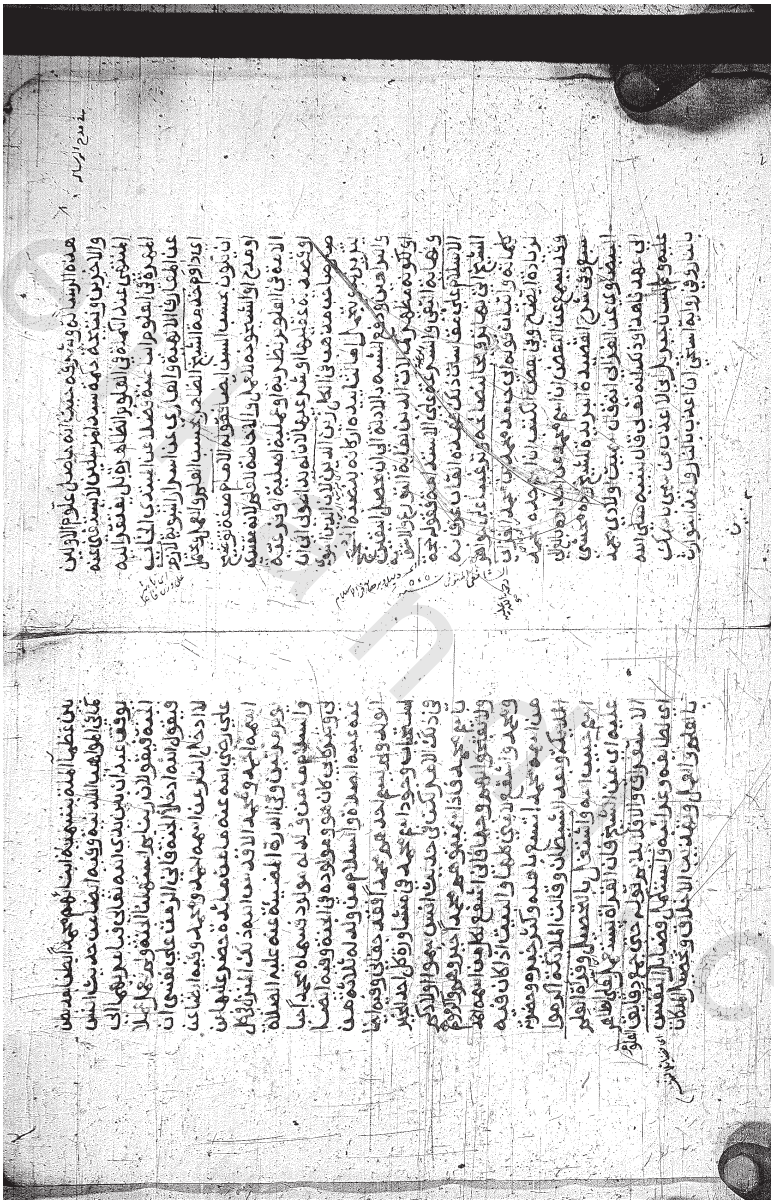

اللوحة الأخيرة لكتاب «سراج الظلمات»

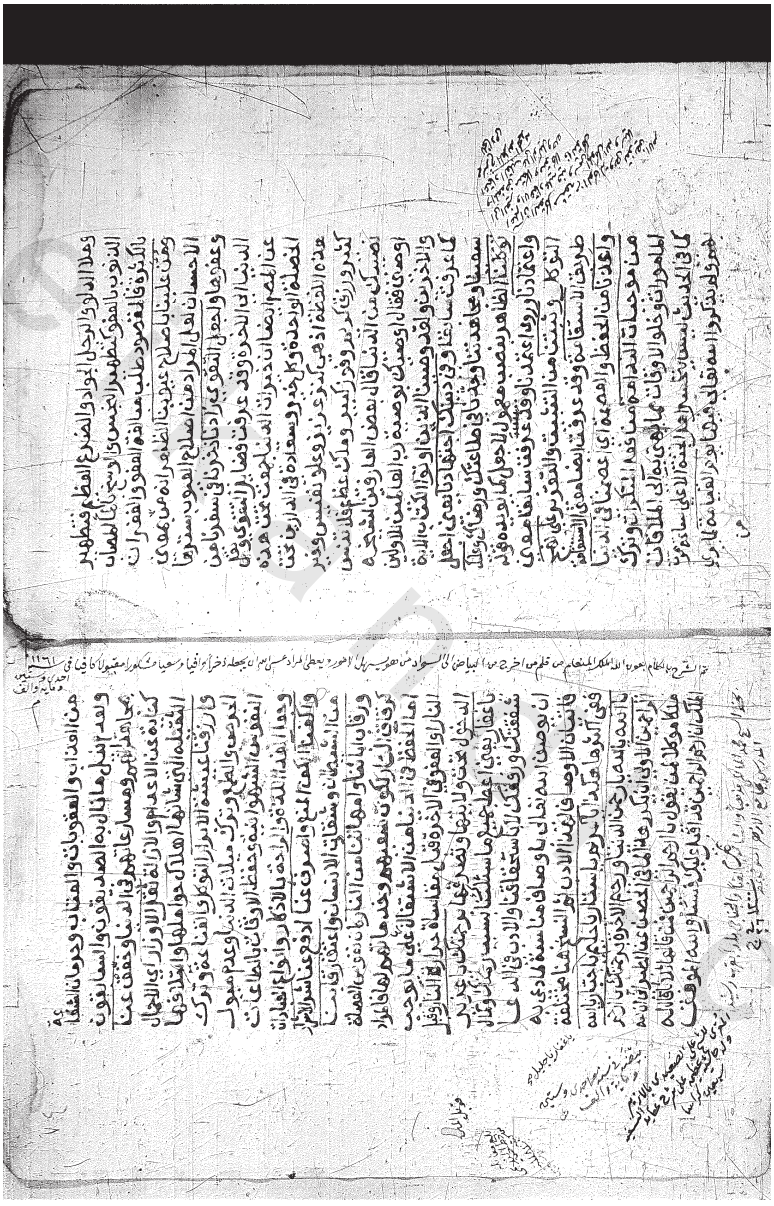

بسم الله الرحمن الرحيم

[شرح الديباجة]

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين.

(اعلم أن واحدًا من الطلبة المتقدمين، لازم خدمة الشيخ الإمام زين الدين حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه، واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه، حتى جمع من دقائق العلوم، واستكمل من فضائل النفس، ثم إنه تفكر يومًا في حال نفسه، وخطر على باله فقال: إني قرأت أنواعًا من العلوم، وصرفتُ ريعان عمري على تعلمها وجمعها، فالآن ينبغي أن أعلم أي نوعٍ ينفعني غدًا ويؤانسني في قبري؟ وأيها لا ينفعني حتى أتركه؟.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ» رواه مسلم وغيره[1].

فاستمرت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام محمد الغزالي -رحمه الله تعالى- استفتاه، وسأل عنه مسائل، والتمس منه نصيحة ودعاء.

وقال: وإن كانت مصنفات الشيخ كـ«الإحياء» وغيره يشتمل على جواب مسائلي، لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي، وأعمل بما فيها مدة عمري إن شاء الله تعالى.

فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه في جوابه، والله أعلم).

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٨٨، رقم ٢٧٢٢)، والنسائى (٨/٢٦٠، رقم ٥٤٥٨)، وأحمد (٤/٣٧١، رقم ١٩٣٢٧)، وعبد بن حميد (ص ١١٤، رقم ٢٦٧)، والطبرانى (٥/٢٠١، رقم ٥٠٨٦).

(**الحمد لله رب العالمين**): اقتباس من أول الفاتحة فلا أفضل منه لكونه تعليم الله تعالى ولهذا اختاره.

و(**العاقبة**) أي: الحميدة، ولهذا يفسر بالجنة والسعادة السرمدية فحاصله الفوز بالسعادة الأبدية في العقبى مختص (**للمتقين**) فغير المتقين ليس لهم شئ من السعادة، لكن للتقوي بداية وهو الإسلام، ونهاية وهو حفظ القلب عما سوى الله تعالى، وحفظ الجوارح عما لا يليق بالله تعالى، مراعيا لعزائم جميع حدود الله تعالى، فبينهما مراتب، وللسعادة أيضا مراتب، فمن يشتهى بالسعادة كالحشر والرفاقة مع المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين ليس حساب ولا عذاب، يسعى ويجد في تحصيل دقائق التقوى واكتساب أسرار حقائقها إلى أن يتحصل المرتبة الأعلى، ومن يرضى بمطلق الدخول ولو بعد تعذيب وعقوبات نارية وعتابات إلهية وهو في خطر زوال الإيمان يكتفي بالأدنى من التقوى وهو الإيمان المجرد، وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم: «**ادخلوا الجنة واقتسموها على قدر أعمالكم**».

وهذا مفاد من قول أهل الأصول: الحكم بالمشتق يفيد عليه مأخذ الاشتقاق، إذ (**المتقين**) مشتق ومأخذه الاتقاء فهو علة للسعادة، ثم في هذه الصيغة براعة الاستهلال إذ هو يشير إلى معظم مقاصد هذه النصائح، أي: الرسالة، وهو التقوى، وفي ضمنه إشارة إلى رتبة شرف الرسالة إذ بشرف المسائل تتشرف الرسالة، وإلى غايته التي هي أشرف الغايات، أي: الفوز بالسعادة في الدارين، ويستلزم ذلك الإشارة إلى سبب التصنيف فينبغي لكل عاقل أديب أن يجتهد في تحصيل جواهرها وتكميل فرائدها.

ثم أنه عطف هذه الجملة على جملة (**الحمد لله**) مما يخفي صحته، فلعله إشارة إلى المحمود عليه على معنى (**الحمد لله رب العالمين**) لجعله العاقبة، أي: الجنة للمتقين، فمن باب عطف العلة على المعلول.

و(**الصلاة والسلام**): وهو الأولى خلافا لما في بعض النسخ من الاكتفاء بالصلاة؛ لأن ذلك الاكتفاء حرام عند البعض ومكروه عند النووي، وهو الظاهر من ظاهر القرآن، يعني:

Obeikandl.com

صلوا عليه وسلموا تسليما، وإن كان المختار ترك الأولى على ما في جامع الرموز مع رد النووي، ولأن الاحتياط مع الاتفاق.

(**على نبيه محمد**): هذا العطف البيان ليس للإيضاح بل للمدح؛ إذ بعضه قد يكون للمدح كما في «الكشاف»، ووجه المدح بملاحظة المعنى الوضعى الأصلي عند قصد المعنى العلمي، وهو أمر يعتبره العرب.

(**وآله أجمعين**): لعل وجه التأكيد إما لشمول الآل إلى كل تقي نقي إلى يوم القيامة على ما قيل عند استعماله منفردًا، وإما لشمول جميع الأصحاب ردًا لنحو أهل الاعتزال والرفض في تخصيصهم البعض.

(**اعلم**): أيها الطالب كائنًا من كان.

(**أن واحدا من الطلبة المتقدمين**): الظاهر أن هذا الكلام إلى آخره من ذلك الطالب إلى الذين تقدموا؛ هضمًا لنفسه بطريق الالتفات أو من الغير، ويحتمل أن يكون من حضرة الشيخ، فعلي هذا احتمالات قرائن الحمد.

ثم المقصود من تمهيد هذه القصة تحريض المبتدئين، وتنبيه المنتهين قدر هذه الرسالة وشرفه حيث أنه حاصل علوم الأولين والآخرين، ونتيجة حكمة سيد الأنبياء والمرسلين، لا يستغني عنه المنتهي عند الكملة في العلوم الظاهرة، بل يفتقر إليه المهرة في العلوم الباطنة فضلا عن المبتدئ الخالي عن المعارف الإلهية، والعاري عن الأسرار النبوية.

(**لازم**)، أي: داوم.

(**خدمة الشيخ**) الظاهر بحسب العلم والعمل، ويحتمل أن يكون بحسب السن أيضًا، فقوله: (**الإمام**) صفة توضيح أو مدح أو الشيخوخة للعمل والإمامة في العلم، لأنه مقتدي الأمة في العلوم نظرية أو عملية أصليه أو فرعية أو قصدية عقليها وشرعيها لأنه له يد طولى إلى أن صار صاحب مذهب في الكل.

(**زين الدين**) لأن الدين النبوي يتزين به ويتجمل إما لتأييده أركانه بنصب الحجج والبراهين ودفع الشبه بالأدلة إلى أن يحصل اليقين، أو لكونه مظهر كمالات الدين بغاية التورع والاستقامة ونهاية التقى والرغبة على الاستدامة.

obeikandi.com

فقوله: (**حجة الإسلام**) على مقاسات ذلك، فهذه ألقاب عرَّف به الشيخ أتي بها ترويجًا لنصائحه وترغيبًا على جواهر كلماته، وإتيان قوله (أبي حامد محمد بن محمد الغزالي) لزيادة إيضاح، وفي بعض الكتب أن اسم جده أيضًا محمد وقد يسمع عن البعض أن اسم محمد من أجداده بالغ إلى سبع.

وفي شرح «القصيدة البردة» للشيخ زاده محشي البيضاوي عن الغزالي أنه قال: سميت أولادي محمدا إلى عهدنا هذا، وذلك أنه تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل: «**إني لا أعذب من سمي باسمك بالنار**» [١] وفي رواية: «**استحي أن أعذب بالنار**». ولهذا يتوارث بين عظماء الملة تسمية أبنائهم محمدا بطنًا عن بطن كما في «المواهب اللدنية».

وفيه أيضا من حديث أنس رضي الله عنه: «**يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيأمر بهما إلى الجنة فيقولان: ربنا بما استأهلنا الجنة، ولم نعمل عملا فيقول الله: ادخلا الجنة فإني ألزمت على نفسي ألا أدخل النار من اسمه أحمد ومحمد**» [٢].

وفيه أيضا عن على رضى الله عنه: «ما من مائدة حضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين».

وفي «الدرة المضيئة» عنه عليه السلام: « **من ولد له مولود فسماه محمدا حبًا لي وتبركًا بي كان هو ومولوده في الجنة**» [٣].

وفيه أيضا عنه عليه السلام: «**من ولد له ثلاثة من الولد لم يسم أحدهم محمدا فقد جفاني**»[٤].

---

(١) رواه الديلمى من طريق أبى نعيم. انظر: تذكرة الموضوعات ٨٦/١.

(٢) رواه الديلمي (٤٨٥/٥، رقم ٨٨٣٧).

(٣) أخرجه الرافعى (٣٤٣/٢). وفي فضائل التسمية بأحمد ومحمد ٤٠/١.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٥/٢٢، رقم ٢٢٧)، ومسند الحارث (٧٩٣/٢، رقم ٨٠٢).

وفيه أيضًا استحباب وجود اسمه محمد في مشاورة كل أحد للخير في ذلك الأمر، لكن في حديث أنس: «**سموا أولادكم باسم محمد؛ فإذا سميتموهم محمدا فبروهم وأكرموهم ولا تقبحوا لهم وجهًا؛ فإني أشفع لكل من اسمه أحمد ومحمد، وأشفع لأمتي كلها، والبيت إذا كان فيه من اسمه محمد اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وبعد الشيطان، وقالت الملائكة: اكرموا اسم حبيب الله تعالى**».

(**واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه**) أي: من الشيخ، فإن القراءة تستعمل -أي: العلم- بعلى الظاهر الاستغراق وإلا فلا يلائم قوله: (**حتى جمع دقائق العلوم**) أي: لطائفه وغرائبه. (**واستكمل فضائل النفس**) بالعلم والعمل وتهذيب الأخلاق وتحصيل الملكات الحميدة.

(**ثم أنه – أي: الواحد الملازم – تفكر – أي: تأمل – يومًا من الأيام في حال نفسه**) لأن فكر ساعة خير من عبادة سنة.

(**وخطر على باله**) هذا ثمرة فكره ونتيجته، والبال هو القلب.

(**وقال**) أي: في قلبه إذ القول كالكلام، كما يكون باللسان يكون بالفؤاد أيضًا، بل القول الحقيقي ما في الفؤاد.

(**إني قرأت أنواعًا**) كثيرة (**من العلوم وصرفت**) بذلت أو تلفت (**ريعان عمري**) حاصله أو قوته (**على تعلمها**) أي: تعلم أنواع العلوم (**وجمعها**) فهمًا وإدراكًا وضبطًا (**والآن ينبغي**) أي: يجب (**عليَّ أن أعلم أي نوعها ينفعني غدا**) يوم القيامة (**ويؤنسني**) أي: يصاحب معي ويدفع وحشتي (**في قبري، وأيها لا ينفعني حتى أتركه**) لأن من العلوم ما لا ينفع صاحبه بل قد يضره.

(كما قال صلى الله عليه وسلم: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ** »): ويدخل فيه العلوم المحرمة والممنوعة، قال في «الأشباه والنظائر»: العلم الفلسفة والشعبذة والتنجيم والرمل وعلوم الطبايعين حرام، وأشعار المولدين من الغزل والبطالة مكروه، لعل الحديث أعم بسائر العلوم الزاجرة النافعة إن لم يكن بأغراض حميدة و لم يقارن العمل بموجبها.

(**فاستمرت**) أي: لذلك الطالب (**هذه الفكرة حتى كتب**) إما بمكتوب أن غيابًا عنه أو بطريق عرض حال تأدبًا له (**إلى حضرة الشيخ**) لعل الحضرة مقحم أتى في مثله للتعظيم؛ إذ معناه الأصلي هو الموجود (**حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى**) ولو اكتفى بما قبله لكان أخصر لكنه قصد زيادة التعظيم وأشار إلى علة الحكم -أي: الكتابة- تأمل.

(**استفتاء**) من طلب الفتوى الظاهر هنا إذ الفتوى الحقيقي إنما هو في الاجتهاديات وفكرته المذكورة ليس منها (**وسأل عن**) أي: الشيخ (**مسائل**) المتبادر من إطلاق المسائل ما يكون في الفرعيات الفقهية فمجاز أيضًا إلا أن يُقال أن جواب جنس ذلك ليس في هذه الرسالة وهو بعيد (**والتمس**) أي: طلب منه (**نصيحة ودعاء ليقرأه في أوقاته**) أي: أوقات الدعاء أو أوقات الطالب.

(**قال – أي: ذلك الطالب–: وإن كان مصنفات الشيخ الإمام كالإحياء وغيره**) الظاهر من الغير ما يشتمل جنس مسائله كالتصوف والتفسير والحديث والفقه لا المطلق كالأصول والعربية بل العقلية لغرض محمود كتهافت الحكماء.

ثم اعلم أنه لا بأس علينا أن نذكر فائدة عجيبة وقصة لطيفة في حق «الإحياء» يظهر بها شرف الشيخ وشأنه العالي، ويكون مدار الرواج الرسالة وهو ما نقل عن «تشبيه الأركان» للسيوطي عن تقي الدين عن الشيخ عبد الوهاب اليافعي عن والده عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن بن الحرزهم: أنه حين نظر «الإحياء» وجد فيه بدعة مخالفة للسنة فجمع كتاب «الإحياء» في البلاد بالتماس السلطان ومعاونته، وأراد إحراقه بمشاورة الفقهاء، فرأي أبو الحسن في المنام صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والغزالي قائم وبيده كتاب «الإحياء» وقال: انظر يا رسول الله؛ فإن كان فيه بدعة مخالفة لسنتك كما زعم هذا تبت إلى الله، وإن كان مستحسنًا حصل لي من بركتك، فانصفني من خصمي، فأخذ ونظر ورقة ورقة، ثم قال: والله إن هذا لشيء حسن، ثم ناوله أبو بكر ونظر كذلك، وقال كذلك، ثم عمر كذلك، فأمر رسول الله بتجريد أبي الحسن من ثيابه وضربه حد المفتري، فجردوه وضربوه، فاستيقظ من منامه وأعلم أصحابه بما

جري له، ولم يزل ألم الضرب مقدار شهر، ثم نظر «الإحياء» فوجده موافقًا للسنة خلاف نظره الأول، ولقد مات يوم مات وأثر السياط ظاهر على جسمه. وأورد هذه القصة أيضا ابن السبكي في «طبقاته».

(**تشتمل على جواب مسائلي**) من أن أي علم ينفعني أو لا ينفعني على وجه النشر والتفصيل (**لكن مقصودي**) أن يكون لبًا ومستصفى سهل الأخذ والمطالعة.

(أن أكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي، وأعمل بما فيها مدة عمري إن شاء الله تعالى): فتكون زبدة لطائف الحكمة النبوية وخلاصة دقائق الشريعة الإلهية كافلة لجميع أسرار السنة المحمدية حاوية لمزايا السيرة الأحمدية لا يستغني عنها كل رفيع ويضطر إليها كل وضيع.

(**فكتب الشيخ هذه الرسالة في جوابه**) على وفق سؤاله.

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أيها الولد المحب العزيز – أطال الله تعالى بقاءك بطاعته، وسلك بك سبيل أحبّائه – أن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة عليه الصلاة والسلام، فإن كان قد بلغك منه نصيحة، فأي حاجة لك في نصيحتي؟ وإن لم يبلغك فَقُلْ ليّ: ماذا حصّلت في هذه السنين الماضية؟!!

(**اعلم ايها الولد**) التعبير بالولد لكمال الشفقة، وفيه إشارة إلى أن هذه النصائح كأنها صادرة عن الوالد إلى المولود، فحري قبولها ولازم استدامتها.

(**والمحب العزيز**) عطف على الولد، وعزة المحبة ما يكون حبا لله تعالى إذ المتحابون في الله بعضهم على بعض أحب من الوالد والمولود والناس جميعا؛ لأنهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وفي عين العلم أن المتحابين في الله على منابر من نور حول العرش، ولباسهم نور، ووجوههم نور، يغبطهم النبيون والشهداء، ففيه إشارة إلى أن قبول هذه النصائح مما يزيد حبهم ويؤكد صفاءهم.

(**أطال الله بقاءك**) دعاء بأشرف ما يتصور وجوده من العبد؛ إذ لا شئ أعز من العمر، فإن الملوك لو صرفوا خزائنهم وغاية جهدهم بجميع أعوانهم وعساكرهم إلى زيادة دقيقته سبيلا، لكن هنا إشكال كلامي بلزوم قيام المعنى بالمعنى؛ إذ البقاء معنى، والطول معنى آخر، فتأمله.

فإن قيل: كيف يتصور الدعاء بزيادة العمر وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها؟

قلنا: نعم، لكن في الحديث الصحيح لا يزيد العمر إلا البر، وفي آخر البر وحسن الجوار عمارة الديار وزيادة الأعمار، والصدقة ترد البلاء وتزيد العمر، لعل التأويل الصحيح في الآية إن صح الأجل المعلق كما نقل علي القاري في «شرح الحصن» عن المصرف: الأمر ظاهر وإلا إذا اعتبر النظر إلى المبرم، فالمراد من البقاء والزيادة شرف الثواب

أو الاسم الحسن والأثر، وقيل: إن عدم التأخر في الآية عند مجيء الأجل، وأما قبله فيجوز التأخر، وقيل غير ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ...﴾ [الرعد:٣٩] إلى آخره، نعم إن ذلك بالنظر إلى علمه تعالى مما يمتنع تبدله فلعل حنس ذلك من المتشابه.

بقي هنا إشكال آخر: كلامي من أن العمر جزء من زمان ليس بموجود عند أهل السنة، فكيف يتصور الزيادة في المعدوم؟ فتأمله أيضا ملابسا.

(**بطاعته**) إذ زيادة العمر إنما يجوز طلبه لأجل الطاعة، وممكن أن تكون الباء سببية إذ الطاعة سبب لزيادة العمر كما عرفت في الحديث، وفيه تحريض على الطاعة لأنها باعثة على زيادة العمر.

(**وسلك بك**) الظاهر أن سلك قد يتعدى بالحرف أيضا، وإلا ففي التنزيل: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢].

(**سبيل أحبائه**) وسبيلهم هو الصراط المستقيم الذي هو سبيل المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وسلوك هذا السبيل يوجب الرفاقة معهم على ما قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:٦٩] فهذا الدعاء دعاء بالأشرف عن الجميع، وفيه إشارة إلى أن هذا السبيل إنما يتحصل بهذه النصائح، ففي الحقيقة دعاء بقبول النصائح التي سئل عنها.

(**أن منشور**) الألطف –بالثاء– من نثر اللآلئ (**النصيحة**) أي: النصائح المنشورة إلى الأقطار والأقاليم من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها (**يكتب**) ويؤخذ (**من معدن الرسالة صلى الله عليه وسلم**) إضافة المعدن من قبيل لجين الماء، إذ الرسالة كالمعدن، فكما يخرج من المعدن ذهب وفضة هما رأس كل بضاعة وتجارة، ويتوصل بهما إلى تملك كل شيء فحكم النبي صلى الله عليه وسلم ونصائحه كذلك بل أغلى وأجل.

(**إن كان قد بلغك منه نصيحة**) فلعل المراد هو جنس النصيحة، ويحتمل الوحدة بمعنى أن واحدها كافية فضلا عن كثرتها.

openkanar.com

(**فأي حاجة لك في نصيحتي**) فإن نصيحة الأمة لا تكون مثل نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم، ونصيحتي مأخوذة من نصيحته فكافية ومغنية.

(**وإن لم تبلغك فقل لي: ماذا حصلت**) من النصائح النبوية (**في هذه السنين الماضية**) من عمرك، فأخبرني مما حصلته فما أخبره وحصله هو الرسالة، لكن يحتمل أن السائل الطالب لم يصل إليه من النصائح النبوية ما يكفيه أو ما يطلبه والا فيقتضي ألا يُجاب إليه بإعطاء الرسالة.

obeikandl.com

النصيحة الأولى

نصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته

• أيها الولد..!!

من جملة ما نصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته قوله: « من علامات إعراض الله تعالى عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه، وإن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول عليه حسرته إلى يوم القيامة، ومن جاوز الأربعين، ولم يغلب عليه خيرهُ شره فليتجهز الى النار».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ » رواه أحمد وغيره[1].

وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

(أيها الولد: من جملة ما نصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم) هذا بيان وتعداد للنصائح النبوية التي حصله، فكأنه جواب عن سؤال التحصيل السابق على أمته قوله عليه السلام: **(علامة إعراض الله تعالى عن العبد)** لعل المراد من الإعراض عدم الرحمة وعدم استجابة الدعوة، ولا ينظر أليه نظر الكرم والإحسان بل يغضب عليه ويهينه ولا يهديه سبيل أحبائه.

(اشتغاله): الظاهر بمعنى الدوام الأكثري، فلا يضر الواحد أو الاثنين لا الدوام الكلي.

(بما لا يعنيه) الظاهر من عنى يعني إذا قصد، فالمعنى ما لا يتعلق عليه غرض ديني أو دنيوي فحاصله ما لا ينفع ولا يضر، فهذا قريب إلى ما يُقال من أن الإصرار على المباح صغيرة في حال الاشتغال بما يكون ممنوعًا شرعًا معلوم بمقايسة ذلك، بل بطريق الأولوية،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠١/١، رقم ١٧٣٧)، وأخرجه أيضا الترمذى (٥٥٨/٤ رقم ٢٣١٧) وقال: غريب. وابن ماجه (١٣١٥/٢، رقم ٣٩٧٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٥٥/٤، رقم ٤٩٨٧). والطبرانى (١٢٨/٣، رقم ٢٨٨٦).

وفيه إشارة إلى أن من ترك ما لا يعنيه وعمّر أوقاته بوظائف العبادات وأنواع الطاعات، فيوجه إليه الرب بقبول الحسنات وعفو السيئات وإجابة الدعوات بأنواع الكرامات.

(**وإن امرأ ذهبت ساعة من عمره**) الظاهر أن التنوين للتقليل أو الوحدة.

(**في غير ما خلق له من العبادة**) تلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

(**جدير**) أي: حري ولائق، وفي بعض النسخ: (لجدير) باللام، وأيضا لو ذهبت بلفظ لو فله وجه.

(**أن يطول عليه حسرته**) أي: ندامته أو خسرانه، إما لما يرى من آثار العقوبات، أو لما فوت من فرصة الدرجات في الجنات العاليات، وفي الحديث الصحيح: « **لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ ولم يَذْكُرُوا الله تعالى فِيهَا** »[1]. فالعاقل لا يضيع ذرة من أوقاته بتحصيل هواء شهوته.

كتب حكيم إلى أخ له: يا أخي؛ إياك والإخوان الذين يكرمونك بالزيارة؛ ليضيعوا لك يومك، فإنك إنما تنال الدنيا والآخرة بيومك، فإذا ذهب يومك فقد خسرت الدنيا والآخرة، وقال علي كرم الله وجهه: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن

---

(١) أخرجه الطبراني (٢٠/٩٣، رقم ١٨٢). قال الهيثمي (١٠/٧٤): رجاله ثقات، وفي شيخ الطبراني محمد بن إبراهيم الصوري خلاف. والبيهقي في شعب الإيمان (١/٣٩٢، رقم ٥١٣). وأخرجه أيضًا: الديلمي (٣/٤٠٨، رقم ٥٢٤٤).

(لَيْسَ يتحسر أهل الْجنَّة) على شئ مِمَّا فاتهم فِي الدُّنْيَا (الا على سَاعَة مرت بهم لم يذكرُوا الله عزوجل فِيهَا) لأنهم لما عرضت عَلَيْهِم الدُّنْيَا وَمَا خرج لَهُم من ذكر الله ثمَّ نظرُوا الى السَّاعَة الَّتِي حرمُوهُ فِيهَا اهتهم تِلْكَ الْحَسْرَة عَن كل حسرة لَكِن هَذَا فِي الْموقف لا فِي الْجنَّة، قَالَ الْحَكِيم: فَكل حَرَكَة ظَهرت مِنْك بِغَيْر ذكر الله فَهِيَ وبال عَلَيْك، وأدوم النَّاس على الذّكر أوفرهم حظا وأعظمهم سُرُورًا فِي الآخِرَة فَمن حرك جوارحه فِي عمل وَقلبه غافل عَن الله فقد ضيع ذَلِك الْوَقْت وَعرض نَفسه لسخط الله لانه فِي ذكرك وَأَنت عَنهُ فِي غَفلَة فَتكون آكلا رزقه وآبقا عَن خدمته فَاجْتمع عَلَيْهِ أَمْرَانِ فَوت ثَوَاب الْخدمَة وعار الاباق فينادي عَلَيْهِ فِي الْموقف ابق العَبْد من ربه فيتقطع قلبه حسرات. [انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/٣٣١]

لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعته وبكى على خطيئته) فكأن نفسه في شغل والناس منه في راحة، كما في المحاضرات وفي بعض الكتب: كل نَفَس من أنفاس الإنسان جوهر لا قيمة له، وإذا فات لا عودة ولا عوض له، وهذا رأس ماله يكتسب السعادة الأبدية، فإذا صرفها ثمنًا للشقاوة فهو الغبن الفاحش والخسران العظيم، رزقكم الله وإيانا بصيرة.

(ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار) أي: لم تكن حسناته أكثر من سيئاته، وذلك بالاجتناب من الكبائر وترك الإصرار على الصغائر؛ لأن الصغيرة تكون كبيرة بالإصرار على ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **لا صَغِيرةَ مَعَ الإصْرَارِ، وَلا كَبِيرَةَ مَعَ الاسْتِغْفَارِ**»[(١)].

وقد جاء في الأثر[(٢)]: (من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شرًا من أمسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له).

(وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم) أي: لمن علم دقائق هذا الحديث وحقائقها إذ كما أشير أنه متكفل لجميع أنواع أحكام الشرع فعلا وتركا، أو لمن يعلم تفاصيل أحكام الشرع أصولا وفضائل رخصًا وعزائم.

---

(١) أخرجه القضاعى (٤٤/٢، رقم ٨٥٣) عن ابن عباس، والديلمى (١٩٩/٥، رقم ٧٩٩٤).

قال العجلوني في كشف الخفاء عند حديث رقم (٣٠٧١): رواه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس رفعه وكذا العسكري عنه في الأمثال بسند ضعيف لا سيما ورواه ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس من قوله والبيهقي عن ابن عباس موقوفا وله شاهد عند البغوي ومن جهة الديلمي عن أنس مرفوعا... انتهى.

ومعنى الحديث أن الكبيرة مع الاستغفار تتضاءل وتتلاشى وتضمحل؛ لأن الإنسان عندما يرتكب كبيرة ويستغفر الله ويندم عليها ويخاف الله عز وجل، فإن الذنب يتلاشى ويضمحل. قوله: (ولا صغيرة مع الإصرار)، يعني: الصغيرة مع الإصرار والمداومة عليها وقلة الحياء والخوف من الله عز وجل تتضخم وتكبر وتعظم؛ لما صحبها من قلة الحياء وقلة المبالاة، وكون الإنسان يستمر على تلك الذنوب التي هي صغائر قد يلحقها بالكبائر من ناحية قلة الحياء وقلة المبالاة بها.

(٢) رواه الديلمي عن علي بن أبي طالب (٦١١/٣، رقم ٥٩١٠).

obeikandl.com

النصيحة الثانية

في سبب تقديم النصيحة

• أيها الولد..!!

النصيحة سهل، والمشكل قبولها؛ لأنها في مذاق متبعي الهوى مُـرّة، إذ المعاصي محبوبة في قلوبهم على الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي[١]، ومشتغلا بفضائل النفس ومناقب الدنيا؛ فإنه يحسب أن العلم المجرد له وسيلة، وستكون نجاته وخلاصه فيه، وأنه مستغن عن العمل، وهذا من اعتقاد الفلاسفة – أي: العلم بلا عمل –.

سبحان الله العظيم!! إنه لا يعلم هذا القدر أنه حين حصّل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه»[٢].

ورُوي: أن الجنيد[٣] – قدس الله روحه العزيز – رُئِيَ في المنام بعد وفاته، فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: طَاحَتْ الْعِبَارَاتُ، وَفَنِيَتْ الإِشَارَاتُ، ومَا نَفَعَنَا إلا ركيعات رَكَعْنَاها فِي جَوْفِ اللَّيْلِ.

---

(١) العلم الرسمي تعبير صوفي.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ١٨٢-١٨٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٤-٢٨٥)، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١\٣: رواه الطبراني في "الصغير"، والبيهقي في "شعب الإيمان" من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف. وأخرجه أيضا الآجري في أخلاق العلماء (١/ ٧١-٧٢، ١٢٨-١٢٩)، وابن عساكر في ذم من لا يعمل بعلمه (١/ ٣٣-٣٦، ٤-٥-٦)، وأخرجه أيضا في تاريخ دمشق، كما في كنز العمال (٢٩٠٩٩)، وابن عدي في الكامل (٥/ ١٨٤٣)، وفي سنده: عثمان البري: قال الدارقطني والنسائي: متروك. واتهمه ابن معين والجوزقاني بالوضع والكذب. انظر الميزان (٢/ ٥٦-٥٧).

(٣) هو: الجنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم النهاوندى الأصل البغدادى القواريرى الخزاز سيد الطائفة ومقدم الجماعة وإمام أهل الخرقة وشيخ طريقة التصوف وعلم الأولياء فى زمانه وبهلوان

(**أيها الولد**) النصيحة السابقة (**سهل**) كأنه جواب عن استصعاب النصيحة السابقة حيث أشير إلى عدم فوت ساعة واحدة بغير طاعة الله تعالى مع ترك جميع مقتضيات النفس، بل يستوعب أوقاته بأفضل العبادات وأكرم القربات، فحاصل الجواب ما عرفته فاللام في النصيحة للعهد، ويمكن أن تكون للجنس، يعني: أيها الولد المستنصح مني أنه قد أشكل عندك النصيحة، لكن النصيحة ليست بمشكلة بل (**والمشكل قبولها لأنها**) أي: النصيحة (**في مذاق**) الظاهر مصدر ميمي بمعنى: الذوق (**متبع الهوى مر**) إذ هي حق، والحق مر، وما هو مر فصعب القبول.

(**إذ المناهي**) الظاهر التعميم إلى كل مفضول إلا ترك ما لا بأس به، فتأمل.

(محبوبة في قلوبهم) أي: قلوب متبع الهوى، فالإضافة للاستغراق، فإن النفس لو أرسلت على حالها ورضي عنها فتجر صاحبها إلى كل معصية وغفلة وشهوة؛ لأن الرضاء عن النفس يوجب تغطية عيوبها ويصير قبيحها حسنا، قال في «عوارف المعارف»[1]:

=

العارفين. له رسائل منها ما كتبه إلى بعض إخوانه، ومنها ما هو في التوحيد والالوهية، والغناء، ومسائل أخرى. وله دواء الارواح رسالة صغيرة. توفي رحمه الله سنة: ٢٩٧ هـ).

انظر ترجمته في: الأنساب: ١٠ / ٣٧) وسير أعلام النبلاء: ٢٧٢/٢٠) والوافي بالوفيات: ٢٠٣/١١، ٢٠٤)، وطبقات السبكي: ٧ / ٥٤ – ٥٦)، وطبقات الأسنوي: ١ / ٣٦٥)

(١) حديث أن أعرابيا –أبا محذورة- أتى النبي وأنشد بين يديه:

لسعت حية الهوى كبدي ... فلا طبيب لها ولا راقي

إلا الحبيب الذي شغفت به ... فعنده رقيتي وترياقي

فتواجد رسول الله حتى سقطت البردة عن كتفيه فتقاسمها فقراء الصفة وجعلوها رقعا في ثيابهم، وقال: ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر المحبوب. أخرجه الديلمي من حديث أنس، قال أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: تفرد به أبو بكر عمار بن إسحاق عن سعيد بن عامر، وقال أبو موسى المديني: لا أصل لهذا الحديث بهذا السياق والظاهر أنه موضوع وقد سمعت غير واحد من أهل العلم عاب المقدسي بإيراد هذا الحديث في كتابه، وأورده السهروردي في العوارف وقال: يخالج سري أنه غير صحيح وقد تكلم فيه أصحاب الحديث والقلب يأبى قبوله.

لقد لَسَعَت حَيَّةُ الهَـوى كَبِـدي فـلا طبيـب لهـا ولا تريـاق

(**على الخصوص**) يعني: خصوصا (**من كان صاحب العلم الرسمي**) فإن طباعهم أميل على المناهي من غيرهم لما سيذكره المص؛ لعل المراد من العلم الرسمي ما يكون علمًا في الرسم والاسم لا في الحقيقة كالفلسفيات والجدليات وغيرها مما لا منفعة فيه دينية، ويؤيده ما يشير اليه المص.

ويحتمل أن يراد ما يكون تحصيله على مجرد رسم العادة لا لقصد العمل به، وقد قيل: العلم النافع في نفسه لا يكون نافعا بالنسبة إلى صاحبه لعدم عمله بموجبه.

(**مشتغل فضل النفس**) لعل المراد يشتغل بالعلم لرفعة نفسه بين الأقران.

(**ومناقب الدنيا**) أي: محاسنها والتناهي بحسبها، يعني: يقصد بعلمه مجرد محاسن الدنيا.

(**فإنه يحسب أن العلم المجرد**) عن العمل به (**وسيلة سيكون نجاته وخلاصه فيه**) إن نجاته من حيث الدنيا وهو الظاهر؛ لأن ما يكون العلم المجرد وسيلة للنجاة ما يكون بحسب الدنيا، وأما ما يكون وسيلة للنجاة الأخروية ما يكون مع عمل.

(**وأنه مستغن عن العمل**) عطف على قوله: (إن العلم) يعني: يعتقد الاستغناء عن العمل؛ إذ العمل إنما يحتاج اليه للآخرة وهم لا يعتقدونه، وما يعتقدونه هو الدنيا، فيكفيه العلم المجرد، لعل المقام من قبيل تنزيل العالم منزلة الجاهل؛ لعدم جريه على موجب علمه.

(**وهذا**) أي: اعتقاد كفاية العلم المجرد.

(**اعتقاد الفلاسفة**) لعل المراد الطبيعيون منهم، وإلا فهم قسموا الحكمة إلى النظرية والعلمية، وأدعو أن استكمال النفس إنما هو بهما.

(**سبحان الله العظيم**) لأنه شئ غريب وأمر يتعجب منه.

(**لا يعلم هذا القدر**) الظاهر إشارة إلى ما بعده من (**أنه**) أي: ذلك الطالب.

(**حين حصَّلَ العلم إذا لم يعمل به يكون حجة**) أي: حجة الله يوم القيامة.

obeikandl.com

(**عليه آكد**) وأقوى، نقل عن «التبصرة» عن معروف الكرخي[١] عن بكر بن خُنيسٍ: أن في جهنم لواديًا يتعوذ منه جهنم كل يوم سبعة مرات، وأن في ذلك الوادي لجبًا يتعوذ الوادي وجهنم من ذلك الجب كل يوم سبع مرات، وأن في ذلك لحية يتعوذ الجب والوادي وجهنم منها كل يوم سبع مرات، تبدأ بفسقة أهل القرآن فيقولون: أي رب تبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟! فيقال: ليس من يعلم كمن لا يعلم.

(**كما قال صلى الله عليه وسلم: «أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**») كما رُوي: «**ويل للجاهل مرة وللعالم مرتين**»[٢]؛ لأن الجهل قد يصلح عذرًا، وإن فساد العالم يسري إلى فساد الجهلاء، كما قال عمر رضى الله عنه على ما في «التاتارخانية»[٣]: (إذا زل العالِم زل بزلته عَالَم من الخلق).

وفيه أيضًا: قال يحيى بن معاذ لعلماء الدنيا[٤]: (يا صاحب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأبوابكم ظاهرية، وأحصانكم جالوتية، ومواليكم قارونية، ومذاهبكم شيطانية، فأين المحمدية؟؟!).

(**ورُوي أن جنيدًا – قدس الله روحه العزيز – رُؤيَ في المنام بعد موته**) فإن قيل: هذا إثبات عدم نفع العلم المجرد وإثبات نفع العمل، ولا شك أن المنام لا يزيد ولا يسبق الإلهام، والإلهام ليس بشئ من أسباب العلم؟

قلنا: نعم، لكن عن صحيح البخاري: « **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ** »[٥].

---

(١) هو معروف بن فيروز، وقيل الفيرُزان الكرخي، أبو محفوظ البغدادي، توفي سنة (٢٠٠هـ)، وقيل: (٢٠٤هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء ٣٣٩/٩، وشذرات الذهب ٣٦٠/١.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٢٩٧/١)، وفيه: «وَيْلٌ لِلْجَاهِلِ مَرَّةً وَوَيْلٌ لِلْعَالَمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ».

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٥٢٠/١، رقم ١٤٧٤)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢١١/٢، رقم ٦٣٧).

(٤) انظر: فيض القدير (٤١٩/٢)، والإحياء (٦١/١).

(٥) أخرجه البخارى (٢٥٦٨/٦، رقم ٦٥٩٣)، ومسلم (١٧٧٤/٤، رقم ٢٢٦٤)، والترمذى فى الشمائل المحمدية (٣٥٣/١، رقم ٤١٥).

obeikandl.com

ويُفَصّل في «شرح المشارق» على أن ذلك في المطالب القطعية اليقينية، والظاهر أن المقام خطابية، وأن الإلهام قد يكون حُجة إذا لم يقصد به الإلزام سيما على صاحبه، وأنه يجوز أن يكون حجة تامة عند المص وإن كان الرؤيا خيالا باطلا عند الأشاعرة؛ لأنه لم يجر عادته تعالى بخلق الإدراك في النائم، وأما عند الماتريدية فليس خيالا باطلا بل هو نوع مشاهدة للروح، قد يشاهد الشئ بحقيقته وقد يشاهد بمثاله.

(**فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: قد طاحت**) أي: هلكت (**العبارات**) لعل المراد العلوم الظاهرة كما أن المراد بقوله: (**وفنيت الإشارات**) العلوم الباطنية (**ما نفعتنا**) الظاهر من النفع النفع التام (**إلا ركعتان**) يحتمل الشخص، يعني: ركعتين فقط في مدة عمره، ويحتمل الجنس، يعني: كل ليلة من عمره يأتي ركعتين فقط، ويحتمل أن يكون كناية عن مطلق جنس صلاة الليل وإن كانت كثيرة ثم الظاهر من الحصر الإضافي، أي: بالنسبة إلى الفضائل والعلوم كما يؤيده السباق.

(**في جوف الليل**) لعدم احتمال الرياء وصدوره بالخشوع ولإتعابه على النفس؛ ولهذا كانت ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلا﴾ [المزمل:٦] كما سيفصله المص.

obeikandl.com

النصيحة الثالثة

لا تكن من الأعمال مفلسًا[١]

• أيها الولد..!!

لا تكن من الأعمال مُفلسًا، ولا من الأحوال خاليًا، وتيقّن أن العلم المجرد لا يأخذ باليد[٢].

---

(١) هذه من بداية التوجيهات والتوصيات التي وصى بها الإمام تلميذه النجيب.

لقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته عن المفلس فأجابوه: بأنه من لا درهم له ولا دينار.. فصحّح لهم أفكارهم ونقلهم إلى الهداية التامة وأخبرهم بأن المفلس يوم القيامة من يأتي بصلاة وزكاة وصيام وحج ونافلة.. ثم تفتح صحائفه فتجده قد اغتاب هذا وسفك دم هذا وهضم حق هذا واعتدى على هذا.. فأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى استنفذت.. وما قضيت الحقوق فجعل الملائكة يطرحون عليه من أوزار أصحاب الحقوق ثم طرح في النار..

ذهبت أعمال ذلك المفلس ولو كان له أعمال ثابتة يبقى أثرها بعد موته لانفتح له باب رجاء إذ كل عمل ينقطع بالموت لا ينفع.. فالعمل يجب أن يتوجه لما بعد الموت.. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني).

ضع نفسك دائماً موضع التهمة.. حاسبها ولُمها وعاقبها وإياك أن ترخي لها القياد.. فإنك إن فعلت جمحت بك إلى دروب الهوى واستعصت على الانقياد والأعمال التي تبقى لما بعد الموت هي التي يشقّ على النفس فعلها في الدنيا.. فكلما ثقل عمل نفسك فاعلم أنك ستجده يوم القيامة عظيماً وكبيراً.. فالله تعالى يتعاهد هذا العمل الخالص لوجهه فيربيه وينمّيه كما يربي أحدنا مُهره.. حتى تصبح الحبة من القمح مثل جبل أحد هكذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم..

(٢) الأعمال تنقسم إلى أعمال جوارح وأعمال قلوب.. كلاهما حين يتحدان يثمران حالة إيمانية أقرب إلى السكينة وصفاءً يخالط النفس الجافية فيهذبها ويطفئ حدتها.. فترق وتلين وتأنس وتحلق مع الروح التي تنشط حين تخف وطأة النفس عليها فتحلقان في سديم علويّ منسجم ليس فيه صخب ولا سغب ولا عُقد ولا مشكلات..

obeikandi.com

مثاله: لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شُجاعًا وأهل حرب، فحمل عليه أسد [عظيم] مهيب، فما ظنّك؟ هل تدفع الأسلحة شرّهُ عنه بلا استعمالها وضربها؟!

ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علميّة علّمها وتعلّمها، ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل.

ومثاله [أيضا]: لو كان لرجلٍ حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجين والكشكاب[1] فلا يصل البرء إلا باستعمالهما.

=

وتصبح الحياة عند ذلك الإنسان مجرد جسر متين يعبره بثقة نحو الآخرة التي تنسّم بعض حلاوتها في تلك الأحوال التي أنعم بها الله عليه في دنياه..

يلحّ الغزالي على تلميذه أن لا تخلو أعماله من أحوال ترفد عزيمته وتمدّه بمعان من الإيمان العميق تطيب عندها الحياة وتزكو ويتعزز بها الإقبال على الله عز وجل.. والتماس الأعمال التي ترضيه من صلاة وصدقة وتكافل وقولة حق وذكر وقرآن ودعوة إلى الله بالتي هي أحسن.. هذه كلها أعمال جوارح وقد تنفرد أعمال القلوب عن أعمال الجوارح وقد تشاركها وتخالطها.. فالإخلاص والتواضع ومحبة الله ورسوله ومحبة المسلمين والزهد في الدنيا وحسن الظن بالله والتنزه عن الحق والحسد والضغينة والنفاق والرياء والغش.. لا ينفي عنك ذلك إلا قيام بحق العبودية لله عز وجلّ وسلوك عند رب خبير يخلصك من تلك العلل بحاله وقاله ثم يستنبت في قلبك خصال الكمال فيجعله مهبطاً لواردات الخير والبشائر وموئلا للطيبات الصالحات من النيات والعقائد إلى أن يدخلك عالم المعرفة الحقيقة ثم يقول لك: (ها أنت وربّك) (عرفت فالزم.. عرفت فالزم)..

قم بحق العبودية لله سبحانه وضمّ عمل القلب إلى عمل الظاهر تنضج لك ثمرة عملك وترى أثر ذلك في عبادتك ويتغيّر (الحال) الذي أنت فيه فيصبح مقاماً تنتقل به إلى مقام ثان فثالث فرابع.. مقام العبودية يرتقي بك إلى مقام المراقبة إلى مقام الإخلاص إلى مقام الشوق إلى مقام المحبة إلى مقام الرضا..

الأعمال ترفدك بأحوال والأحوال توصلك إلى مقامات والمقامات تنتهي بك إلى تسليم كامل لله عز وجل وشهود أن لا فاعل ولا محرّك في هذا الوجود إلا الله عز وجلّ، عندها تكون قد وصلت إلى الإيمان الكامل الذي قال فيه سيدنا عليّ رضي الله عنه (لو كشف القناع ما ازددت يقيناً)..

(١) السكنجين والكشكاب: دواءان لعلاج الحمى الصفراء.

obeikandl.com

بيت[١]:

كَرْمَى دوُ هَزَار رطـــل بيمـــائي تَامْى نَخُوري نَبَاشَـــدَتُ شَـــيُدَابي

(**أيها الولد؛ لا تكن من الأعمال مفلسًا**) بأن يكون عملك بالعلوم الظاهرة قليلا.

(**ولا تكن من الأحوال خاليا**) بأن تكون عاريًا من علم الباطن؛ فكانه يقول: اجتهد أن تجمع بين الأعمال الظاهرة والأسرار الباطنة كي تجمع بين الحقيقة والشريعة، وذلـــك (**بأن تتيقن**) وتعتقد جزمًا (**أن العلم المجرد**) أي: العلم الخالي عن العمل والتصفية.

(**لا يأخذ اليد**) لا ينجي صاحبه من المخاوف، ولا يوصله إلى المآرب والمطالب.

(**مثاله**) أي: يوضح هذا العقلي بمثالين من المحسوس الخارجي لزيادة الإيضاح، إما بناء علي ما اشتهر أن المثالين كالشاهدين أو الأول للأعمال الظاهرة، والثاني للأحوال الباطنة، أو الأول بالنسبة إلى فعل المعروفات، والثاني إلى ترك المنكرات.

(**لو كان على رجل في برية**) أي: مفازة وصحراء (**عشرة أسياف**) جمـــع ســـيف، والتخصيص بالعشرة لمجرد بيان الكثرة كما أن قوله: (**هندية**) لمجرد بيان جيـــادة الســـيف وحدته، فلعل أن السيوف الجياد تنسب إلى الهند.

(**مع أسلحة**) جمع سلاح (**أخرى، وكان الرجل شجاعًا**) زيادة هذا لا يعـــرف لـــه فائدة في المثالية إلا أن يراد بالأسلحة إشارة إلى العلوم الظاهرة والشجاع.

(**وأهل الحرب**) مثال للعلم الباطنة والأخلاق (**فحمل عليه أسيد مهيب**) مناسب لأن يكون مثالا للنفس الأمَّارة كما قيل: (نفسك أسدك إن لم تتوق يأكلك).

(**ما ظنك**) يعني: ليس لك ظن فضلا عن علم في أنه لا تدفع تلك الأسلحة بأنفســـها شر ذلك الأسد، أي: الرجل المذكور (**بلا استعمالها**) أي: الأسلحة.

(**وضربها ومن المعلوم**) البـــديهي (**أنها لا تُدفع إلا بالتحريك والضرب، فكذا قـــرأ رجل مائة ألف مسألة**) بل كتاب لأنه كناية عن الكثرة (**علمية**) أي: شرعية زاجرة نافعة

---

(١) ترجم هذا البيت من الفارسية الشيخ محمد أمين الكردي فقال: إذا كلت الخمر ألفي مـــرة و لم تشربها لم تحس بالنشوة.

(**وتعلمها**) كأنه عطف تفسير لقرأ (**ولم يعمل بها لا يفيد إلا بالعمل ومثاله**) وأيضا يجوز أن يكون هذا مثالا من الأنفسي الوجداني، والأول مثالا من الآفاقي الخارجي.

(**لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجبين** -وهو خل وعسل وماء- **والكشكاب** -وهو عصير الشعير يختلط بالسكر ويشرب من أيها الأخ-) هما دواءان يُتداوي بهما لذلك المرض (**فلا يصل**) أي: لا يحصل (**البراء**) أي: النجاة والشفاء (**إلا باستعمالهما**:

كرمى دوهزار رطل بيمايي تامي نخورى نباشدت شيدايي)

يعني: لو كَثُرَ عندك الخمر لا تسكرك ما لم تشربها، فكذلك وإن كَثُرَ علمك لا ينفعك ما لم تعمل به.

فإن قيل: إن المفهوم مما ذُكر أن العلم بلا عمل وعبادة ليس له فضل ومنفعة بل زيادة مضرة، والمفهوم من بعض الآثار فضل العالم على العابد كقوله صلى الله عليه وسلم: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أدناكم**»[(١)]؟.

قلنا: لعل المعنى فضل من عبد مع العلم على من يعبد بلا علم، بل لا يقال لمن ليس له عمل وخشية عالماً وإن جمع علماً، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] كما قيل: وإن العلم ليس فى ذاته مقصوداً بل لكونه وسيلة إلى العمل، فالعلم بلا عمل ليس بمعتد به شرعاً بل تحصيله إضاعة وقت وكد بلا فائدة، كتعذيب حيوان؛ ولذلك أن موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حين استوصى من الخضر عليه السلام حين المفارقة قال: (**لا تطلب العلم لتحدث به، واطلبه لتعمل به**).

وفي رواية قال موسى عليه السلام: (**ادع، قال الخضر: يسر الله لك طاعته**). كما في رسالة القاري في حياة الخضر قوله: (**لتحدث به**) يعني: لا تطلبه لتحدث به فقط بلا

---

(١) أخرجه الحارث كما فى بغية الباحث (١/١٨٤، رقم ٣٩)، وابن حبان فى الضعفاء (١/٣٤٠، ترجمة ٤٢٨ سلام بن سلم الطويل) وقال: يروى عن الثقات الموضوعات كأنه كان المعتمد لها. وابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١/٢١).

عمل أو للتحدث بلا أغراض حميدة، وليس معنى التحدث التعليم وإلا ففضل التعليم والتدريس أظهر من أن يخفى.

قال في «الفوائح المسكية»: العلم غرس، وماؤها درس، لكن طلب الثواب بإظهار الصواب لا للمفاخرة ولا للمعصية، ولا لهيجان القوة الغضبية.

obeikandl.com

النصيحة الرابعة

لو قرأت العلم مائة سنة

• أيها الولد..!!

ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدًا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩]، [فمن قال أن هذه الآية منسوخة بقوله عليه السلام: « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ[(١)].. الحديث». فالمنسوخ هو هذا القائل، ولئن كانت منسوخة فما تقول في قوله تعالى]: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا﴾ [الكهف: ١٠٧ ــ ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا﴾ [الفرقان:٧٠].

وما تقول في هذا الحديث: « بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا » رواه البخاري ومسلم[(٢)].

والإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان.

ودليل الأعمال أكثر من أن يحصى، وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، ولكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته، لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/١٢٥٥، رقم ١٦٣٤).

(٢) أخرجه البخارى (١/١٢، رقم ٨)، ومسلم (١/٤٥، رقم ١٦)، والترمذى (٥/٥، رقم ٢٦٠٩) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٨/١٠٧، رقم ٥٠٠١)، وابن حبان (١/٣٧٤، رقم ١٥٨). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (١٠/١٦٤، رقم ٥٧٨٨)، وابن خزيمة (١/١٥٩، رقم ٣٠٩)، والطبرانى (١٢/٣٠٩، رقم ١٣٢٠٣)، والبيهقى (٤/٨١، رقم ٧٠١٣).

ولو قيل: يبلغ الجنة أيضا بمجرد الإيمان!!.

قلنا: نعم؛ لكن متى يبلغ؟ وكم من عقبة كؤدة تستقبله الى أن يصل الجنة؟!

وأول تلك العقبات: عقبة الإيمان، أنه هل يسلم من السلب أم لا؟ وإذا وصل يكون خائبًا مُفلسًا.

وقال الحسن البصري رحمة الله تعالى عليه[1]: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اُدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَاقْتَسِمُوهَا بِقَدْرِ أَعْمَالِكُمْ).

(**أيها الولد**) وفي بعض النسخ ليس ذلك بل وصل قوله: (ولو قرأت... الخ) إلى ما قبله وهو الظاهر لكمال تقارب ما قبله لما بعده، بل هما بحث واحد وهو لزوم العمل إلا أنَّ ما قبله توضيح بالتمثيل، وما بعده تثبيت بالدليل النقلي نصًا أو سنة، والعقلي وهو يمكن أن يُفهم من بيان مفهوم الإيمان أو ما قبله دليل عقلي وما بعده نقلي، فافهم.

وبما ذُكر عرفت أن لتوسيط هذا القول وجهًا أيضًا لأنه كبحث آخر، ولأنه مؤذن لكمال اهتمام ما بعده استقلالا عما قبله.

(**ولو قرأت العلم مائة سنة**) وحصلت فيه قوة تامة (**وجمعت ألف كتاب**) إما بالتأليف أو بالحفظ والملكة الراسخة (**لا تكون مستعدًا**) أي: متهيئا (**ولا مستحقًا**) أي: لائقاً (**لرحمة الله تعالى**) ورضائه وجزائه بالجنة والسلامة عن المخاوف والمهالك.

(**إلا بالعمل**) فبالعمل الصالح تستحق الرحمة والجنة، **فإن قلت**: إذا كان المرء مستحقاً بعمله الرحمة فلزم أنه لا يجوز علي الله تعذيب المطيع، وهو خلاف مذهب الأشاعرة من أنه يجوز تعذيب المطيع وتنعيم العاصي بل هو مذهب المعتزلة، وأيضا يقتضي أن يكون الأعمال موجبًا للجنة وهو أيضا ليس مذهبًا لأهل السنة بل لأهل الاعتزال؟

قلت: إن جواز التعذيب للمطيع عندهم إنما هو بحسب العقل، وأما كلامنا ففي الشرع، وإن الماتريدية منعوا ذلك، وإن كان عقلا؛ لأن تعذيب المطيع وتنعيم العاصي خلاف الحكمة، وإن المراد بالاستحقاق ما هو على مقتضى وعده تعالى وعادته لا على أن

---

(١) انظر: البريقة المحمودية ٢/١٤٣.

يكون حقه الذاتي، نعم في بعض المواضع الأعمال علة موجبة للجنة عند المعتزلة، وسبب عادي عند الماتريدية، وتفضل عند الأشاعرة، ثم ارد أن يثبت كون مدارية النجاة والفوز هو العمل بالكتاب والسنة وللعقل فقال: (**كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩]**) لا يخفى أن هذا مبني على أن يكون المراد من السعي العمل الصالح كما يشهد به النصوص الأخر، وإلا فلو جوز شموله للعلم المجرد فلا يصلح له بل يصلح عليه.

(**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو**) أي: يطلب (**لِقَاءَ رَبِّهِ**) أي: لقاء رحمته ورضائه ورؤيته كما في الجنة (**فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا**) فدل أن العمل هو المدار للقاء الله تعالى.

(**جزاء بما كانوا يعملون ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]**) أشكل في «حاشية التلويح» على مثل هذه النصوص لقوله صلى الله عليه وسلم: « **لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ** »[1].

ودفع عن بعض المحققين: أن الباء في الآية ليست للسببية كما في الحديث بل للمقابلة المؤذنة عن العوضية، فيجوز التخلف إذ المعطي بعوض قد يعطي لا بعوض خلاف السببية، وأيضاً إن الجنة ميراث الأعمال ظاهراً، وإن تفضلا حقيقة، وقيل: نفس الدخول تفضلي ونقل المراتب بالأعمال. انتهى ملخصا فتأمل.

(**﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٧]**) فجنة الفردوس مسببة عن مجموع الإيمان والأعمال الصالحة؛ لأنه تقرر في المعاني والأصول أن كون المسند إليه موصولا قد يكون لإيذان كون صلته علة لخبره.

(**﴿إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا﴾ [الفرقان:٧٠]**) فالايمان مع العمل الصالح علة مفضية عن الخلاص من الغي الذي اقتضاه صدر الآية، وهو قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ...﴾ [مريم: ٥٩] الآية وقد أثبت في بعض

---

(١) أخرجه الطبراني (١/١٨٧، رقم ٤٩٣) قال الهيثمي (١٠/٣٥٧): فيه المفضل بن صالح الأسدي، وهو ضعيف.

النسخ، ثم أراد أن يثبت المطلوب بالسنة؛ أعني: مدارية العمل للنجاة، فقال: (**وما تقول في هذا الحديث**) وهو قوله: (**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ**) الكلام مبني على تشبيه الإسلام على سرير له أركان فالاستعارة: إما تمثيلية أو مكنية، والبناء ترشيحية فكما أن السرير ووجوده بأركان بحيث لو أزيل واحد منها لانتفى ماهية السرير إذ الكل ينتفى بانتفاء أحد أجزائه فكذا الإسلام بالنسبة إلى هذه الأجزاء التي هي الأعمال الصالحة فالأعمال الصالحة: عبارة عن الإسلام الذي يمتنع الفوز والظفر بدونه قطعا.

(**شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**) فإن قيل: يقتضى ظاهره أن يكون الإسلام الذي هو مرادف للإيمان على الأصح عبارة عن الإقرار مع سائر الأعمال وهو ليس بمذهب لأحد بل للخوارج والمنقشفة، قلت: لعل المراد: بنى شرط الإسلام أو كماله أو حجته.

(**وَإِقَامِ الصَّلاةِ**) والتعبير بالإقامة للإشارة إلى أن المعتبر فيها ما يكون بمراعات تعديلها بل بإتيان مكملاتها بما يحويها من السنن والآداب.

(**وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ**)؛ أي: إلى الحج (**سَبِيلا**) تمييز من فاعل استطاع لا يخفى أن هذا الحديث إنما يدل على مدارية عمل مخصوص وهو ليس بمطلوب، والمطلوب: مدارية مطلق العمل وهو ليس بلازم، والخاص لا يستلزم العام بوجه وتخصيص المطلوب بما ذكر ليس بمناسب، نعم أن ذلك فرع كون العمل جزأ من الإيمان وأريد من العمل حينئذ ما هو المفروض فقط، – كما سيشار إن شاء الله تعالى – لكن الظاهر هو المفروض المطلق لا المفروض الخصوص المذكور في الحديث؛ إلا أن يدعى أن ما في الحديث أصول البواقى ومتبوعه.

وقوله: (**والإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان**)؛ أي: بالجوارح إشارة إلى الدليل العقلي على أن العمل مدار النجاة؛ يعني: أن العمل جزء من الإيمان وما يكون جزء من الإيمان فمدار للنجاة فالعمل مدار للنجاة فلا مساغ للإهمال والاغترار على العلم.

فقوله: الإيمان آه دليل الصغرى هذا القياس المطوي بكلتي مقدمتيه ثم ما اختاره من أن الإيمان: هو مجموع فعل القلب واللسان والجوارح هو مروي عن الشافعي، ومذهب المحدثين والمحكي عن أكثر السلف على ما نقل عن الكرماني « شرح البخاري » قيل: ويتبادر من الكلام البيضاوي وإلا فالإيمان عبارة عن التصديق فقط مع كون العمل شرطا على المختار من أهل السنة ومع الأقرار ولو مرة وخفية عند أكثر المحققين وأبي حنيفة رحمة الله تعالى عليه، ثم المراد من جزئية العمل من الإيمان ما يكون جزأ من كماله كجزئية شعر يزيد من زيد وورق الأشجار من أنفس الأشجار كما يشير إليه وإلا فكون العمل جزء من حقيقة الإيمان مذهب المعتزلة.

(**ودليل الأعمال أكثر مما يحصى**) وأما في بعض النسخ مما لا يحصى فليس بصحيح أو محتاج إلى تأويل إذ لا يتصور الأكثرية على ما لا يتناهى.

ثم لما ورد أن دخول الجنة إنما هو بفضل الله تعالى لا بالعمل كما هو مذهب الأشعري فأجاب بأنه (**وإن كان العبد يبلغ**)؛ أي: يدخل (**الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، ولكن**) الفضل على ما جرى عادته إنما يكون (**بعد أن يستعد**) العبد (**بطاعته وعبادته**)؛ يعني: أن الدخول إلى الجنة وإن كان بفضله تعالى؛ لكن كان ذلك الفضل منوطا بالاستحقاق والاستعداد لذلك إنما يكون بالعمل والطاعة وهذا قريب إلى قول أهل المعقول أن الفيضان من الفاعل مشروط بالاستعداد التام من القابل.

(**لأن رحمة الله قريب من المحسنين**) اقتباس على وجه التعليل ففيه إشارة إلى الاستدلال بوجهين العقلي والنقلي؛ يعني: أن رحمته إنما هو قريب من المحسنين بالطاعة والعبادة فالظاهر أن القرب كناية عن الوصول ثم لما ورد أن ترك الأعمال لا يزيل الإيمان فما دام الإيمان يدخل الجنة ولو بلا عمل فأشار إليه بقوله: (**ولو قيل: العبد قد يبلغ**) وفي بعض النسخ هل يبلغ (**أيضا بمجرد الإيمان**) يعني: المقرر عند أهل السنة أن العبد يدخل الجنة بمجرد الإيمان بلا عمل وأجاب بقوله: (**قلنا نعم؛ لكن متى يبلغ**) الظاهر أنه للاستبعاد ولو مجازًا.

وقوله: (**كم من عقبة**) إلخ بيان للبعد وكم خبرية للتكثير والعقبة هنا الأمر الشديد والشيء المهاب والمخاوف، وقوله: (**كؤدة**) قيل: هو بمعنى عقبة صعبة (**تستقبله إلى أن يصل إلى المطلوب وأول تلك العقبات عقبة الإيمان**) إما بمعنى الأول زمانا فإنه عند نزع الروح أو بمعنى المعظم فإنه لا أعظم مصائب منه، عياذا بالله تعالى.

(**هل يسلم**) من السلامة (**من السلب**) سيما عند ضعف العقل من شدة سكرات الموت، وقد اجتهد الشيطان باذلا جميع وسعه بأنواع الحيل والتلبيس إلى أن يكون على صورة نحو والد ينصح بدخول غير دين الحق كما نطق به الأحاديث (**أم لا**) يسلم من السلب وإما العمل فيكون حافظا للإيمان وحصنا حاجزًا له؛ أي: مانعا للشيطان وإن للأعمال الظاهرة إعانة قوية في رسوخ الكيفيات النفسانية فبالعمل يتقرر الإيمان، وينتقش فلا يغيره ولا يزيله شر الموسوس وغوائله ويثبته الله تعالى بالقول الثابت ثم أنه من إشكال المقام أن من قواعد أهل السنة أن الله تعالى يغفر ما دون الكفر لمن يشاء، فيجوز الدخول بلا زحمة وإن بعض صاحب الأعمال الكثيرة قد سلب عنه الإيمان العياذ بالله تعالى كبر صيصا يروى: أن تلامذته تطير في الهواء بهمته وإن بعض المؤمنين، ولو بلا عمل يكون من أهل الجنة كمن مات في أول الإسلام أو مجنونًا أو صبيا في الإسلام سيما سحرة فرعون فتأمل حتى يتضح الجواب بلا لزوم ملال الاطناب (**وإذا وصل إلى الجنة**) ولو بعد العقاب (**يكون خائبًا مفلسا**) والمفلس لا يشتري منزلة رفيعة في الجنة (**لما قال الحسن**)؛ أي: البصري لعل هذا حديث مقطوع وإلا فمثل ذلك المطالب لا تنال بالرأي.

(**يقول الله تعالى يوم القيامة: اُدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَاقْتَسِمُوهَا بِقَدْرِ أَعْمَالِكُمْ**) فإذا لم يكن عمل فبأي شيء يقتسم ففيه إشارة إلى ما سبق أن الدخول بفضل الله تعالى والرفعة؛ بسبب الأعمال من مذهب البعض.

النصيحة الخامسة

ما لم تعمل لم تجد الأجر

• أيها الولد..!!

ما لم تعمل لم تجد الأجر.

وحُكي أن رجلا من بني إسرائيل عَبَدَ الله تعالى سبعين سنة، فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة، فأرسل الله إليه ملكًا يخبره أنه مع تلك العبادة لا يليق به [دخول الجنة]، فلما بلغه، قال العابد: نحن خلقنا للعبادة، فينبغي لنا أن نعبده. فلما رجع الملك قال الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ قال: إلهي [وسيدي]؛ أنت أعلم بما قال، فقال الله تعالى: إذا هو لم يعرض عن عبادتنا، فنحن – مع الكرم – لا نعرض عنه، أشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا»[١].

وقال علي رضي الله عنه[٢]: (مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِدُونِ الْجَهْدِ يَصِلُ فَهُوَ مُتَمَنٍّ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ بِبَذْلِ الْجَهْدِ يَصِلُ فَهُوَ مُتَعَنٍّ).

وقال الحسن رحمة الله تعالى عليه: (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب).

وقال بعض العلماء: (عالم الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، والأحمق مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ تعالى»[١].

---

(١) يروى هذا الحديث موقوفا عن ابن عمر رضي الله عنه بألفاظ مشابهة، أخرجه ابن المبارك فى الزهد (١٠٣/١، رقم ٣٠٦)، وابن أبي شيبة (٩٦/٧، رقم ٣٤٤٥٩)، وأبو نعيم فى الحلية (٥٢/١)، وابن عساكر (٣١٤/٤٤).

(٢) انظر: البريقة المحمودية ١٤٢/٢.

(**أيها الولد**) أعاد الخطاب وإن كان ما بعده من جنس ما قبله إشارة إلى زيادة اعتنائه العمل واهتمامه.

(**ما لم تعمل**) الصالحات (**لم تجد الأجر**)؛ أي: الثواب، كالجنة؛ يعني: أن الجنة وإن كان بفضله تعالى كما هو مذهب المص؛ لكن جرى عادته تعالى بمناطية العمل للجنة فتأمل بما سبق حتى يزول من الشبهة ما سبق، ثم الظاهر من مقصود ما سيذكره من الحكاية أن يكون التعبير بنحو أن يقال أن عملت لا تحرم من الأجر ولا تنفك عنه.

(**حكاية**)؛ أي: هذه حكاية دالة على ما ذكرنا، وهي (**أن رجلا في بني إسرائيل**) من الأمم السالفة (**عبد الله تعالى سبعين سنة فأراد الله تعالى أن يجلوه**)؛ أي: يظهره على الملائكة؛ إما على جميعها كما هو المتبادر من الجمعية مع اللام أو طائفة منهم وفائدة الإظهار: إما لا يذان شرف العابد ورتبته وصدق رغبته على العبادة وقوة اعتماده على ربه حيث لا ينفك عن وظيفته مع حصول يأس منفعته أو لإفادة أن العمل يؤثر في تبديل الشقاوة بالسعادة أو للتباهي لى الملائكة فافهم.

(**فأرسل الله تعالى ملكا**) قوله: (**يخبره**) صفة ملكا؛ بمعنى: ليخبره؛ أي: ليخبر الملك ذلك العابد (**أنه**)؛ أي: إنك أيها العابد (**مع تلك العبادة**) الكثيرة (**لا يليق به**)، أي: الأجر، و(**الجنة**) حاصله وإن أكثرت العبادة ليس لك فيها نفع؛ لكن يشكل إما بلزوم كذب الملك أو عدم نفع العبادة والمقام في نفعها إلا أن يقال مراد الملك أن عملك ليس موجبا لك الأجر وإن كان سببا عاديا للأجر؛ بل الأجر إنما هو بالفضل (**فلما بلغه**) من التبليغ (**قال العابد: نحن خلقنا للعبادة**) كما قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا

=

(١) أخرجه الترمذى (٤/٦٣٨، رقم ٢٤٥٩) وقال: حسن. وابن ماجه (٢/١٤٢٣، رقم ٤٢٦٠)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٢٦٧)، والبيهقى (٣/٣٦٩، رقم ٦٣٠٦)، والطبرانى (٧/٢٨١، رقم ٧١٤١)، والحاكم (١/١٢٥، رقم ١٩١) وقال: صحيح على شرط البخارى. وأخرجه أيضًا: أخرجه البزار (٨/٤١٧ رقم ٣٤٨٩)، والقضاعى (١/١٤٠، رقم ١٨٥)، وابن أبى عاصم فى الزهد (١/٣٨)، والديلمى (٣/٣١٠، رقم ٤٩٣٠).

لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] (**فينبغي لنا أن نعبدوه**) أي: الله هذا قريب أن يكون جوابا على طريق أسلوب الحكيم في علم المعاني؛ يعني: لم يجعل الله عبادتنا إياه مشروطة بلياقة الأجر؛ بل أمرنا على الإطلاق و لم يأمر بشيء غير العبادة وما أمروا إلا ليعبدوا الله فليس لنا في جميع الأحوال شيء غير العبادة (**فلما رجع الملك**) إلى الله تعالى؛ لكن بلا كيف ولا جهة ولا مكان (**قال إلهي أنت أعلم بما قال**)؛ أي: العابد (**فقال الله تعالى إذا هو لم يعرض عن عبادتنا**) لعل الظاهر بمعنى إذا لم يعرض العابد بإذا الشرطية، ويمكن أن يكون إذن بالنون لا بالألف؛ بمعنى: تأكيد جواب مرتبط بمقدم أو منبه على سبب حصل في الحال فليس بعامل فيدخل الاسمية كما في قولك إذن أنا أكرمك فهذا وإن كان قريبا من حيث المعنى؛ لكن كتابة عامة النسخ بالألف يبعده (**فنحن**) بعظمة شأننا (**مع الكرم**)؛ أي: مع كوننا صاحب كرم والكرم يقتضي الإحسان والغفران (**لا نعرض عنه**) بل نقبله بأنواع العطايا والأنعام (**اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له**) الإشهاد على نهج الشرع الذي وصفه الله تعالى أو لكمال إيقان نفع العبادة وإلا فلا حاجة إلى الإشهاد في وعد من لا يخلف الميعاد، ولا يغيب شيء من علمه فالذي حصل من هذه الحكاية أن الإصرار على العبادة كان سبب للنجاة؛ بل كان داعيا إلى محو الشقاوة والتثبيت بالسعادة؛ لكن يرد أن ذلك ليس من العمل؛ بل من صدق العقيدة أقول ذلك ليس بقطعي غايته المدخلية وذا لا ينافي مدخلية العبادة، ثم هذا وإن وافق مذهب الماتريدية من أن السعيد قد يشقى والشقي قد يسعد؛ لكن لا يوافق مذهب الأشاعرة من أن السعيد سعيدًا أبدا والشقي شقي أبدا، فافهم قال في الطريقة المحمدية في آخر حيل الشيطان في الطاعة يقول الشيطان آخرا أن خلقت سعيدا فلا يضرك ترك العمل وإن شقيا فلا ينفعك الجد في العمل وأجاب من جانب نفسه أنا عبد فليس للعبد إلا امتثال أمر مولاه وإني وإن كنت شقيا أحوج إلى العمل لئلا ألوم نفسي على أنه تعالى لا يعاقبني على الطاعة ألبتة على أن دخول النار بالعبادة أحب إلي من الدخول بالشقاوة وأنه تعالى لا يخلف وعده وقد وعده بالثواب على الطاعة فمن لقى الله تعالى على الإيمان والطاعة لن يدخل النار ألبتة وأنه مسبب الأسباب وربط الأسباب بالأسباب الظاهرة كالغيب للنبات، انتهى. ملخص حكاية أخرى.

قال رجل لعابد في مكة: إني رأيتك في اللوح شقيا، قال العابد: إني رأيته مذ أربعين سنة؛ لكن خلقنا للعبادة فليس لنا إلا العبادة.

(**وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم**: «**حاسبوا أنفسكم** »)؛ أي: إعمال أنفسكم بزيادة الصالحات وإلا فلا يظهر فائدة الاحتجاج بالحديث بالنسبة إلى مدارية العمل بالأجر فهذا في الدنيا (**قبل أن تحاسبوا**) في الآخرة (**وزنوا قبل أن توزنوا، وقال علي رضى الله عنه: من ظن**)؛ أي: اعتقد (**أنه بدون الجهد**)؛ أي: المجاهدة في العمل (**يصل إلى الجنة**) ولقاء ربه (**فهو متمن**)؛ أي: مقطوع ليس بواصل كما فهم من «القاموس» وقد يفسر فهو في خسران وأحمق إذ الوصول إنما هو بالمجاهدة قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (**ومن ظن أنه يبذل الجهد يصل فهو متعن**)؛ أي: متعب في العمل؛ يعني: يلزم عليه تحمل أتعاب ومشقات في العمل.

(**قال الحسن رحمة الله عليه: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب**) غير تركه يعني كما أن ترك العمل ذنب فكذا الطلب بدونه (**وقال**)؛ أي: الحسن (**علم الحقيقة**)؛ يعني: العلم الحقيقي (**ترك ملاحظة ثواب العمل لا ترك العمل**) يعني: أن العابد لا يترك العبادة وإن ترك ثوابها كما عرفت في مقصود الحكاية السابقة وفي بعض النسخ، وقال عالم الحقيقة فيكون لفظ عالم فاعل، قال: ويكون مقول القول قوله من ترك ملاحظة العمل؛ أي: ثوابه لا يترك العمل (**وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم**: « **الكيس** »)؛ أي: صاحب العقل (**من دان**) من الدناءة؛ أي: يجعل (**نفسه**) حقيرا (**وعمل لما بعد الموت**) من الحشر والصراط والميزان والحساب وغيرها، ومجموعها يكون بعد الموت من الأعمال الموجبة العادية للجنة (**والأحمق من اتبع نفسه هواها**)؛ أي: هوى النفس (**وتمنى**)؛ أي: يرجو (**على الله**)، أي: من الله (**المغفرة**) لأن مجرد التمني بلا عمل كتمني محال. قال في «عوارف المعارف »: النفوس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بحفظ الأدب والنفس يجري بطباعها في ميدان المخالفة والعبد يردها بجد إلى حسن المطالبة فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ومهما أعانها فهو شريكها.

النصيحة السادسة

كم من ليال أحييتها بتكرار العلم

• أيها الولد..!!

كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب[١]، وحرّمت على نفسك النوم؛ لا أعلم ما كان الباعث فيه؟!

إن كانت نيتك عرض الدنيا[٢]، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك.

---

(١) هذا هو الغزالي كما عهدنا طريقته.. يخاطب المريض أو المريد أو التلميذ واضعاً يده على موطن الداء ليختصر المسافة ويصل إلى الهدف بسرعة.. وهنا إشارة إلى أن طالب العلم ينبغي له أن يخصص وقتاً لمن ليله لمدارسة العلم فمدارسة العلم تسبيح.. ولأن يعود أحدنا إلى بيته بعد حضوره محاضرة علمية أو درساً شرعياً فيمضي ساعة في بيته يراجع ما استمع إليه وما دوّنه في كراسته ذلك ذكرٌ وتسبيح.. فخصّص من ليلك ساعة تتدارس فيها علماً كما تجعل فيه صلاة وقراءة قرآن.. بمدارسة العلم تحيا الأمم على حسن تقتصر العبادات الأخرى على صاحبها بالنفع.. وبذلك كان العلماء ورثة الأنبياء..

(٢) تلك دعوة الغزالي رحمه الله إلى تحرير النية وإخلاص العمل.. ينبه طالب العلم لعله في غيابة عن أمره.. هل تطلب مرضاة الله في سهرك ذاك؟ أم تطلب مزاحمة أهل المناصب في مناصبهم حتى إذا قرعت بابهم قبلوك.. هل تريد الزواج من ابنتهم.. أم تبتغي لك محلة في قلوبهم فينالك قسم من أموالهم أو يغمرك نعيمهم.. ويل لك وألف ويل.. حذار أن يأتيك الناس يلتمسون منك الآخرة فتطلب منهم الدنيا.. فيعرض ربك عنك لأنك بعت آخرتك بدنيا زائلة.. وكذب عملك قولك.. تدعو الناس إلى إخراج حبّ الدنيا من قلوبهم وتهفو عيناك إلى ما بأيديهم من دنيا..

أما إذا كنت تجمع مسائل الفقه وتمعن في حفظ الغرائب والمشكلات لتبرز في المحافل وتتصور المجالس وتشير إليك الأصابع بأنك الحافظ الجامع الذي لا يقف أمامه أحد ولا يجاريه أحد.. وتنهال عليك المدائح ويتردد اسمك في الشرق والغرب.. فهل ظفرت؟ هل نلت ما تبغي.. لا والله فجهنم توقد بعالم ومنفق وشهيد.. يُسأل أحدهم لماذا فعلت ما فعلت.. فالعالم يقول: يا ربّ تعلمت العلم وعلمته أبتغي وجهك فيُقال له: كذبت لقد تعلمت ليقال: عالم وقد قيل (خذوه فألقوه في سواء الجحيم) وكذلك

وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمّارة بالسوء، فطوبى لك، ثم طوبى لك، ولقد صدق من قال شعرا[1]:

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل

(**أيها الولد**) لا يخفى أن هذا متصل معنى إلى قوله: وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد فلو اتصله لفظا لكان أحسن.

(**كم من ليال**) كم خبرية للتكثير؛ أي: ليال كثير (**أحييتها**) من الإحياء فالليالي في أنفسها كالموات وإشغالها بالطاعات كالروح فالليلة المعمورة بالطاعة كالحي لكن لا بد من اعتبار تمحل يظهر وجهه من قوله فويل لك آه.

(**بتكرار العلم**)؛ أي: بمطالعة كتب العلم، فقوله (**ومطالعة الكتب**) عطف تفسير (**وحرمت على نفسك النوم**)؛ لقوة السعي والمجاهدة فيه (**لا أعلم ماكان الباعث فيه**)؛ أي: في تكرار العلم (**إن كان نيتك غرض الدنيا وجذب**)؛ أي: جر (**حطامها**)؛ أي: فوائدها ومنافعها (**وتحصيل مناصبها والمباهات**)؛ أي: التفاخر والتعلي (**على الإقران والأمثال فويل**)؛ أي: الحسرة العظيمة والندامة المديدة؛ بل العقوبة الشديدة (**لك**) مختص لك لأنك لا تنال بمجاهدتك هذه شيئا معتدا به؛ بل تنال عذابا وعقوبة لفك العلم عن موضوع له الأصلي وجعلته آلة ووسيلة إلى المعاصي وهو موضوع ليكون آلة لذخر الآخرة ونيل الدرجات العليا (**ثم ويل لك**) تأكيد للإنذار على زنة ﴿كَلا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ:٤-٥] وفي اتيان لفظ ثم إشارة إلى أن الثاني أبلغ من الأول لعل الأول ما في الدنيا والثاني ما في الآخرة أو الأول لأصل مطالعة الكتب والثاني لتكراره أو الأول لجذب حطام الدنيا والثاني للمباهات على الأقران.

=

يفعل المنفق والشهيد – لقد أرادوا بفعلهم الشهرة والرياء – ظفروا بحمد الناس وأخطأهم رضا الله عنهم وقبوله عملهم لأنه لم يكن خالصا لوجهه الكريم.

(١) انظر: المدهش ٣٧٦/١، والكشكول ١٣٦/٢.

(وإن كان قصدك فيه)؛ أي: في تكرار العلم والاتعاب فيه **(إحياء شريعة النبي[١] عليه السلام)** بالتدريس والتعليم وبالعظة والتذكير والافتاء بل بالقضاء بالأغراض الحميدة إلى أن ترقى إلى رتبة الوراثة النبوية كما في « جامع الصغير » عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: « العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة ».

(وتهذيب أخلاقك)؛ أي: تطهير أخلاقك[٢] من الرذائل الدنية والملكات الردية الذميمة وذلك بالتخلق بالأخلاق الحميدة.

---

(١) إنه – جزاه الله خيراً- يعلمنا نيات طلب العلم أو إحياء الليل في طلب العلم.. إذ علينا أولا أن ننوي إحياء شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. أما كيف يتم إحياء تلك الشريعة فبإحياء كل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فعندما أتناول مسألة أنوي بها إحياء سنة رسول الله أكون نائباً لرسول الله في هداية الأمة مما يقربني إلى حضرة رسول الله وإلى ذاته الشريفة..

(٢) والنية الثانية: هي أن ننوي بها تهذيب أخلاقنا.. وبخاصة أخلاقيات القلوب وأخلاقيات التعامل مع الحق سبحانه وتعالى.. وأخلاقيات التعامل مع الحبيب صلى الله عليه وسلم وأخلاقيات التعامل مع الناس..

نقص تلك الأخلاقيات سبب رئيس لحجاب يقوم بين العبد وربه أو بين قارئ القرآن وبين فهمه أو فهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لابد أن أدقق النظر فيما أنا فيه.. أبحث عما ينقصني وأنظر في العلة التي تخيم في قلبي.. وأبحث عن طبيب ذي خبرة وتجربة (سلك الطريق ثم عاد ليخبر القوم بما استفاد) ألزمه وأتبع مشورته ونصحه وإن كان فيها ما يؤلم.. لأن أنفع الدواء المرّ.. ولا تدع للشيطان ثغرة بينك وبينه.. فإنه سيحرص على أن يوقع بينكما.. اتخذه مرآة لك تصقل عليها طباعك وتحكم تصرفاتك فقد تكون غارقاً في مرض عضال وأنت لا تدري.. إن قال لك: (أنت مريض) فتقبل ذلك منه واطلب العلاج بسرعة خشية أن يسبقك الأجل ويختطفك الموت فتلقى الله بقلب مريض فلا ينفعك مال ولا بنون ولا قلب.

يقولون: (إن نصف العلاج بيد المريض) فإن كانت معنويات المريض عالية وهمته سامية.. يؤمن بأن الشفاء من عند الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ويؤمن بأن طبيبه ماهر مدرّب مجرّب مجاز من جامعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزميل لكلية أطباء القلوب تأتيه منها آخر الأبحاث والتجارب ويتواصل معه أساطين ذلك العلم المتوارث شيخاً عن شيخ إلى رسول الله صلوات

(**وكسر النفس**[١] **الأمارة**)؛ أي: إذا خلى على حالها وطبعها أن تأمر صاحبها (**بالسوء فطوبى**)؛ أي: العاقبة الحميدة والفوز الأبدي والسعادة السرمدية مختص (**لـك ثم**

=

الله عليه وعلى آله. إذا رسخ لديه هذا الاعتقاد فإن شفاءه سهل لأنه جمع علماً إلى تجربة.. أما إذا لم يكن مؤمناً بطبيبه فأنصحه أن لا يعذب نفسه.. فالإنسان يعطى على قدر ما يطلب والطبيب لن يجدي علمه شيئاً مادام مريضه غير مقتنع به.

(١) والنية الثالثة أن يبقى في حالة تواضع وفقر علمي يسأل الله تعالى أن يزيد في علمه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ومتابعة التفكير في الأمور يورث الرويّة والحكمة الاتقان.

الإمام الشافعي رحمه الله يعتبر من شيوخ الإمام أحمد بن حنبل.. هذا الأستاذ زار تلميذه مرة فأصرّ التلميذ على استضافة شيخه وأمر ابنته أن تعد لهما عشاء ففعلت.. ثم ذهبت لتنظر إلى الإمام الشافعي وهو يأكل تريد أن تتعلم منه أيضاً.. فرأت الإمام يأكل بنهم وإفراط وهو أمرٌ مستهجن من مسلم عادي فما بالك من مثل الإمام الشافعي.. ثم رأته يتكئ بعد العشاء ويخلد إلى النوم على حين قام أبوها إلى قيام الليل.. حتى انبلج الصباح.. فذكرت لأبيها ما رأت من الإمام الشافعي فأذن لها أن تسأل الإمام الشافعي عن ذلك.. فسألته بأدب: لقد رأيت منك عجباً يا سيدي الإمام.. تبسّم الإمام لها وقال: ما رأيت يا بنية؟ قالت: رأيتك تأكل فتفرط ورسول الله ما شبع من طعام قط.. ثم إنك بعد الطعام اتكأت ثم نمت.. ما قمت من ليل ولا في سحر.. أعجب الإمام بفطنة الفتاة وأجابها: يا بنية.. لقد علمت أن أباك لا يدخل إلى بيته إلا الحلال الطيب.. ولقد أحببت أن أكثر من أكل الحلال لأستعين به على طاعة الله.. أما ما رأيت من اضطجاعي ونومي فلقد كنت أفكر في مسألة أخدم بها المسلمين حتى طلع الفجر.. تلك المسألة كانت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخي انس بن مالك حين وجده يبكي لأن عصفوره طار من يده مخلفاً ساقه في يد الصغير.. فجعل الصغير ينظر إلى الساق مرة وإلى السماء مرة ثم يبكي.. فاقترب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترضيه وهو يضحك قائلا: (يا أبا عمير ما فعل النغير؟) حتى هدأ الطفل وابتسم..

اهتدى الشافعي رحمه الله بهذه القصة إلى سبعين مسألة فقهية كان منها أنه يجوز مناداة الصغير بكنية (أبا عمير) (ذا الأذنين) وهي كنية أنس بن مالك رضي الله عنه ومنها أنه يجوز مشاركة الطفل في أفراحه وأحزانه ولو كانت ساذجة بسيطة لأن ما نراه ساذجاً بسيطاً يكون عند الطفل بالغ الأهمية.. ومنها أنه يستحب جبر خاطر الطفل واسترضاؤه حتى يسكت وأن نتنزل إلى مستواه في التفكير.. ولقد

طوبى لك) يعني: أعلى من الأولى فالأول في الدنيا والثاني في الآخرة أو الأول لإحياء الشريعة.

والثاني لتهذيب الأخلاق؛ يعني: أحدهما: لتكميل نفسه، والآخر: لإكمال غيره أو الأول: نعم الجنان، والثاني: لقاء الرحمن، أو الأول: دخول الجنة، والثاني: دخوله بلا حساب، أو الأول: خلاص نفسه، والثاني: تخليص الغير بالشفاعة؛ إذ للعلماء العاملين حظ عظيم في مقام شفاعة الشافعين إذ ليس للإحسان جزاء إلا الإحسان، ثم استشهد لذلك شعرا، وقال: (**وقد صدق من قال: سهر العيون**)؛ أي: اليقظان (**لغير وجهك**) لغير تحصيل رضائك (**ضائع**) بل خاسر (**وبكاؤهن**)؛ أي: العيون (**لغير فقدك**)؛ أي: لغير طريقك أو شريعتك أو لأجل غير فقد لقائك (**باطل**) لا صحة له ولا نفع؛ بل البكاء النافع ما يكون لفقده تعالى فتحصيل العلوم في غير رضائه تعالى كما في غرض الدنيا ضائع؛ يعني: افناء عمر وتضييع وقت ليس له فائدة كتعذيب الحيوان وكل (**كدو زحمة**) في تكريره وجمعه: هباء، ووزر، ووبال؛ إذ له الويل لكونه من علماء السوء كما قال عليه السلام: « **وَيْلٌ لأمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ** »[1] وروي: « **ويل للجاهل مرة، وللعالم مرتين**»، وفسر الويل في حديث جامع الصغير من قوله عليه السلام: « **وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ**

=

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من ترضّى طفلا حتى يرضى ترضاه الله تعالى يوم القيامة حتى يرضيه..

لقد أحيا الشافعي ليلته تلك يُعمل الفكر في حادثة وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستنبط منها أحكاماً وعلماً وفهماً وسلوكاً وأخلاقاً.. وحري بنا أن نحاول اعمال الفكر في هذه الحادثة أيضاً لعلنا نهتدي إلى أمور ونستنبط معرفة وعلماً..

هكذا يرتقي أولو العلم درجات ويقطعون المسافات ليصلوا إلى مرضاة ربهم سبحانه ويكسرون نفسهم الأمارة بالسوء.. فطوبى لهم وحسن مآب..

(١) أخرجه الديلمى (٣٩٨/٤، رقم ٧١٥٤).

يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ »[١]، وفيه أيضا عن كعب بن مالك: «من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه.. أدخله الله تعالى النار»[٢].

وإنما زيد عقوباتهم لأنهم يزيدون للجهلاء جهلا وفجورا وتقسي قلوب المؤمنين ولذا قيل إذا عز عالم عز عالم وإذا ذل عالم ذل عالم، وإما فضائل العلماء الصالح فمما لا يحيطها البيان؛ بل يعجز عنها الأقلام ويتحيرن عند بحار فضائله الإفهام.

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٢٠/٥، رقم ٣١٦٤) وقال: غريب. وأبو يعلى (٥٢٣/٢، رقم ١٣٨٣)، وابن حبان (٥٠٨/١٦، رقم ٧٤٦٧)، والحاكم (٦٣٩/٤، رقم ٨٧٦٤) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: ابن المبارك (٩٦/١، رقم ٣٣٤)، والديلمى (٤٠١/٤، رقم ٧١٦٤).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٢/٥، رقم ٢٦٥٤) وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسحاق بن يحيى ليس بذاك القوى عندهم تكلم فيه من قبل حفظه. وأخرجه أيضًا: ابن أبى الدنيا فى الصمت (ص ١٠٦، رقم ١٤١)، والطبرانى (١٠٠/١٩، رقم ١٩٩).

النصيحة السابعة

عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ

• أيها الولد..!!

عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِق، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ (١).

(**أيها الولد**: **عش ما شئت**) أمر من العيش؛ بمعنى: الحياة، لعله أمر تهديدي، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ففيه تخويف عن طلب الحياة؛ لأنها ليست بحقيقية؛ بل استعارة ومجازية؛ لأنها تزول سريعة، وتنعدم قريبًا؛ لأن الكل بصدد الموت وفي عداد الموتى كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠]، ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت دون اسم الفاعل، وبما ذكر عرفت معنى قوله: (**فإنك ميت**)؛ يعني: أي: زمان كثير، ووقت مديد طويل رجوت فيه الحياة، ووصلت إليه مع أنه وهمي فأنت من الموتى، ومن كان من الموتى يقنع بما يكتفى به للميت بدون ادخار شيء، ولا يميل إلى جذب الدنيا، ولا يضيع عمره الذي لم يعط له شيء أعز منه في حطامها كالذي يحصل العلم بمباهاتها وأغراضها، كما قال بعضهم: كل من عليها فان، وآخر لباس الإنسان الأكفان، فاعتبروا يا أولي الألباب. واسلكوا سبيل الحكمة والصواب. ولا تركنوا إلى الدنيا؛ فإن الخلود فيها محال. والاعتماد عليها ضلال. سلابة للنعم. أكالة للأمم. لذتها قليلة

---

(١) عن سهل بن محمد رضي الله عنهما قال: جاء جبريل الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقال:" يا محمد: عِشْ ما شئتَ فإنك مَيِّت وأحببْ من شئت فإنك مُفَارِقُه واعمل ما شئتَ فإنك مُجْزَى به واعلم أن شرفَ المؤمن قيامُه بالليل وعِزُّه استغناؤه عن الناس ".

أخرجه الحاكم (٣٦٠/٤، رقم ٧٩٢١)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٩/٧، رقم ١٠٥٤١)، والخطيب (١٠/٤)، وابن عساكر (٢١٦/٢٣)، وابن الجوزي في الموضوعات (٤٠٧/٢ رقم ٩٨٢). وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في الحلية (٢٥٣/٣).

وحسرتها طويلة. أين قياصرة القصور. أين هرامسة الدهور. أين شداد الذي رفع العماد. أين تبع وعاد؟! أين الآباء والأجداد. لو بقي سكانها ما خربت مساكنها.

وفي نصائح بعض الحكماء: (كل القوت، والزم السكوت، وعلل النفوس بأنها تموت، وذكرها بين يدي الحي الذي لا يموت).

وقال بعضهم: ولا تعمر مكان لست فيه، فرب الدار ليس له مكان فأصبح أمكنهم غرورا، وجمعهم تبورا، ومساكنهم قبورا، فأين من ضاق بهم القصر وراق لهم العصر.

قيل: كتب على قبر أبي حنيفة رحمه الله تعالى:

يا واقفا بقبري متفكرا بأمري بالأمس كنت مثلك غدا تصير مثلي

وروي أن داود عليه السلام رأي في غار حجرا على رأس قبر مكتوب فيه: ملكت ألف سنة، وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وفضضت ألف بكر، ثم صرت إلى ما ترى من سكان الثرى[1].

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

(واحبب ما شئت) من النساء، والأولاد، والأموال، والمناصب، والمراتب، أمر تهديدي، وافن عمرك في هويها، وافد الباقيات الصالحات التي تبقى ثمراتها أبد الآباد وتوصل أصحابها إلى رفع الدرجات في الجنات العاليات متعلق بأفد الذي - هو أمر من الفداء - عوائق الجسمانية، وكدورات عوائق الهيولانية.

(فإنك مفارق) عن كلها؛ لأن يد الإنسان في الكل يد أمانة وعارية لا ملك له أو المعنى: إن شئت أحببت متاع الدنيا، وإن شئت أحببت ذخر الآخرة؛ فإنك مفارق عن متاع الدنيا، وينتقل ما جمعت إلى الغير، وتبقى بحسابه؛ بل بعذابه صفر اليد فتكون أسير الغير، ومن يحب الآخرة يختار ما يبقى على ما يفني هذا، على نظير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] الآيات في الكهف.

---

(١) انظر: المستطرف ٢/١٠٠.

كما قال بعضهم: ما أكل الإنسان فقد أفناه، وما لبسه فقد أبلاه، وما علمه وعمله فقد أبقاه. وإن الدنيا أقبالها منوطة بأدبارها، ورأيت التوجه إلى الله تعالى حتمًا مقضيا، وفراق الأحبة وعدًا مأتيا، وإن الدنيا دار محنة ومشقة وفراق. والآخرة دار سرور ولقاء وتلاق؛ فطوبى لمن كان يومه يوم التلاق. وويل لمن كان يومه يوم الفراق. وإن الدنيا دار بلا ء وفناء وعبور لا دار بقاء ودوام وسرور، أولها: ضعف وفتور، وآخرها: موت وقبور.

(واعمل ما شئت) من اتباع الهوى والاشتغال بحظ النفس، أو اتباع سيد المرسلين، وتكميل سنته، وإحياء شريعته.

قال بعض فيما كتبه إلى بعض أصحابه: الهمم ثلاثة: همة أبناء الدنيا دنياهم، وهمة أهل الآخرة أخراهم، وخديم الدنيا أسير، وخديم الآخرة أجير، وخديم الحق أمير.

نسأل الله أن يعصمنا عن هفوة الشكوك، والميل في غيره في كل أمر وساعة، ولا لنا سوى الله في الخلق عن بديل والله على ما نقول وكيل.

(فإنك مجزى به) إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فمن شاء فليعمل الصالحات وليصل إلى الجنات العاليات، ومن شاء فليعمل السيئات وليصل إلى نيران الدركات.

obeikandl.com

النصيحة الثامنة

تحصيل العلم

• أيها الولد..!!

أي شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام والخلاف والطب والدواوين والأشعار والنجوم والعروض والنحو والتصريف: غير تضييع العمر بخلاف ذي الجلال.

إني رأيت في «الإنجيل»: [أن] عيسى عليه السلام قال: من ساعة ما يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالا؛ أوّلها: يقول: « عبدي؛ طهّرت منظر الخلق سنين وما طهّرت منظري ساعة»، وكل يوم ينظر في قلبك يقول الله تعالى: « ما تصنع لغيري وأنت محفوف بخيري!! أما أنت أصمّ لا تسمع؟!! ».

[وفي هذا المعنى شعرًا[(١)]: [البسيط]

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَم تَسْلُك مَسَالكها ... إنّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِي عَلَى اليَبس

مال نفسك ترضى أن تدنسها ... وثوب نفسك مَغسولٌ من الدَّنَسِ]

(**أيها الولد**) ثم أراد أن يبين العلوم التي لا نفع في تحصيلها فقال: (**فأي شيء حاصل لك**) الظاهر أن الاستفهام إنكاري؛ أي: لا يحصل لك نفع (**من تحصيل علم الكلام**) فإن قيل كون الكلام ممنوعًا وإن كان موافقا لما في نحو الدرر من الشافعي رحمه الله أنه قال: لأن يلقى الله تعالى عبد بأكبر الكبائر خير من أن يلقاه بعلم الكلام فإذا كان حال الكلام

---

(١) من شعر أبي العتاهية، وهو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم، ولد ونشأ بالكوفة سنة ١٣٠هـ، وكان شعره سهل اللفظ كثير المعاني قليل التكلف وأكثر شعره في الزهد والأمثال، توفى سنة ٢١١هـ.

ورواية البيت الثاني:

ما بالُ دينكَ تَرْضَى أن تُدَنِّسَهُ ... وثوبُك الدهر مَغسولٌ من الدَّنَسِ

انظر: روضة العقلاء و نزهة الفضلاء (١/ ١٠٧)، وزهر الآداب وثمر الألباب (١/ ٣٤٣)، والعقد الفريد (١/ ٢٩٨).

في زمانهم هكذا فما ظنك بالكلام المخلوط بهذيانات الفلاسفة المغمورة بأباطيلهم المزخرفة، انتهى.

ولما في غيره من منع أبي حنيفة وكذا أبي يوسف رحمهما الله تعالى؛ لكنه مخالف لما في نحو التاتارخانية والبزازية، واختاره في الطريقة المحمدية من أنه واجب على الكفايه بل المص نفسه أشار إلى جوازه في المنقذ من الضلال، قلنا: المنع محمول على وراء الحاجة أو على أنه لتخجيل الخصم وتغليطه كما في البزازية أو للخلط بالفلسفيات كما فيه أيضا وأشير في الدرر بل نقل عن الإحياء كونه من فروض الكفاية إن خصص بما هو مقاصد الكلامية مع أدلتها وما هو مجمع بين أهل السنة وأما مبادئه فمن استقصاء الكلام كما نقل عن المص وأما الفروق بين الأشاعرة والماتريدية، فقيل: من المندوبات.

(**والخلاف**) هذا إما علم يعرف به تفاصيل خلاف المتكلمين أو الفقهاء أو علم الميزان أو علم المناظرة.

الأولى: يعني مجادلة الفرق الضالة؛ بل الفلاسفة ممنوعة في نفسها والاشتغال بردهم ليس بمفيد لأنهم لا يلزمون بذلك لمجبولية طباعهم على التعنت فلا يفيد شيئًا سوى تشهير مذاهبهم كما نقل عن بعض السلف؛ لكن نقل عن المص أن ذلك فرض عند الخوف من الزيغ في عقائد أهل السنة.

وأما خلاف الفقهاء فلعله من المندوبات لما في الفتاوي النظر في كتب أصحابنا خير من قيام الليل وإن كان بلا سماع ومن قراءة القرآن بل من صلاة التسبيح التي هي أفضل النوافل؛ لأن كل مجتهد متساو في الصواب أو الخطأ في نفسه.

وأما علم الميزان فأشار إليه المص في المنقذ أنه في نفسه جائز بل لازم وإنما الآفة بإهماله في العلوم الدينية فالمنع من المنطق مبني على نحو هذا، وقد قال على القاري في شرح حديث الأربعين عن السيوطى أنه يحرم علوم الفلاسفة كالمنطق بإجماع السلف وأكثر المعتبرين كابن الصلاح والنووى وجمعت في تحريمه كتابا نقلت فيه نصوص الأئمة والغزالى رجع إلى تحريمه بعد ثناء عليه في أول الملتقى وجزم السلفي عن أصحابنا وابن الرشيد من المالكية بإن المشتغل به لا يقبل روايته؛ انتهى. لكن السيوطى في الاتقان صحح أن القران

مشتمل على الحجج المنطقية والقواعد الجدلية؛ لكن على طريق الإشارة لا الصراحة لعدم شهرة ذلك عند نزول القران الذي نزل على لسانهم فالمنع والتحريم ليس على إطلاقه.

وأما علم المناظرة فلعله عند عدم الحاجة والضرورة وإلا فنقل عن المص جواز الاشتغال بمجادلات الفرق عند مس الحاجة كيف وهو جزء من علم الأصول وهو مما يحتاج إليه على الإطلاق كالفقه.

وقال البزازي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] إشارة إلى مناظرة إبراهيم عليه السلام ودل كونه من حجج الله مضيفا إلى نفسه على قدر شرفه.

(والطب) قال في التاتارخانية أنه فروض الكفاية والتعمق فيه ليس بواجب بل فيه زيادة قدرة على الكفاية وعن الشافعي في بعض شروح السراجية العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان وإن حكم بوضعه عند كونه حديثا كما في الخلاصة.

وقد قال بعضهم: أن الطب فرض كفاية عند الغزالي ويستحب عند الجمهور، فالمنع هنا ليس مما يعول عليه على إطلاقه إلا أن يحمل أن الاشتغال بالمفضول عند إمكان الأفضل من قبيل ما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين وإن مثله من الكفاية عند إقامة الغير مما يعد من تضييع العمر ولهذا لم يشتهر عمله من علماء الدين مع حرصهم على درك الفضائل.

(والدواوين) جمع ديوان.

(والأشعار) لعلهما متحدان، وإن فهم التغاير عن كلام بعض.

(والنجوم) قال في التاتارخانية: وأما علم الشعر والنيرنجات والطلسمات ونحوها فهي غير محمودة، روي عنه عليه السلام في حق أبيات العرب علم لا ينفع وجهل لا يضر، وعد في الأشباه أشعار المولدين من الغزل والبطالة من المكروه والأشعار مثل ما ذكر فيها الوطن والفراق التي لا سخف فيها من المباح والتنجيم من الحرام كالفلسفة وفي بعض الرسائل عن الأشباه عد الأشعار التي تنبئ عن سخافة العقل كالتي تتعلق بعشق النساء من الحرام؛ لكن عن القشيري في التي قصد بها التمثيلات كما في بعض السالكين بجوازها وفي قاضيخان في

التي ذكر فيها الفسق كالخمر والغلام بالكراهة، وعلل بأنه من الفواحش وعن بعض الكتب إن كان بطريق الاستدلال كاستدلال الطبيب بالنبض بقضائه تعالى فجائز وإن لا بقضائه تعالى أو بدعوى علم الغيب فكفر.

(**والعروض**) لعل حاله مثل حال الشعر بل أشنع.

(**والنحو والتصريف**) لعل المراد منهما بل من الكل الإفراط في الاشتغال على وجه يعطل الأهم من العلوم والعبادات وراء الحاجات وإلا فلكون القرآن عربيا يتوقف الوقوف على معانيه عليهما فكيف يتصور المنع من علم يتوقف عليه القرآن والحديث.

قال ابن الحجر في «شرح الأربعين»: وجب كون المنطق علما شرعيا إذ هو ما صدر من الشارع أو توقف عليه الصادر من الشارع توقف وجود كعلم الكلام أو توقف كمال كعلم النحو والمنطق انتهى وبالجملة أن المنع في أكثر هذه العلوم كترك العزيمة والقناعة بالرخصة والمتصوفة جعلوا الرخص كالحرام بلا ضرورة والاعتصام بالعزائم كالفروض والواجبات فافهم ذلك.

وفي « شرح الحصن » لعلي القاري، قال الشبلي[1] حين قيل له: لِمَ لم تفتح باب الإفادة لينتفع أصحاب الاستفادة؟ فقال: والذي نفسي بيده؛ لحضور قلبي في استغراق نور ربي خير من علوم الأولين والآخرين وهذا المعنى هو زبدة كلام الأنبياء والمرسلين وباقي الأحكام والأمور إنما هي من العوارض في سير السالكين فاقصد المقصد الأقصى، والمسند الأعلي والمقام الأسنى والحالة الحسنى الموجبة للزيادة في الدنيا والعقبى، انتهى. وذلك عندهم بعلم تصفية الباطن المشار في الحديث بعلم المكاشفة (غير تضييع العمر) فيما لا يعتد به أصلا أو كمالا كما عرفت تفصيله.

---

(١) أبو بكر الشبلي: هو دلف بن جحدر الشبلي أبو بكر، (٢٤٧ــ٣٣٤ هـ) بغدادي المولد والمنشأ، وأصلة أسروشنه من بلاد ما وراء النهر، صحب الجنيد ومن في عصره، وتوفي ببغداد.

قال محمد بن الحسين أبو عبد الرحمن السلمي، أحد كبار الصوفية ومؤلفيهم: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الشبلي يقول: كنت أنا والحسين بن منصور الحلاج، شيئاً واحداً، إلا أنه أظهر وكتمتُ. وقد روى عن الشبلي من وجه آخر أنه قال وقد رأى الحلاج مصلوباً: ألم أنهك عن العالمين.

انظر: البداية والنهاية: ١١ــ١٣٢، وسير أعلام النبلاء: ١٤ــ٣٣١، وشذرات الذهب: ٢ــ٢٥٦.

(**بجلال ذي الجلال**) القسم إما لصدق الرغبة في جواب القسم أو لأمارة الإنكار لعدم التعارف من نحو الإنجيل، أو ما يقال أنه لا يسأل ولا يعاقب الميت ولا يعاقب من حين قبض الروح إلى أن يدفن كما في بعض الكتب (**إني رأيت في الإنجيل**) يشكل بمنع النظر للكتب السابقة كما في حديث عمر رضى الله تعالى عنه، وقرر في الأصول: أن شريعة من قبلنا شريعة لنا؛ لكن إذا قصها الله أو أخبر بها الرسول لعدم الأمن فيما في أيديهم من الكتب؛ لاحتمال التحريف؛ إلا أن يفرق بين ما يتعلق بالأحكام وغيره أو بمخالفة قواعد شريعتنا أو عدمها وادعى أن ذلك ليس بمخالف بقاعدة ولا بأثر قوي أو ضعيف فتأمل.

(**أن عيسى عليه السلام قال من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة**) بكسر الجيم الذي يحمل به الميت (**إلى أن يوضع إلى شفير القبر**) طرفه (**يسأل الله تعالى بعظمته منه**) الظاهر بلا واسطة ملك.

(**أربعين سؤالا؛ أوّله: ما يقول الله تعالى عبدي طهرت منظر الخلق سنين**)؛ أي: مدة عمرك بتزيين الجوارح سيما بالاشتغال بنحو العلوم السابقة ففائدة هذه النقل هي هذا يعني أن مثل تلك العلوم إنما هي لتطهير منظر الخلق وتطهير منظرهم مما يسأل عنه ابتداء سؤال مناقشة وعتاب.

(**وما طهرت منظري ساعة وكل يوم انظر الله في قلبك**) بل علمه محيط دائمًا أحوال قلوب كل أحد (**فيقول: يا عبدي ما تصنع بغيري**) الظاهر استفهام إنكار والياء سببية؛ يعني: لا تصنع لأجل غيري؛ بل ليكن عملك لأجلي لأنك مستغرق بنعمي وليس لك نعمة ولو حقيرة من غيري حتى يكون داعيا لعملك له ويشير إليه قوله: (**وأنت محفوف**) أي: محاط ومستغرق (**بخيري**) الظاهر جملة حالية في مقام التعليل كما أشير (**أما أنت أصم لا تسمع**) هذا القول أما من الإنجيل فكأنه تعالى يقول ألم تعلم ورود خيري عليك فلم لم تعمل على موجبه بل تعمل على خلافه من تطهير منظر الخلق أو ممن يخاطب (**طالبه المعهود**) ألم تسمع مثل هذه القصة فلم لم تعمل.

النصيحة التاسعة

العلم بلا عملٍ جنون

• أيها الولد..!!

العلم بلا عملٍ جنون، والعمل بغير علمٍ لا يكون.

واعلم أن العلم الذي لا يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة، لن يبعدك غدا عن نار جهنم، وإذا لم تعمل بعلمك اليوم، ولم تدارك الأيام الماضية تقول غدا يوم القيامة: فارجعنا نعمل صالحا، فيقال: يا أحمق؛ أنت من هناك تجيء[١].

(**أيها الولد**) فلما أوهم فيما سبق المنع عن العلم بالكلية فدفعه مع العناية إلى اهتمام العمل أيضا.

وقال: (**العلم بلا عمل جنون**) لأن العلم سوى الاعتقاديات ليس بمقصود في نفسه بل لأجل العمل فلولا العمل فلا فائد فيه فتحمل أعباء العلم وارتكاب مشاق تحصيله بلا عمل لا يصدر إلا ممن سلب عنه العقل إذ العقلاء لا يتجاسرون على محن ما لا ينفعهم.

(**والعمل بغير العلم لا يكون**) عملا أصلا أو معتدا به إذ أحكام العمل وتمييز أنواعها وبيان ماهيته وما يترتب عليه إنما هو بالعلم وقد قيل: أن الصوفى الجاهل مسخرة للشيطان كما في الفوائح المسكية أنه غلب على الشيخ عبد القادر الكيلانى العطش في برية، قال: فأضلنى سحابة ونزل علي منها شيء يشبه الندى فترويت به ثم رأيت نورًا أضاء به الأفق وبدت لى صورة ونوديت منها يا عبد القادر؛ أنا ربك قد حلت لك المحرمات، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اخنس يا لعين؛ فإذا انقلب ذلك النور ظلاما، والصورة دخانا، ثم خاطبني، وقال نجوت منى بعلمك حكم ربك وفقهك وقد أضللت بمثل هذه الوقعة سبعين من الصوفى الجاهل.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

(**واعلم أن كل علم**) أي مجرد عن العمل (**لا يبعدك اليوم عن المعاصى**)؛ يعني: أن العلم الذي لا يبعدك بمجرده عن المعاصى.

(**ولا يحملك**) اضطرارا (**على الطاعة**) في الدنيا كذلك (**لن يبعدك غدًا عن نار جهنم**) فلا تغتر بعلمك فإن العلم ليس بمستقل في هداية الطريق المستقيم بل لا بد من التقييد والاهتمام بعمل بموجبه بكسر النفس، وترك الهوى، وصرف الأوقات إلى دقائق وظائف الأعمال، وحقائق رواتب الطاعات في جميع الأحوال.

(**وإذا لم تعمل بعلمك**) اليوم (**ولم تدارك الأيام الماضية**) بالتوبة الصادقة والقضاء وأداء الحقوق واسترضاء الخصوم مع أن لكل وقت وظيفة فلو فات ففى أي وقت بتدارك بل للوقت الآخر وظيفة كذلك (**تقول غدًا يوم القيامة**) بيان لمعنى الغد على طريق التوضيح (**فارجعنا**) أي: أعدنا؛ لعل الفاء متعلق على ما ما ورد عليه من العقوبات أو آثارها أو جيء على طريق الاقتياس فلا يقصد تعلقه بما قبله هنا؛ بل المتعلق مطلوب في محله الأصلى.

(**نعمل صالحًا**) غير الذي كنا نعمل (**فيقال: يا أحمق**) القائل من الملائكة (**أنت من هناك جئت**) يعني: قد جئت من تلك الدنيا أو من أي محل تجيء. لقد صدق من قال يا من تقاعد عن مكارم خلقه ولبس التفاخر بعلوم الظاهرة من لم يهذب علمه أخلاقه لم ينتفع بعلومه في الآخرة.

obeikandi.com

النصيحة العاشرة

اجعل الهمة في الروح

• أيها الولد..!!

اجعل الهمة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن، لأن مترلك القبر، وأهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة متى تصل إليهم، إياك إياك؛ أن تصل إليهم بلا زاد!.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: هذه الأجساد قفص الطيور، أو إصطبل الدواب، فتفكّر في نفسك من أيهما أنت؟ إن كنت من الطيور العلوية، فحين تسمع طنين طبل: إرجعي إلى ربك، تطير صاعدًا إلى أن تقعد في أعالي بروح الجنان، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. رواه البخاري ومسلم(١).

والعياذ بالله إن كنت من الدواب كما قال تعالى ﴿أُولَئِكَ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار.

ورُوي: أن الحسن البصري رحمه الله تعالى أعطي شربة ماء بارد، فلما أخذ القدح غشي عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: مالك يا أبا سعيد؟ قال: (ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]).

(**أيها الولد**) لعل هذا إشارة إلى بيان طريق العمل وقدر الاجتهاد فيه.

---

(١) أخرجه البخارى (٣/١٣٨٤، رقم ٣٥٩٢)، ومسلم (٤/١٩١٥، رقم ٢٤٦٦)، وأخرجه أيضا: الترمذى (٥/٦٨٩، رقم ٣٨٤٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/٥٦، رقم ١٥٨)، وابن حبان (١٥/٥٠٤، رقم ٧٠٣١)، والحاكم (٣/٢٢٩، رقم ٤٩٢٨) وقال: صحيح الإسناد.

والمراد باهتزاز العرش فرحه بمقدمه.

obeikandl.com

(**اجعل الهمة في الروح**) لعل المعنى ليكن قصدك إلى تجلية الروح التي هي المقصود الأصلي للمتصوفة؛ إذ الوصول إلى المقامات بقطع العقبات وإلى المكاشفات والتجليات لا يكون إلا بها وتجلية الروح لا تحصل إلا بتصفية القلب وذا لا تحصل إلا بتزكية النفس وإليها يشير بقوله: (**والهزيمة في النفس**)؛ يعني: اجعل الكسر؛ أي: القهر والمخالفة في النفس، وهي قوة شهوية تتعلق بكل البدن على السوية وهي منشأ الصفات الذميمة واتصافها بالحميدة قال عليه السلام أعدي عدوك الحديث فإن لم تقهرها بل وافقتها وساعدت دواعيها فتجعلك خديما لنفسها وأسيرًا لها ومن كان كذا لا يخدم ولا يعبد مولاه؛ لأن من كان مسخرًا لعدو الله وخديما له لا يعبد الله تعالى.

(**والموت في البدن**) عد نفسك من الموتى واقنع بما يحصل به وطر الموتى أو اعمل للموت (**لأن مترلك القبر**) فعمر منزلك الذي هو ملك خلاف منازل الدنيا؛ لأنها عارية عندك فالعاقل لا يضيع عمره في تعمير ملك الغير دون تعمير ملكه.

(**وأهل المقابر ينتظرون إليك في كل لحظة متى تصل إليهم**) لعلهم يتبركون بجواريته وينتفعون بصحبته أو قربيته، ولذا عد من حقوق الميت دفنه قرب قبور الصالحين وقد جاء في الدعاء اللهم إنى أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول.

(**إياك وإياك**) تأكيد تحذير لزيادة اهتمام العمل الذي يسرهم وتركه يحزنهم.

(**أن تصل اليهم بلا زاد قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه**) لعل الغرض من النقل بيان فائدة العمل وتأييد منافع العمل من غرائب مناقبه رضى الله عنه في الفوائح عن رضوان السمان، أنه قال: كان لى جار فشتم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فتضاربنا بهما معه فانصرفت إلى منزلي مغموما حزينا فنمت تارك الصلوات من الغم فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكيت من سبه إليهما، فقال: خذ هذه الدنية فاذبحه فأخذتها واضجعته فذبحت فانتهيت وأنا أسمع الصراخ من داره، فقلت: انظروا ما هذا قالوا فلان مات فجاءة فلم كان الصباح نظرت إليه فإذا حط موضع الذبح.

(**هذه الأجساد**)؛ أي: أجساد الإنسان (**قفص الطيور**) أي: كقفص الطيور التي من شأنها أن ترتفع إلى جانب العلو؛ أي: عند خلاصه من القفص.

(**واصطبل الدواب**) جمع دابة؛ أي: من شأنها أنها لا تنتقل بطبعها من اصطبلها للعلف ولو انتقلت تنتقل إلى أخرى سفلى مثلها.

(**فتفكر في نفسك من أيهما**)؛ أي: من القفص والاصطبل (**أنت إن كنت من الطير العلوي**) إشارة إلى وجه الشبه وذلك إنما يكون بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، والدقة في الأعمال، والخوف والخشية في الباطن والظاهر (**فحين تسمع طنين**) صوت (**طبل ارجعي**) حين الانتقال من دار الفناء من ملائكة الرحمة وهو عند النزع، ويقولون: (**ألا تخافوا**) للانتقال إلى دار غربة ووحشة.

(**ولا تحزنوا**) لترك نحو الأولاد، والأحباء، والأموال وفراقهم ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧] بذكره تعالى وطاعته ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨] ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:٢٨] الآية.

(**تطير صاعدا إلى أن تقعد في أعالى بروج الجنان**)؛ يعني: حين يخرج روحه يطير إلى الجنة ويتقرر فيها وهذا معنى قوله: إلى أن تقعد في أعالى بروج الجنان.

(**كما قال عليه الصلاة والسلام: « اهتز عرش الرحمن من موت سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه »**). وقال شراح الحديث: إنما يهتز تنشيطًا وسرورًا؛ لقدوم روحه، إذ العرش موضع أرواح السعداء.

وقيل: المراد: حملته يهتزون إما لمسرتهم أو من ثقلة ثوابه.

وقيل: السرير الذي يوضع عليه الميت لثقلته بالثواب أيضا الكاف في قوله كما قال، بمعنى: المثل، فيعد العرش من الجنة بحكم المجاورة، كما قال عليه السلام: « **سقف الجنة عرش الرحمن** »[1].

(**والعياذ بالله إن كنت**) أي: نعوذ بالله العياذ فمفعول مطلق لفعل محذوف عطف على قوله إن كنت من الطير العلوي.

---

(١) أخرجه الديلمي من حديث أنس (٢/٣٣٨، رقم ٣٥٢٧).

(**من الدواب السفلى**) بإرسال النفس على هواها والميل إلى لذاتها كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ أي: كالدواب وجه الشبه على سوق المصنف يقتضي الانتقالية من مكان سفل إلى أسفل منه، والظاهر هو عدم الشعور والتأمل في عواقب الأمور وترك الاستدلال فيما يستدل عليه فافهم.

(﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾) في عدم الفهم والشعور (**فلا تأمن من انتقالك من زاوية الدار**)؛ أي: الدنيا.

(**إلى هاوية النار**) إما علم لجنس نار جهنم أو لطبقتها؛ يعني: إن كنت من الأشقياء يكون موتك سببا لدخول النار، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] وجاء في الخبر: فحين الموت يدخل الملائكة في عروقه ويعصرون روحه من قدميه إلى ركبتيه، ثم طائفة أخرى إلى البطن، ثم أخرى إلى الحلقوم فعند ذلك إن كان مؤمنا ينشر جبريل عليه السلام جناحه الأيمن وفيه صورة الجنة، وما فيها: من الحور، والقصور، والغلمان، فيرى مكانه في الجنة و لم ينظر إلى أبويه وأولاده فيخرج روحه لحبه.

وإن كان منافقًا ينشر جناحه الأيسر وفيه صورة النار وما فيها من العذاب: كالقطران، والحيات، والعقارب، فيرى مكانه في النار فلم يقدر إلى نظر أولاده وأبويه من فزع ذلك المكان.

(**روي أن الحسن البصري رحمة الله عليه أعطى له شربة ماء بارد فلما أخذ القدح غشي عليه**)؛ أي: زال عقله. (**وسقط**)، أي: القدح (**من يده فلما أفاق، قيل له: ما بالك يا أبا سعيد؟ قال: ذكرت**)؛ أي: أخطرت الظاهر من الذكر.

(**أمنية**)؛ أي: طلب (**أهل االنار حين يقولون لأهل الجنة أن أفيضوا**)؛ أي: صبوا (**علينا من الماء أو مما رزقكم الله من نعم الجنة**) ثم الغيان، أما للخوف؛ لأن يكون من أهل النار القائلين ذلك وأما للنشاط والسرور لنعم أهل الجنة وعلى التقديرين تحذير عن ترك العمل، وتحريض على فعله؛ لعل المقصود من قص هذه هو ذلك.

النصيحة الحادية عشر

لو كان العلم المجرّد كافيا لك

• أيها الولد..!!

لو كان العلم المجرّد كافيا لك، ولا تحتاج الى عملٍ سواه، لكان نداء الله تعالى: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ..؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ..؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ..؟ »[١] ضائعًا بلا فائدة.

ورُوي أن جماعة من الصحابة رضي الله عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عمر رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « نِعْمَ الرَّجُلُ هو لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ »[٢]. رواه البخاري ومسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام لرجل من أصحابه: « يا فلان؛ لا تكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة النوم بالليل يدع صاحبه فقيرًا يوم القيامة»[٣].

(**أيها الولد: إن كان**) لفظ إن؛ بمعنى: لو؛ بل الأولى أن يقال: لو كان (**العلم المجرد كافيا لك ولا تحتاج إلى عمل سواه**) الظاهر عموم العمل إلى الفضائل. وظاهر قوله: (**لكان نداء: هل من سائل**)؛ أي: نداء مناد من قبل الله تعالى وقت الثلث الأخير من الليل: هل من سائل؛ أي: داع فاستجيب له.

(**هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ..؟**) فاغفر له (**هَلْ مِنْ تَائِبٍ..؟**) فاقبل توبته (**ضائعا بلا فائدة**) يقتضي التخصيص بالفرائض والواجبات؛ إذ الاستغفار والتوبة إنما يكونان لمعصية، والمعصية لا يتصور في ترك الفضائل؛ إلا أن يفرق بين توبة الخواص واستغفارهم، وبين

---

(١) جزء من حديث قدسي أخرجه مسلم (١/٥٢٣، رقم ٧٥٨)، وأبو يعلى (٢/٤٠٠، رقم ١١٨٠)، وابن خزيمة (٢/١٨٢، رقم ١١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٣٦٧، رقم ٣٥٣٠)، ومسلم (٤/١٩٢٧، رقم ٢٤٧٩). وأخرجه أيضًا: الدارمى (٢/١٧١، رقم ٢١٥٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١/٤٢٢، رقم ١٣٣٢)، والبيهقي في الشعب (٤/١٨٣، رقم ٤٧٤٦). وقال المنذري في الترغيب والترهيب ١\٤٤٦. وفي إسناده احتمال للتحسين.

openkanon.com

العوام والإشكال بالعوام والكلام في الخواص؛ فإن قلت: العالم الغير العامل يجوز منه الاستغفار والسؤال، فكيف يصح الملازمة؟! قلت: الظاهر من الاستغفار، ونحوه هو الشمول بالأعمال؛ أي: بتركها وممتنع شرعا أن يستغفر على ترك عمل مع الإصرار على ذلك الترك وعدم القصد على إتيانه على أن مثل هذه الخطابيات المقصودة منها الترغيب على ما ينفعهم والترهيب عما يضرهم فلا يضر مثل تلك الشبه كالتحقيقيات فاعرفه، ثم بيان هذا المقام على نهج ما نبه في المرام مضمون حديث نقل عن غاية البيان عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلا فمثل هذه المطالب مما لا يمتنع إدراكه بالرأي بقي أنه إنما اختار في إثبات العمل باستغفار السحر وثوبته كما أشير وسيصرح فيما أتاه للتأييد إيذانا على مزية دعاء السحر وتوبته، وكذا جميع عبادته على سائر الأوقات كما يدل عليه جميع ما سيذكره من قوله: (**وروي أن جماعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما**) وهو من كبار فقهاء الأصحاب ومن العبادلة الثلاثة الظاهر ذكر علمه، وإلا فلا يحسن التأييد لما قبله (**عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: نعم الرجل هو؛ لو كان يصلي بالليل**) الظاهر هو نحو التهجد وتخصيصها لقوة شرفها؛ لأن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا.

وفي بعض التفاسير عن النبي صلى الله عليه وسلم: « **ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل الأخير؛ خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم** »[1].

وفي « جامع الصغير » بلفظ: يركعهما (ابن ادم) بدل (العبد) وفيه أيضا ركعتان في جوف الليل يكفران الخطايا، ثم الظاهر أنه لو كفى العلم المجرد لسكت عليه السلام عند

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/٤٥٦، رقم ١٢٨٩)، وابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال (٢/١٤٤، رقم ٥٥٩).

قال المناوى (٤/٣٩): أخرجه ابن نصر محمد المروزى فى كتاب قيام الليل وآدم بن أبى إياس فى الثواب عن حسان بن عطية مرسلا هو أبو بكر المحاربى، قال الذهبى: ثقة عابد نبيل لكنه قدرى، قال الحافظ العراقى: ووصله الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح.

مدح ابن عباس رضي الله عنهما و لم يسكت بل جعل المدح صلاة الليل وكان مدار المدح ليس مجرد عمل الصلاة بل انضمام الصلاة بعلمه رضي الله عنه كما في « جامع الصغير » ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من مجاهل بالله.

وفيه أيضا: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم.

(**وقال صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه: يا فلان؛ لا تكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة النوم بالليل يدع**)؛ أي: يترك؛ بمعنى: يجعل (**صاحبه فقيرًا يوم القيامة**) وفي طهارة القلوب وأعجب لمن يضيع سحره بالنوم كمن يبيع الثلج وقد بقى عنده شيء يذوب لسخافته، فينادى: ارحموا من يذوب رأس ماله، يا مضيعًا أوقاته بالكسل، كلما كان الفقير كسلانًا لا يجد الغناء، تبيع قيام الليل بزيادة لقمة وشربة كأس النوم ففاتك رفعة تتجافى جنوبهم، وخرج فرصة السحر ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف، والله لو بعت لحظة من لذة سحر بما يملك قارون في عُمْرِ نوح لكنت مغبونًا، انتهى.

النصيحة الثانية عشر

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾

• أيها الولد..!!

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء:٧٩] أمر؛ ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨] شكر؛ ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧] ذكر.

قال عليه الصلاة والسلام: « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت الذي يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار»[(١)].

وقال سفيان الثوري رحمة الله عليه: (إن الله تبارك تعالى خلق ريحا تهب بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار).

وقال أيضا[(٢)]: (إذا كان أول الليل ينادي مناد من تحت العرش: ألا ليقم العابدون، فيقومون ويصلون ما شاء الله، ثم ينادي مناد في شطر الله: ألا ليقم القانتون، فيقومون ويصلون إلى السحر، فإذا كان السحر ينادي مناد: ألا ليقم المستغفرون، فيقومون ويستغفرون، فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقم الغافلون، فيقومون من فرشهم كالموتى نشروا من قبورهم).

(أيها الولد: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء:٧٩] أمر) من الله لكافة عباده وموجب الأمر هو الوجوب وقد علله الله تعالى بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، فهناك كلام لا يتحمله المقام **(وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ شكر)**؛ أي: مدح الله تعالى وثناءه لمستغفري السحر ومن السعادة العلية، كان الله مادحه إذ لا يعذب الله من مدحه **(والمستغفرين بالأسحار ذكر)**.

---

(١) أخرجه الديلمى عن أم سعد بنت زيد بن ثابت (١٠١/٢، رقم ٢٥٣٨).

(٢) رواه محمد بن نصر المروزي في مختصر قيام الليل باب الاستغفار بالأسحار والصلاة فيها (١٠٧/١).

obeikandl.com

مصداقه ذكر؛ لأن كل شيء مذكر له تعالى فهو ذكر فالاستغفار إلى الله ليس إلا ذكر الله أو المعنى ذكر من الله إياهم؛ يعني: المستغفرين ولن يخيب من يذكره الله فالحاصل مما ذكر أن صلاة التهجد مأمور وقد أثنى الله المستغفرين بالأسحار وذكرهم فالعاقل لا يفوت مثل تلك الفرصة ولا يتركه ثم أيد فضيلة الاستغفار فيها بحديث، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **ثلاث أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك** » ولذا يستجاب الدعوة عند صيحته كما في الحديث الصحيح « **وصوت الرجل الذي يقرأ القرآن** » وفضلها مما لا يخفى؛ لأنه كالمكالمة والصحبة مع الله تعالى « **وصوت المستغفرين بالأسحار**» لعل وجه كونه محبوبًا؛ لأنه وقت يفرغ فيه القلب عن الأشغال الدنياوية ويتوجه إلى عالم القلوب القدس بالتفرغ عن وساوس الشيطان وأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار.

(**قال سفيان الثوري رحمه الله: أن الله تعالى خلق ريحا تهب – من الهبوب – وقت الأسحار تحمل الأذكار كلها والاستغفار إلى الملك –؛ أي: إلى قبول الملك ورضائه – والجليل الجبار**).

وقال سفيان أيضا: (**إذا كان أول الليل ينادي مناد وهو من الملائكة من تحت العرش ألا ليقم – مضارع بفتح اللام أو أمر فاللام بكسر تأمل – العابدون فيقومون ويصلون ما شاء الله**)؛ يعني: إلى الصباح ولا يثقل عليهم؛ بل يحصل من قيامهم لذة وراحة أشد من لذة أهل اللهو في لهوهم. وقد قال بعضهم: لو وجد مثل نعيم الجنة في الدنيا لكان حلاوة أهل المناجاة في الليالي ولهذا قال ابن بكار: أنه قال منذ أربعين سنة: ما يحزنني إلا طلوع الفجر، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران، الآية ٢٦] المراد: قيام الليل، ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورًا وتهاونًا لقلة الاعتبار؛ فليبك عليه لقطعه طريق الخير الكثير كل ذلك من عوارف المعارف.

(**ثم ينادي مناد في شطر الليل**) الظاهر نصفه (**ألا ليقم القانتون**) لعل المعنى: المواظبون على الطاعة.

(**فيقومون ويصلون إلى السحر فإذا كان السحر نادى مناد: ألا ليقم المستغفرون فيقومون ويستغفرون**) والسحر أفضل كما قال عليه السلام على ما في « جامع الصغير»: « **أَفْضَلُ السَّاعاتِ جَوْفُ اللَّيْلِ الأخِيرِ** »[١].

ثم علم أن تفصيل إحياء الليل على ما فصل المص في «الإحياء» على سبع مراتب فلنذكر على وجه الايجاز:

الأولى: إحياء كل الليل، هذا شأن الذين تجردوا للعبادة، وتلذذوا بالمناجات إلى أن صار غذاء لهم وحياة، وهم ردوا المنام إلى النهار في وقت اشتغال الناس بأمور الدنيا وهذا طريق جماعة من السلف يصلون الصبح بوضوء العشاء.

الثانية: قيام نصف الليل، وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول والسدس الأخير فيقع قيامه في جوف الليل وهو الأفضل وفي « العوارف » قال تعالى: يا داود؛ قم وسط الليل، حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع إلي حوائجك.

الثالثة: أن يقوم ثلث الليل بنوم النصف الأول والسدس الأخير؛ إذ نوم آخر الليل مستحب؛ لأنه يذهب النعاس، ويقلل صفرة الوجه، قالت عائشة رضى الله عنها وعن أبويها: « **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أوتر من آخر الليل؛ فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة**»[٢]، وكان نوم هذا الوقت سبب المكاشفة والمشاهدة من وراء الحجب الغيب وذلك لأرباب

---

(١) أخرجه أحمد (١١١/٤، رقم ١٧٠٥٩)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٠/٢، رقم ٨٦٣).
ومن غريب الحديث: "الساعات": ساعات التهجد. "جوف الليل": ثلثه الآخر.

(٢) أخرج مسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها (٥١٠/١، رقم ٧٣٩): " كان ينام أول الليل ويحيي آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام ". وقال النسائي في السنن الكبرى (٤٣٧/١، رقم ١٣٨٩): " فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشة فإذا كان له حاجة ألم بأهله". ولأبي داود (٢١/٢، رقم ١٢٦٢): " كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مستيقظة حدثني وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة ".

القلوب وفيها استراحة يعين على الورد الأول من أوراد النهار، وقيام ثلث الليل من النصف الأخير، ونوم السدس الأخير قيام داود عليه السلام.

الرابعة: قيام سدس الليل أو خمسه وأفضل ذلك كونه في النصف الأخير.

الخامسة: عدم التقدير؛ إذ هو إنما يتيسر: إما لنبي يُوحى إليه، أو لمن يعرف منازل القمر أو يوكل عليه من يوقظه فيقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم عاد إليه فيكون له نومتان وقومتان، وذلك مكابدة الليل، وأشد الأعمال، وأفضلها، وهذا من أخلاق سيد المرسلين وطريقة أولي العزم من الصحابة والتابعين.

السادسة: قيام مقدار أربع ركعات، أو ركعتين، أو يتوضأ فيجلس نحو القبلة ساعة مشتغلا بالذكر والدعاء فُيكتب من جملة قوام الليل، وقد جاء في الأثر: (صل من الليل ولو قدر حلب شاة) انتهى.

وسبب الفتور وعدم القيام هو الذنوب، فليحذر العبد ذنوبًا تقيده في ليله.

وقال الثوري: حرمت سبعة أشهر بذنب أذنبته، فقيل له: ما كان؟ قال: رأيت رجلا باكيا، فقلت في نفسي: هذا مراء، ثم التهجد ما يكون بعد النوم، وقيل: بين النومتين، فما قبل النوم: قيام الليل فقط.

وفي « رسالة تاج الدين النقشبندي »: يصلي في التهجد اثنى عشرة ركعة في كل ركعة سورة يس تماما، وإن لم يقدر ففي ثمان ركعة في الأولى إلى: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١]، وفي الثانية إلى: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس:٢١]، وفي الثالثة إلى: ﴿جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وفي الرابعة: إلى ﴿فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وفي الخامسة إلى: ﴿وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾، وفي السادسة إلى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، وفي السابعة إلى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾، وفي الثامنة إلى آخره، وفيما بقى من الأربعة في كل ركعة سورة الإخلاص ثلاثًا ثلاثًا، وإن لم يكن (يس) في حفظه ففي الكل: (الإخلاص) وإنما خصص (يس)؛ لأنه أن إذا اتفقت ثلاثة قلوب على المطلوب حصل ألبتة قلب القرآن؛ أي: (يس)، وقلب الليل، و قلب العبد؛ أي: خلوصه، وذلك في التهجد.

(**فإذا طلع الفجر ينادى مناد: ألا ليقم الغافلون**) لغفلتهم وذهولهم عن مثل هذه الفرصة (**فيقومون من فروشهم**) من الفراش (**كالموتى نشروا في قبورهم**) فإن الحي لا يفوت إحياء الليل، والفوت: إنما يصدر من الميت فهم والموتى سواء.

obeikandl.com

النصيحة الثالثة عشر

رُؤي في وصايا لقمان الحكيم

• أيها الولد..!!

رُؤي[١] في وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال: (يا بني؛ لا يكوننّ الديك أكيس منك! ينادي بالأسحار وأنت نائم).

ولقد أحسن من قال شعرا[٢]: [الطويل]

لقد هَتَفَتْ في جُنْحِ لَيْلٍ حَمَامَةٌ على فننٍ وهنًا، وإني لنائم
كَذبْتُ، وبَيْتِ الله لو كُنْتُ عَاشقًا لَمَا سَبَقَتْنِي بالْبُكَاءِ الْحَمَائِمُ
وأزعم أني هائم ذو صبابة لربي، فلا أبكي وتبكي البهائم!

(**أيها الولد**) يريد أن يؤيد إحياء الليالي ولزومه بوصية بعض الأنبياء وشعر بعض الحكماء.

(**رؤي في وصايا لقمان**) وهو الذي اختلف في نبوته ومن وصاياه لابنه: يا بني؛ لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في إرب، ولا تسأل عما لا يعنيك، ولا تضيع مالك، ولا تصلح مال غيرك؛ فإن مالك ما قدمت، ومال غيرك ما خلفت، يا بني؛ ارحم العلماء بركبتيك، ولا تجادل بهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون على أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهواتك، ولا تصم صوما يضر صلواتك؛ فإن الصلاة أفضل من الصوم.

(**الحكيم**) ليس المراد به ما يتداول بين العامة للعالم الفلسفية الذين يحرفون الكلم عن مواضعه؛ بل هو عالم حكمة؛ بمعنى: استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية

---

(١) قال صبري شارح أيها الولد: بالبناء للمفعول من الرؤية لا من الرواية كما قيل، ويدل عليه استعماله بنفي لا بعين. [مخطوط أيها الأخ]

(٢) اختلف في قائل هذا البيت، فقيل: لمجنون ليلى ويوجد في ديوانه (١٠٣/١)، وقيل: لنصيب الأكبر مولى بني مرَوانَ كما في ديوان الحماسة (٩٧/٢).

واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها كما في تفسير البيضاوي فتوصيفه بالحكمة للتلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:١٢] وفائدة التلميح إشارة إلى ما ذكر هنا من الحكمة التي آتاه الله تعالى فيكون تأكيدا للاحتجاج، وترويجا بما قال **(لابنه)** إشارة إلى أن هذه الوصية من الوصايا الازمة التي يوصى بها إلى الابن.

(أنه قال: يا بني) وفائدة النداء: استكمال التوجه واتمام الإصغاء ليتدبر الوصية ويسرع في قبولها.

(لا تكونن) التأكيد بالنون لأهمية الأمر ولزوم الاعتناء به.

(الديك أكيس) من الكياسة كالذكاء.

(منك، ينادى) بالأسحار للتسبيح والذكر، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، يسبح لله ما في السموات والأرض. قال في « تفسير العيون » عن عكرمة: يسبح الشجر، والأسطونة لا تسبح، والشجرة والنبات المقطوعة تسبح ما دامت رطبة، وتسبيحها: سبحان الله العظيم، وبحمده.

وقيل: أن الثوب يسبح، ما دام جديدًا وإذا وسخ ترك التسبيح، والتراب يسبح إلى أن يبل، والماء يسبح ما دام جاريا؛ فإذا ركد ترك التسبيح، وكل حيوان يسبح ما دام يصوت فإذا سكت ترك التسبيح، انتهى.

(وأنت نائم، ولقد أحسن من قال شعرا: لقد هتفت – أي: صاحت – في جنح الليل – أي: ظلمته، وسواده – حمامه – جمع: حمام – على فنن – بالتحريك – شعاب وغصن).

(وهنا) قال في « القاموس » الوهن؛ نحو: من نصف الليل أو بعد ساعة منه؛ فالمعنى: صاحت الحمائم في ظلمة على أغصان في نصف الليل مع أنها ليست بمكلفة، ولا يترتب على صيحتهم ثواب أخروي، ولا بتركها وزر؛ بل صيحتهم لمجرد ما اقتضاه حال العبودية.

obeikandi.com

(**وإني لنائم.. كذبت**) فيما ادعيت من عشق الله تعالى وعبادته، ومحبته، وطلب رضائه، وثوابه.

(**وبيت الله**) الظاهر ورب بيت الله إذًا لقسم بغير الله ليس بجائز.

(**لو كنت عاشقا**) يعني: لو لم أكن كاذبا في دعوى العشق لكنت عاشقًا، ولو كنت عاشقا (**لما سبقتني بالبكاء الحمائم**) فاعل سبقتني؛ يعني: وقد سبقتني نصيحتهم عند نومتي وغفلتي في سواد الليل.

(**وازعم**)؛ أي: اعتقد. واعلم (**أني هائم**)؛ أي: متحير، مسلوب العقل.

(**ذو صبابه**)؛ أي: ذو عشق؛ يعني: اعلم أني عاشق مجنون؛ لأن العاشق العاقل والصادق في عشقه لا يغفل عن ذكر مولاه وطلب رضاه وقد سبقتني الحمائم التي ليس لهن تكليف إلهي ولم ينزل في ذكرهم كتاب رباني ولم يرسل نبي رحماني، وقد كان كل ذلك لي (**لربي**) اللام إما متعلق بهائم أو لصبابة ولو لم يكن ممانعة من الواو لكان تعلقه بقوله: (**ولا أبكي**) أجود ولو فتح اللام وجعل توطئة القسم بنحو من التأويل لم يكن بعيدا غاية البعد.

(**وتبكي البهائم**) إما ببكاء حقيقي أو مجازي وهو الظاهر إذ الأول إنما يعلم ببيان من صاحب الشريعة.

openkandil.com

النصيحة الرابعة عشر

في خلاصة العلم

• أيها الولد..!!

خلاصة العلم: أن تعلم أن الطاعة والعبادة ما هي؟

اعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني: كل ما تقول وتفعل وتترك قوله وفعله يكون باقتداء الشرع، كما لو صمت في يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيًا، أو صليت في ثوب مغصوب – وإن كانت صورة عبادة – تأثم.

(**أيها الولد: خلاصة العلم**)؛ أي: نتيجته وثمرته مقدار.

(**أن تعلم الطاعة والعبادة ما هي**)؛ أي: قدر أن تعلم ماهيتهما وحقيقتهما؛ يعني: يكفي تحصيل هذا المقدار من العلم فلا حاجة إلى تحصيل ما فوق ذلك بالتبحر، وتفاصيل الأدلة؛ بل اللازم بعد ذلك قصر النظر، وصرف المقدور، وبذل الوسع وحقائق الطاعة، ودقائق أسرار العبادة؛ إذ العلم في ذاته ليس بمقصود بل إنما قصد ذلك لأجل الطاعة فإذا حصل قدر ما يعلم أحوال الطاعة فلا حاجة إلى الزيادة ففيه إشارة إلى اختيار جانب العمل وإن كان عند البعض ترجيح جانب العمل، ثم بين ماهية الطاعة والعبادة بقوله: (**اعلم أن الطاعة والعبادة**)؛ أي: المقبولة (**إنما هي متابعة الشرع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل؛ يعني: كل ما تقول وتفعل وتترك**) قوله المص، (**قولا وفعلا**) لم نحم حول صحته فلعل الأولى عدم إتيانه (**يكون باقتداء الشرع**) فلو لم يؤخذ من الشرع لا يقبل بل يكون عصيانا وإن كان في صورة عبادة (**كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيا**) لترك إجابة دعوة إلى ضيافته تعالى كما في الأصولية والفروعية (**أو صليت في ثوب مغصوب وإن كان صورته عبادة**) الظاهر قيد لهما (**لكن يأثم به**) الإثم: إنما يكون بترك الواجب أو بفعل المحرم والصلاة مع المغصوب ليست بمحرمة؛ بل مكروهة، وليست في

obeikandl.com

الكراهية معصية وإثم بل عتاب، واستحقاق حرمان شفاعة؛ إلا أن يقال ذلك محرم عند المص أو يدعى الإثم في الكراهة التحريمية أو الإثم أعم فيشمل نحو العتاب.

obeikandl.com

النصيحة الخامسة عشر

موافقة الشرع

• أيها الولد..!!

ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع؛ إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغي لك ألا تغترّ بشطح الصوفية وطاماتهم[١]؛ لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامات والترهات[٢].

واعلم أن اللسان المطلق والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة علامة الشقاوة، حتى لا تقتل النفس بصدق المجاهدة لن تحيي قلبك بأنوار المعرفة.

واعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول، إن تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي؟! وإلا فعلمها من المستحيلات؛ لأنها ذوقية، وكل ما يكون ذوقيا لا يستقيم وصفه بالقول، كحلاوة الحلو ومرارة المر، لا تعرف إلا بالذوق، كما حكي أن عنّينًا[٣] كتب إلى صاحب له: أن عرّفني لذة المجامعة كيف تكون؟

فكتب له في جوابه: يا فلان؛ إني كنت حسبتك عنّينًا فقط، والآن عرفت أنك عنّين وأحمق؛ لأن هذه اللذة ذوقية، إن تصل إليها تعرف، وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتابة.

(**أيها الولد**) إذا كانت العبادة والطاعة متابعة الشرع قولا وفعلا (**فينبغي لك**) أي: يجب عليك (**أن يكون قولك وفعلك**) في جميع أو ضاعك وأحوالك (**موافقا للشرع**) للكتاب والسنة والإجماع والقياس.

---

(١) أي: رياضة النفس ومجاهدتها.

(٢) أي: الأباطيل.

(٣) عنّينا: لا يستطيع إتيان النساء.

(**إذ العلم**) الظاهر في تعليل ما سبق أن يكتفي بقوله: (**والعمل**) إلا أن العمل لكونه على نهج العلم أردفه به (**بلا اقتداء الشرع**) بل بلا اقتداء ما هو أصح وأولى إلى أن يلتزم الاحتياط في جميع الأمور بترك نحو ما يقال في حقه لا بأس، وبالجملة بترك العزيمة، وارتكاب الرخص الشرعية بلا ضرورة (**ضلال**) عند خواص الصوفية؛ إذ الرخصة بلا ضرورة كالحرام عندهم فلا يركنون إليها بلا ضرورة (**فينبغي لك أن لا تغتر**) من الاغترار أو الغرور (**بشطح وطامات**) جمع: طامة؛ بمعنى: البلية والغلو لعل المراد من طامات (**الصوفية**) أقاويلهم المتجاوزة عن الشرع وما أحدثوا من تلقاء أنفسهم بلا أخذ من صاحب شريعة (**لأن السلوك بهذا الطريق**)؛ أي: طريق الشرع أو طريق المتصوف المتشرع (**يكون بالمجاهدة**)؛ أي: بجهاد النفس ومحاربتها؛ إذ هذا الجهاد: الجهاد الأعظم، كما ورد في الحديث: إذ الجهاد مع الكفار يسير لظهور حيلها واندفاعهم بمدة واحدة، وكونهم مرئيين محسوسين يسهل الخلاص من سهامهم ورماحهم بخلاف النفس.

وقوله: (**وقطع شهوة النفس**) كعطف العلة على المعلول، وطريق القطع إنما يكون بمنع جميع (**ميولاتها**) عنها وقهرها والمخالفة في جميع شئونها في العبادات والعاديات إلى مرتبة قوله صلى الله عليه وسلم نفسك مطيتك فارفق بها.

ومن لطائف هذا المقام ما وقع لبعض الفقراء في عالم المثال وهو أنه عند مجاهدته النفس كأنه في المدينة في قبة العباس رضى الله تعالى عنه فإذا قال له قائل لي معك دعوى ويطلبك الحاكم فدفعه بأني لا أترك الآن لذة مجلس هذه الحضرات رضوان الله تعالى عليهم فلنرفع بعد الغد فرجع الجائي ثم خطر بباله الحاكم في هذه البلدة ليس إلا النبي عليه السلام فادرك من خلف الجائي وسأله، فقال: نعم.

فقال: على الرأس والعين فذهب معه بآداب وخضوع فوقف وراء الشبكة في الروضة المطهرة فإذا ذلك الجائي هو نفس ذلك الفقير فادعت وشكت له صلى الله عليه وسلم؛ نحو: أن قال هذا رجل مؤذ ومضر لا يزول عن إذائي كلما حصلت راحة بأنواع التعب والمشقات فيزيل عني من ساعتها و لم أجد بدا وسلامة من أذيته، فقال له صلى الله عليه وسلم: هل الأمر مثل ما قالت؟ قال: بل اللائق بالشكاية ليس إلا أنا؛ لأن الله تعالى أمرني

بالطاعة، وأني أصرف غاية وسعي، ونهاية جدي في طاعته، وهذه تصرف غاية طاقتها، ونهاية جدها على إظهار الموانع وإيقاع حب العلائق وحيل التفرقة في القلوب فكلما دفعتها بمشقات وحيل، فتنزل من الفور والساعة وقصدها دائما إلى إهلاكي وايقاعي إلى معصية الله تعالى، وهي تتحد وتوافق مع الشيطان فيقطعان طريقي إلى الله وإليك يا رسول الله فنبه إياها إلا تفعل مثلها، فقال صلى الله عليه وسلم: هل الأمر كذلك فقالت ليس لي سهام ولا جبر وإنما حالي وسوسة فإن كان صادق في دعوى الاستقامة والمحبة، فكيف تؤثر حيلتي وسعايتي، فقال له صلى الله عليه وسلم: يا ولدي؛ ويا حبيبي؛ كن متصلّيا في رعاية حدود الله، والتزم سنتي واجتهد على التقى والورع والتزم على خلاف ما أوجبه النفس وأترك هويها وكن حافظا إلى جميع قواعد شريعتي إن كنت صادقا في دعوى حبي ولا تنفك ساعة عن رضاي؛ فان المحب لن يقرب إلى ما كره إليه المحبوب.

(**وقتل هويها**)؛ أي: هوى النفس.

(**بسيف الرياضة**)؛ أي: الرياضة التي كالسيف فمن قبيل لجين الماء؛ أي: إضافة المشبه به إلى المشبه والرياضة في الأصل تقليل الأكل والشرب؛ لأن المعدة ينبوع الشهوات إذ منها تنبعث شهوة الفرج، ثم إذا غلبت تنبعث شهوة المال، ثم إذا غلبت تنبعث شهوة الجاه، ثم بالجاه والمال تزاحم الآفات كلها كالكبر والرياء والحسد والعداوة فلذا عظم رسول الله عليه السلام أمر الجوع، فقال: « **ما من عمل أحب إلى الله تعالى من الجوع والعطش**»[(١)].

وقال: « **لا يدْخل ملكوت السَّمَوَات من مَلأ بَطْنه** »[(٢)].

وقال: « **سيد الأعمال: الجوع** »[(٣)].

---

(١) انظر: الإحياء (٣/٨٠)، وقال العراقي في تخريج الإحياء: (لم أجد له أصلا)، وكذلك قال ابن السبكي في طبقات الشافعية (٤ /٦٢).

(٢) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (٥/٢٩٧، رقم ٢٢٨٩)، والإحياء (٣/٨٠)، وقال العراقي: لم أجده.

(٣) انظر: الإحياء (٣/٨٠).

وقال: « **قلة الطعام: هي العبادة** »[١].

وقال: « **أفضلكم عِنْد الله: أطولكم جوعا وتفكرا وأبغضكم إلى الله أكول نئوم شروب** »[٢].

وقال: « **إن الشَّيْطَان ليجري من ابْن آدم مجْرى الدَّم فضيقوا مجاريه بِالْجُوعِ والعطش**»[٣].

وقال لعائشة رضي الله عنها وعن أبويها: « **أديموا قرع باب الجنة تفتح لكم، قالت: وكيف ذلك، قال: بالجوع والظمأ** »[٤].

(**لا بالطامات والتراهات الصوفية**)؛ أي: الكلمات التي لا أصل لها في الشرع بل اخترعتها هوى أنفسهم.

(**واعلم أن اللسان المطلق**)؛ أي: رسل وأطلق على حاله بلا كف عن المحظورات الدينية (**والقلب المطبق**)؛ أي: المستور بالغطاء (**المملوء بالغفلة**) كعطف تفسير له (**والشهوة**)؛ أي: هوى النفس (**علامة الشقاوة ودليلها حتى لا تقتل**) لعل الظاهر أن لم تقتل النفس (**بصدق المجاهدة**)؛ أي: بالمجاهدة الصادقة مع النفس الأمارة شأنها الميل إلى الطبيعة البدنية والأمر باللذات والشهوات الحسية سائقة للقلب إلى الجهة السفلية فهي

---

(١) انظر: الإحياء (٣/٨٠).

(٢) انظر: الإحياء (٣/٨١).

(٣) مُتَّفق عَلَيْهِ من حَدِيث صَفِيَّة دون قَوْله «فضيقوا مجاريه بِالْجُوعِ والعطش»، وهو في الإحياء (٣/٨٢).

أخرجه البخارى (٣/١١٩٥، رقم ٣١٠٧)، ومسلم (٤/١٧١٢، رقم ٢١٧٥)، وأبو داود (٢/٣٣٣، رقم ٢٤٧٠)، وابن ماجه (١/٥٦٦، رقم ١٧٧٩). وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (١/٢٥٨، رقم ٨)، وعبد بن حميد (ص ٤٤٩، رقم ١٥٥٦)، وأبو يعلى (١٣/٣٨، رقم ٧١٢١)، والطبرانى (٢٤/٧١، رقم ١٨٩).

(٤) انظر: الإحياء (١/٢٣٢).

مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة (**لن تحيى**) أنت قلبك (**بأنوار المعرفة**) لله تعالى النور عندهم ما يكشف به المستور عن العلوم اللدنية والواردات الإلهية.

(**واعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها**) لعل ذلك كلذة الوصال وأسرار التجليات والمكاشفات التي لا يمكن التعبير ويمتنع التصوير والتمثيل بل يجد جنس ذلك عند الإظهار الحاد في الشرع (**لا يستقيم جوابها بالكتابة**) أي: بالمكتوب (**والقول**) أي: باللسان لما ذكر من الاستحالة.

(**بل أن تبلغ**) الظاهر أن شرطية.

(**تلك الحالة**) الظاهر إنارة القلب بالمعرفة.

(**تعرف ما هي**)؛ أي: ماهية تلك المسائل.

(**وإلا**)؛ أي: وإن لم تبلغ أنت تلك الحالات، فلا يمكن بالكتابة والقول فإن (**تعلمها**) بدون البلوغ إليها (**من المستحيلات**) أي: الممتنعات (**لأنها**) أي: ذلك البعض من المسائل (**ذوقي**) أي: وجداني لا طريق لها غير الوجدان (**وكل ما يكون ذوقيا لا يستقيم وصفه بالقول والكتاب**) إذا أريد الوصف لا يمكن انطباقة إياها لعدم إحاطة العبادة إياها (كحلاوة الحلو) كالسكر والعسل (**ومرارة المر**) كالخل والخمر (**لا يعرف إلا بالذوق**) لعدم ما يدل عليهما (**كما حكي أن عنينا**) من لايقدر على الجماع (**كتب إلى صاحبه**) حبيبه (**عرفني**) مفعول كتب (**لذة الجماع كيف تكون**) أي: لذة المجامعة (**فكتب**) أي: الصاحب (**في جوابه: يا فلان؛ إني كنت إلى الآن حسبتك عنينا فقط**) يعني: كنت عارفًا عنتك فقط (**والآن عرفت أنك عنين وأحمق**) يعني: لست بعنين فقط بل عنين وأحمق؛ (**لأن هذه اللذة**) الجماعية (**ذوقية**) معرفتها مختصة بالذوق (**أن تصل**) أي: إذا وصلت إليها (**تعرف**) أي: عرفت عند الوصلة (**وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتاب**).

وهذه تنظير المعقول بالمحسوس؛ يعني: مريد تحصيل تلك اللذات يسعى بقوة في تحصيل أسبابها بكسر النفس، وقهرها، وصدق المجاهدة معها، ولا يبعد أن يراد من العنين من لا يعرف لذة المعرفة والوصلة، ومن لذة المجامعة لذة الوصلة إليه تعالى، فافهم.

النصيحة السادسة عشر

بعض مسائلك من هذا القبيل

• أيها الولد..!!

بعض مسائلك من هذا القبيل، وأما البعض الذي يستقيم له الجواب فقد ذكرناه في «إحياء العلوم» وغيره، ونذكر ههنا نبذًا منه ونشير إليه فنقول:

قد وجب على السالك أربعة أمور:

أول الأمر: اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة.

والثاني: توبة نصوح لا يرجع بعده إلى الزلة.

والثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق.

والرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله تعالى. ثم من العلوم الأخرى ما يكون به النجاة.

حُكي أن الشبلي –رحمه الله– خدم أربعمائة أستاذ، وقال: قرأت أربعة آلاف حديث، ثم اخترت منها حديثا واحدًا، وعملت به، وخليت ما سواه؛ لأني تأملته فوجدت خلاصي ونجاتي فيه، وكان علم الأولين، والآخرين كله مندرجًا فيه فاكتفيت به، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه: « اعْمَلْ لِدُنْيَاك بِقَدْرِ مَقَامِك فِيهَا، وَاعْمَلْ لآخِرَتِك بِقَدْرِ بَقَائِك فِيهَا، وَاعْمَلْ لِلَّهِ بِقَدْرِ حَاجَتِك إلَيْهِ، وَاعْمَلْ لِلنَّارِ بِقَدْرِ صَبْرِك عَلَيْهَا »[1].

---

(١) القصة في البريقة المحمودية ٤/٢٨٣.

وأخرجه البيهقي (٣/١٩، رقم ٤٥٢١) بلفظ:" اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدا، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدا".

والديلمى كما فى المداوى للغمارى (٢/٢٣، رقم ٥٩٣). قال المناوى (٢/١٢): فيه مجهول وضعيف.

(**أيها الولد: بعض مسائلك من هذا القبيل**) أي: الذي لا يستقيم الجواب عنها؛ لكونها من الوجدانيات والذوقيات.

(**وأما البعض الذي يستقيم الجواب له**) لعل المراد غير ما ذكر سابقًا لئلا يلزم كون ما سبق مما لا يسئل إذ كل ما في الرسالة جواب لمسائله (**فقد ذكرنا**) تفاصيله (**في إحياء العلوم وغيره، ونذكر هاهنا نبذا منه**) أي: شيئًا قليلا مما يستقيم الجواب؛ إذ الرسالة لا تتحمل الكل لكثرته والظاهر من ذلك جميع ما سيذكر فتأمل (**ونشير إليه**) أي: نبين إجمالا وإيجازا (**فنقول: قد وجب على السالك أربعة أمور أول الأمر**) أي: الذي يستقيم جوابه؛ يعني: ذلك أمور متعددة.

(**الأول: اعتقاد صحيح**) وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة (**ولا يكون فيه بدعة**) كاعتقاد الفرق الضالة المشار إليه في قوله عليه السلام: « **ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة** »[(١)]. وكاعتقاد غلاة الصوفية في بعض الأمور.

(**والثاني: توبة نصوح**) لعل قوله: (**لا ترجع بعده إلى الزلة**) إشارة إلى تفسير النصوح، وقوله إلى الذلة إشارة إلى أنه شرط في التوبة الندم على جميع الذنوب وعلى الزلة التي هي أدنى الصغيرة، ثم التوبة على قسمين: توبة الخواص، هي عن الأفكار الدنياوية، ووساوسها، وعن العمل بالرخص عند إمكان العمل بالعزائم، وتوبة أخص الخواص، هي الرجوع عن اشتغال القلب بغير ذكر الله فلو خطر بالقلب ولو لحظة غير الله تعالى تابوا من ساعته كمرتكب كبيرة فهم يستغرقون بمطالعة الله تعالى وهذه مقام الأنبياء وأخص الأولياء وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم: « **إنه لَيُغَانُ على قلبي فاستغفر الله سبعين مرة** »[(٢)].

والثاني: توبة العوام فهي الرجوع عن جميع المعاصي كبيرة أو صغيرة حق الله تعالى، أو حق العبد، وتفصيل ذلك على وجه الإجمال الذنوب التي يراد التوبة، أما حق الله أو حق

---

(١) أخرجه الطبراني (٨/٢٧٤، رقم ٨٠٥٤)، وابن أبي عاصم (١/٣٤، رقم ٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٧٥، رقم ٢٧٠٢)، وأبو داود (٢/٨٤، رقم ١٥١٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص ١٤٤، رقم ٤٤٦)، وابن حبان (٣/٢١١، رقم ٩٣١)، والبغوي (١/١٢٤، رقم ٨٩)، والطبراني (١/٣٠٢، رقم ٨٨٧).

العبد، فالأول: فتوبته أما بالقضاء فقضاء الصلاة أن معلومة عدد الفوائت فيها وإلا فبغلبة الظن من زمان البلوغ كم فاتته صلوات، والأيسر في النية: أول فجر على أول ظهر، أو يقال: آخر ظهر أو آخر فجر مثلا والأحوط أن يقضي الصلوات التي أديت بالكراهة كترك تعديل الأركان؛ لكن بعد قضاء الفائتة المقطوعة ولا يغتر على الوصية بإسقاط الصلاة؛ إذ لم يثبت ذلك بواحد من الأدلة الشرعية بل بناء ذلك على مجرد حسن ظن بالله تعالى فليس بمقطوع؛ بل ليس بمظنون قطعي؛ بل أمر احتياطي وكذا فوائت الزكاة، وصدقة الفطر، والنذور، والضحايا يقضيها أيضا، وكذا يقضي فوائت الصوم إما بلا كفارتها أو معها وإن استطاع إلى الحج يأتي به؛ وإما نحو: الزنى، واللواطة، والكذب، وشرب الخمر فتوبتها ندامة صادقة وعزم على أن لا يعود أبدا ولو عند فرصة.

وأما الثاني؛ أي: حق العبد إما مالي كالسرقة والغصب والأكل بلا إذن. والإتلاف: إما باليد، أو بشهادة الزور، أو بالسعي إلى ظالم وإن صدر أمثال ذلك في زمان الصباوة إذ الصبي مأخوذ بالغرامات المالية فتوبة ذلك الاستحلال والاسترضاء وإن لم يوجد صاحب الحق؛ فإن مات فالاستحلال بالورثة إن كان والأسواء لم يكن له وارث أو لم يعلم المالك فيعطيه أو قيمته إن هالكا إلى الفقراء بنية أن يكون وديعة عند الله يوصل إلى صاحبه يوم القيامة، وإما غير مالي فهو أيضا: إما بدني كالضرب والاستخدام بلا رضاء أو قلبي، كالشتم، والغمز، والاستهزاء فكلاهما الاستحلال، وإن لم يكن فيتضرع إلى الله تعالى ويدعوا ويتصدق به لمن له الحق فيرجي من الله ارضاؤه والاستحلال المهم مختلف فيه لعل الأصح أن عين نفس الحق وأعلم صاحب الحق هل يرضى أولا أما حق الحيوان ضربا أو تحميلا فوق طاقته أو منع علفه فمشكل جدا كحق الكافر.

(**الثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق**) قد عرفت آنفا تفصيله، فالمقابلة ككمال العناية والاهتمام بشأنه؛ إذ حق العبد أصعب من حق الله تعالى بإضعاف مضاعفة ولهذا قال في « تذكرة القرطي »: يقال: لو أن رجل له ثواب سبعين نبيا وله خصم بنصف دانق لم يدخل الجنة حتى يرضى خصمه قبل يؤخذ بدانق قسط سبع مائة صلاة مقبولة وتعطى للخصم.

ذكر القشيري: وفيه أيضا عن المص ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضي عليك يوم ولا ليلة إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك، فكيف ببقية السيئات عن أكل الحرام والشبهات؟!، وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتضي فيه الجماء من القرناء؟! فكيف بك يا مسكين يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات كانت فيها تعبك فتقول: أين حسناتي؟ فيقال لك: نقلت إلى صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك، فتقول: يا رب؛ هذه سيئات ما قربتها قط، فيقال: هذه سيات الذين اغتبتهم، وشتمتهم، وقصدتهم بالسوء، وظلمتهم في المعاملات، والمبايعات، والمحاورات، والمخاطبة، وغيرها.

(**والرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله تعالى**) وكذا قدر ما نعرض به عن نواهيه تعالى؛ إذ قد سبق أن العمل لا يكون بلا علم بل الشيطان يصر زيادة إصرار على العابد سيما الجاهل كما حكى في الفوائح أن جماعة هربوا من عبد الواحد لقوة تكليفه إياهم بالمجاهدة، فرأى أحدهم بعد مرة، فقال: أين كنت؟ فقال: نحن كل ليلة ندخل الجنة، ونأكل من نعيمها، فقال: خذوني الليلة معكم فأخرجوه معهم إلى الفضاء فلما جن الليل إذا يقوم عليهم ثياب خضر، وإذا بساتين وفواكه، فلما أرادوا أن يتفرقوا، قال لهم: أين تذهبون؟ أليس الجنة دار خلود كإدريس عليه السلام؟! فلما أصبحوا إذا هم على مزبلة بين روث الدواب فتابوا كلهم.

وفيه أيضا عن الديلمي: أن واحدا من السالكين أنه رأي في برية طريق مصر الشيطان على عرش بين السماء والأرض فسجد له فظن أنه الرب تعالى، ثم حكاه بجماعة من المشايخ، فقالوا: هو الشيطان؛ لحديث: « **إن للشيطان عرشا بين السماء والأرض** » الحديث. فالرجل أعاد صلاته وجدد إيمانه، ثم عاد إلى المكان الذي رآه فيه ولعنه وأنكر عليه.

وفي بعض النسخ (**فالزيادة على هذا ليس بواجب**)؛ أي: ليس بواجب عين بالمعنى الأعم إذ قد يكون فرض كفاية، وقد يكون فرض كفاية، وقد يكون مندوبًا، قال في

الأشباه: تعلم العلم قد يكون فرض عين بقدر ما يحتاج إليه لدينه، وفرض كفاية وهو ما زاد عليه لنفع غيره، ومندوبا وهو بالتبحر في الفقه وعلم القلب قوله: (**ثم من العلوم الآخر ما يكون منه النجاة**) مشكل إذ لا يتصور النجاة بغير العلم الشرعي إلا أن يخص الشرعي بالفرعي ويراد من الآخر؛ نحو: علم القلب والتصوف أو يراد ما يرخص من النجوم؛ نحو: ما يعين على معرفة أوقات الصلاة والقبلة والمنطق قدر الحاجة والعربية على نحو ما فصل سابقا.

(**حكي عن الشبلي رحمه الله تعالى أنه خدم أربع مائة أستاذ**) نقل عن ابن الكمال أن لفظ أستاذ: لفظ مركب أعجمي، وأصله: أست، واذ.

وأست بالفارسية هو: الكتاب، واذ بالذال المعجمة؛ بمعنى: الصاحب، كأنه قال صاحب الكتاب.

(**وقد قرأت أربعة آلاف حديث ثم اخترت منها حديثا واحدا عملت به وخليت ما سواه**)؛ أي: تركته الظاهر ترك حفظ ما سواه إذ ترك المعنى ليس بمتصور لكونه مصداقا لذلك الواحد وأنه كيف يتصور ترك حديث النبي صلى الله عليه وسلم؟! فمعنى قوله: (**لأني تأملت فوجدت نجاتي وخلاصي فيه**)؛ أي: في ذلك الواحد لكون الكل مندرجا في ذلك الواحد كما يدل عليه قوله: (**وكان علم الأولين والآخرين كله**) تأكيد معنوي للعلم الظاهر من الأولين الأمم الخالية والشرائع السابقة ومن الآخرين علماء هذه الأمة سلفا وخلفا.

(**مندرجا فيه فاكتفيت به وذلك**)؛ أي: الحديث الواحد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه: «**اعمل لدنياك** » من تحصيل الأموال واكتساب الأملاك بأنواع التجارات « **بقدر بقائك فيها** » بالنسبة إلى بقاء الآخرة كما يشهده المقابلة والمتناهي عند غير المتناهي يكاد أن يكون ملحقا بالعدم وقدر في بعض الأحاديث بوثبة أرنب.

وفي الحديث: « **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وعُدَّ نَفْسَكَ من أهل القبور**»[(١)]، فالعاقل لا يعمل للدنيا إلا قدر ما يدفع ضرورته وحاجته من نفقة نفسه وعياله فإن زاد يتصدق على أحوج الفقراء؛ سيما الصلحاء منهم، ولهذا قال عليه السلام: « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء** »[(٢)].

وروي عنه عليه السلام: « **أن في صحف موسى: عجبت لمن أيقن بالموت، ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن رأى وعلم فناء الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها** »[(٣)].

وفي « أطواق الذهب »: (ولا تمدن عينيك إلى زخارفها، ولا تبسط يدك إلى مخارفها).

وفيه أيضا: (فلا تطمع في الدوام، وأبصر الأقوام، هل ينالون في الدنيا دولا ولا يبغون عنها حولا).

وعن يحي بن معاذ[(٤)]: (الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق منه شيئًا يأخذك)، [ومن الوافر][(٥)]:

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٢٣٥٨، رقم ٦٠٥٣) والترمذى (٤/٥٦٧، رقم ٢٣٣٣)، وابن ماجه (٢/١٣٧٨، رقم ٤١١٤). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٢/٤٧١، رقم ٦٩٨)، والبيهقى (٣/٣٦٩، رقم ٦٣٠٤).

(٢) أخرجه الترمذى (٤/٥٦٠، رقم ٢٣٢٠)، وابن ماجه (٢/١٣٧٦، رقم ٤١١٠)، قال البوصيرى (٤/٢١٣): إسناد ضعيف. والدارقطنى فى الأفراد كما فى أطراف ابن طاهر (٣/٩٥، رقم ٢١٣٤)، والطبرانى (٦/١٥٧، رقم ٥٨٤٠)، والحاكم (٤/٣٤١، رقم ٧٨٤٧)، وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبى: زكريا بن منظور ضعفوه. وأخرجه أيضًا: البيهقى فى شعب الإيمان (٧/٣٢٥ رقم ١٠٤٦٥).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/٨٢، رقم ٣٦١).

(٤) انظر: الإحياء (٣/٢٠٧).

(٥) هو لأبي العتاهية وقد نسب للإمام علي وأبي نواس أيضا.

قليـــل عمرنـــا في دار دنيـــا ومرجعنـــا إلى بيـــت التـــراب
لَـــه مَلَـــكٌ يُنَـــادِي كُـــلَّ يَـــوْمٍ لِدُوا لِلْمَـــوْتِ وابْنُـــوا لِلْخَـــرَابِ

(**واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها**) والبقاء غير منتاه، فالعمل لها يقتضي اســتغراق العمر بالطاعة، والتقوى، والعفة، والاستكانة بالخوف، والخشية ظـــاهر أو باطنـــا بـــأداء الفرائض والواجبات وبمواظبة السنن والمستحبات وبسترك المحرمات، والمنكرات، وباجتناب البدع والشبهات؛ فإن العاقل يختار ما يبقى على ما يفنى بل يجتهد أن يزيد طاعة كل يوم على ما قبله على ما روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: (من استوى يوماه فهـــو مغبون، ومن كان يومه شرا من أمسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خـــير له).

(**واعمل لله بقدر حاجتك إليه**) وقدر الحاجة إليه أخرويا أو دنياويا مما لا ينحصر في عدد والعمل المناسب له تعالى أن يجعله كذلك، فإذا لم يكن ذلك للإنسان فيصرف غايـــة جهده في الطاعات والعبادات لا سيما في الإذكار والأوراد والتلاوات بالتـــأني والتـــدبر والخشوع إلى أن يترقى من عالم الرجس إلى ذروة عالم القدس بالانخلاع عـــن الصـــفات السفلية.

(**وعمل للنار بقدر صبرك عليها**) فإذا لم تقدر على النار ساعة فلا تقرب إلى المعاصي ذرة واحفظ أوقاتك عن مقضياتها، وراقب على نفسك؛ فإنها أسدك أن أهملتها يفترسك.

=

انظر: ديوان أبي العتاهية ص ٣٣، و ديوان الإمام علي ص ٤٦، وديوان أبي نواس ص ٢٠٠. وقـــد ورد البيت في الجنى الداني ص ٩٨، والتصريح ١٢/٢، وهمع الهوامع ٣٢/٢، وخزانة الأدب ٥٢٩/٩.

obeikandl.com

النصيحة السابعة عشر

لا حاجة إلى العلم الكثير

• أيها الولد..!!

إذا [علمت هذا الحديث] [١] لا حاجة إلى العلم الكثير.

وتأمل في حكاية أخرى، وهي: أن حاتم الأصمّ كان من أصحاب شقيق البلخي رحمة الله تعالى عليهما، فسأله يوما قال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة ما حصّلت فيها؟

قال: حصّلت ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني منه؛ لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها.

فقال شفيق: ما هي؟

قال حاتم:

الفائدة الأولى: أني نظرت الى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبًا ومعشوقًا يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت، وبعضه يصاحبه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله، ويتركه فريدًا وحيدًا، ولا يدخل معه في قبره منهم أحد.

فتفكرت وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه في قبره، ويؤنسه فيه، فما وجدته غير الأعمال الصالحة، فأخذتها محبوبًا لي؛ لتكون لي سراجًا في قبري، وتؤنسني فيه، ولا تتركني فريدًا.

الفائدة الثانية: أني رأيت الخلق يقتدون بأهواءهم، ويبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأملت قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات ٤٠ – ٤١]. وتيقنت أن القرآن حق صادق فبادرت إلى خلاف نفسي وتشمّرت بمجاهدتها، وما متعتها بهواها، حتى ارتاضت بطاعة الله تعالى وانقادت.

---

(١) وفي نسخة: إذا عملت بهذا الحديث.

obeikandl.com

الفائدة الثالثة: أني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا، ثم يمسكه قابضًا يده عليه فتأملت في قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦] فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى ففرّقته بين المساكين؛ ليكون ذخرًا لي عند الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أني رأيت بعض الخلق يظن أن شرفه وعزه في كثرة الأقوام والعشائر فاعتز بهم.

وزعم آخرون أنه في ثروة الأموال وكثرة الأولاد، فافتخروا بها.

وحسب بعضهم أن العز والشرف في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم.

واعتقدت طائفة أنه في إتلاف المال وإسرافه، وتبذيره، فتأملت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فاخترت التقوى، واعتقدت أن القرآن حق صادق، وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

الفائدة الخامسة: أني رأيت الناس يذم بعضهم بعضا، ويغتاب بعضهم بعضا، فوجدت أصل ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢] فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى في الأزل، فما حسدت أحدًا ورضيت بقسمة الله تعالى.

الفائدة السادسة: أني رأيت الناس يُعادي بعضهم بعضا لغرض وسبب، فتأملت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦] فعلمت أنه لا تجوز عداوة أحد غير الشيطان.

الفائدة السابعة: أني رأيت كل أحد يسعى بجد ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش، بحيث يقع به في سبهة وحرام، وبذل نفسه وينقص قدره، فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] فعلمت أن رزقي على الله تعالى، وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته، وقطعت طمعي عمّن سواه.

الفائدة الثامنة: أني رأيت كل واحد معتمدًا على شيء مخلوق، بعضهم إلى الدينار والدرهم، وبعضهم إلى المال والملك، وبعضهم إلى الحرفة والصناعة، وبعضهم على مخلوق مثله، فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣] فتوكلت على الله تعالى فهو حسبي ونعم الوكيل(١).

فقال شفيق: وفقك الله تعالى إني قد نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثماني، فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة.

---

(١) اجعل من أورادك (حسبنا الله ونعم الوكيل) فإن ذكرت الله بها مع الشروط الواجب توفرها من إخلاص ومداومة واتباع لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن صدقت في ذلك كله شملك حال الذكر فتشهد أنه ما في الوجود من شيء إلا وهو في نظر الله عز وجل.. فتحسّ بالسكون.. هذا السكون هو بداية حال الطمأنينة والركون إلى الله عز وجلّ.. وتجدك لا تتأثر بالمتغيرات واضطرابات الاقتصاد العالمي بعكس ما يشعر به غيرك من قلق وتذبذب وخوف..

من يكثر من (حسبنا الله ونعم الوكيل) يحصل له الأنس، فإن تمّ له ذلك ازداد طمأنينة وتسليماً وتفويضاً.. عندها يدخل في مقام التوكل: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران].. ثم يرتقي في مقام التوكل كلما ازداد ذكر الجوارح وازداد الإخلاص في القلب.. يترقى من توكل إلى تسليم إلى تفويض ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤] إلى فناء في الله عز وجل إلى انطواء في الله عز وجل، وهذا كله في مقام التوكل.. هذه المعاني تفهم ذوقاً بالروح والسائر إلى الله عز وجل تنفتح له المعاني فتحاً ولا يمكن شرحها لمن لم يذقها.. فهي لا تعرف إلا بالذوق.. فلو أنفقتُ دهراً وأنا أشرح لك طعم البقلاوة لن تستطيع معرفة طعمها ما لم تذقها.. أختصر لك مجلدات كثيرة إن قدمت لك قطعة صغيرة منها وقلت لك: ذق.. وهكذا يفعل المربّون الكبار يقدمون لتلاميذهم بادئ الأمر قطعة صغيرة من (طيّب ذواقهم) حتى إذا هام وسكر وانجذب قالوا له: لم يبق لك شيء مجاني.. اعمل واكدح وجاهد لتكسب ذلك الذواق.

(**أيها الولد: إذا علمت هذا الحديث**) من البداية إلى النهاية بإن تتأمل حقائق معانيها ودقائق أسراره (**لا حاجة لك إلى العلم الكثير**) لكونه من جوامع الكلم يشتمل جميع أحكام الشرع أصولها، وفروعها، وعزائمها، ورخصها فلا تحتاج إلى نصيحة أخرى؛ لكن فلنذكر قصة لطيفة مدخل لهذا الحديث من حيث التوضيح والتأييد والتأكيد والتثبيت (**وتأمل في حكاية أخرى**) الأولى أن يترك قوله أخرى إلا أن يقال: المراد في حكاية هي نصيحة أخرى (**وهي أن حاتم الأصم من أصحاب الشقيق البلخي رحمهما الله تعالى فسأله**)؛ أي: الشقيق سأل الخاتم (**يوما قال صاحبتني**) وخدمتني (**منذ ثلاثين سنة ما حصل لك فيها**)؛ أي: أي شيء حصلت فيها (**قال**) الخاتم (**حصلت ثماني فوائد من العلم وهي تكفيني منه**)؛ أي: من العلم؛ يعني: إن عملت بها لا احتياج إلى علم آخر (**لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها**)؛ أي: في الثمانية (**فقال شقيق: ما هي؟ قال خاتم الفائدة الأولى: إني نظرت إلى الخلق**) نظر عبرة وتجربة (**فرأيت لكل واحد منهم محبوبًا ومعشوقًا يحبه ويعشقه**) كالأولاد، والأزواج، والأموال، والمناصب، والأحباء.

(**وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت**) فتركه لليأس عن حياته؛ إذ حبه لغرض دنياوي فإذا يئس ينقطع عنه أو عند المرض ينقطع حب المريض إياه كالأموال ونحوه لعلمه أنه لا يذهب معه؛ بل يبقى ملكا للغير (**وبعضهم إلى شفير القبر**)؛ أي: طرفه (**ثم يرجع كله ويتركه فريدًا، ووحيدًا، ولا يدخل معه في قبره منهم أحد فتفكرت**) في نفسي (**وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه**)؛ أي: المرء (**في قبره ويؤنسه فيه ويدفع وحشته**) بل يدفع المضرة عنه (**فما وجدته إلا الأعمال الصالحة**) إذ من البديهي أن الأحباء، والأموال، وسائر السعايات تبطل بالموت والباقيات هي الصالحات.

(**فأخذتها**)؛ أي: الأعمال الصالحة (**محبوبة لي**) ومن شرط المحبة أن يداوم على الحبيب، ويتحمل أذاه، ويتعب في طريقه، ويخاصم أعداءه، ويحافظ حقوقه (**لتكون لي سراجا**) وضياء (**في قبري**) ورفيقا أنيسا (**تؤنسني فيه ولا تتركني فريدا**) في مضائقة القبر وظلمته كما روي عنه صلى الله عليه وسلم: « **أن المؤمن الصالح إذا مات فرفع من بيته استقبله**

جنود الله تعالى من الملائكة ببشارة من الله تعالى فيصرخ إبليس صرخة يجتمع منها جنوده، فيقول: كيف تخلص هذا منكم؟ فيقولون: كان عبدا معصوما فإذا وضع في قبره أتت الصلاة عند رأسه، والصوم عند رجليه، ومشيه إلى المساجد وطاعته وذكره عن يمينه وشماله، وتنحى الصبر في ناحية القبر، وهو أفضل الأعمال، فيبعث الله تعالى عنقًا من النار فيأتيه قبل رأسه، فيقول: الصلاة إليك عني فإنه كان محافظا عمره فلا يأتيه من ناحية من نواحيه إلا وجد منعة، ثم يكفها الله تعالى عنه برحمته، فيقول: الصبر للأعمال، لقد رأيت ما فعلتم، فلولا ذلك لباشرته، فأنا زخر له عند الصراط والميزان».

ومما يناسب ذلك في « شرح الصدور » عن تفسير جوير: (أنه حضر وفاة مورق العجلي فلما سجى، وقلنا: قد قضي رأينا نورًا ساطعًا من عند رأسه حتى حرق السقف، ثم رأينا نورًا آخر من عند رجليه، كالأول، ثم رأينا من وسطه فبعد ساعة كشف وجهه، فقال: هل رأيتم شيئا؟ قلنا: نعم. قال: قد كنت أقرأ كل ليلة ألم السجدة، فالنور الذي عند رأسي أربع عشر آية من أولها، وما عند رجلي أربع عشر آية من آخرها، وما في وسطي آية السجدة نفسها صعدت تشفع لي، وبقيت سورة تبارك تحرسني)، ثم قضى وفيه أيضا عن إخراج ابن أبي الدنيا من طريق آخر عن مورق العجلي، وكذلك أيضا وقع على مطرف بن عبد الله لمداومته أيضا في كل ليلة على ألم السجدة، وتبارك، ويقرب إلى هذا المعنى ما في « تذكرة القرطبي » عن زيد ابن أسلم، أنه قال: بلغني أن المؤمن يتمثل له عمله يوم القيامة في أحسن صورة: وجها، وثيابا، وريحا طيبة، فيجلس إلى جنبه كلما أفزعه شيء أمنه، وكلما خوفه شيء هونه عليه، فيقول له: جزاك الله خيرًا، من أنت؟ فيقول: أما تعرفني! فقد صحبتك في قبرك ودنياك، أنا عملك، كان والله حسنا، وكان طيبا فلذلك تراني حسنا طيبا طالما ركبتك في الدنيا فاركبني الآن.

(**والفائدة الثانية: أني رأيت الخلق يقتدون أهواءهم**)؛ أي: ينقادون ويطيعون علم دواعي أهوائهم (ويبادرون إلى مرادات أنفسهم، فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[النازعات: ٤٠، ٤١] الهوى: ميل النفس إلى مقتضيات الطبع، ولهذا كان عادة أولياء الله مخالفة النفس في جميع

ما تشتهي حتى نحو المباحات كما حكي عن السري أن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أن أغمس جزرًا في دبس فما أطعمتها، وقال ابن عطاء: النفس لا تألف الحق أبدا.

وقال سهل: ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس. وقيل: الراحة هو الخلاص من أماني النفس.

وحكى عن بعض المشايخ: أن نفسه تشتهي أكل بيض فمنعها منذ ثلاثين سنة فغلبت في مفازة وقصد أكله فتوجه نحو قرية فإذا أهل قرية أخذوه وضربوه كثيرا وحبسوه على زعم فاعل تهمة بينهم، ثم رآه من علمه فأخبره هو الشيخ الفلاني فخلو سبيله واعتذروه له ثم احضروا له طعاما فيه بيض فلم يأكل.

وقال: ليس لكم فيما فعلتم قباحة بل القباحة قصدي لذلك وفي رسالة القشيري فطم النفس عن المألوفات وحملها على خلاف هويها من عموم الأوقات هي أصل جميع المجاهدات ومن غوامض آفات النفس ركونها إلى استحلاء المدح؛ فإن من تحسى منه جرعة حمل السموات والأرضين مثلا على إشفاره:

طلب العلم جمال وشرف وهوى النفس وبال وتلف
فاطلب العلم وكن ذا أدب واترك النفس وكن خير خلف

شعر آخر:

لقد لسعت حية الهوى كبدى فلا طبيب لها ولا راق

قال بعض الملوك لبعض المشايخ: هل من حاجة؟ فقال: كيف أطلب منك حاجة وأنت أسير غلامي؟! قال: كيف؟ قال: النفس عبدي تطيعني، وأنت أسير لها تطيعها، وتنفذ أحكامها، وتجري أمورها فيك، وتتصرف كيف شاءت في حقك؟ وقال آخر كذلك، فقال: كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ قال: كيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبد لي، قال: كيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك، وهواك، وبطنك، وفرجك، وقد ملكت هؤلاء كما في بعض التفاسير.

(**وتيقنت أن القرآن حق صادق فبادرت**)؛ أي: سارعت وسابقت (**إلى خلاف نفسي**) كما سمعت من قصص المشايخ آنفا (**وتشمرت**)؛ يعني: تهيأت واستعددت (**لمجاهدتها**) التي هي الجهاد الأعظم عند مجاهدة أهل الحرب كما مر.

(**وما اتبعتها**)؛ أي: النفس (**بهويها**) لتيقن الخسران والوبال (**حتى ارتاضت**)؛ أي: إلى أن رضيت (**لطاعة الله تعالى وانقادت**) فإن ذلك وإن كان أمرًا في البدايات والأوائل؛ لكن ذلك أحلى من السكر في النهايات والأواخر؛ لأن صدق المجاهدة يوصل صاحبه من حضيض البشرية إلى ذروة الملكية؛ فإن القلوب مستورة بظلمات المعاصي لا يرى شيئا من أنوار الغيوب لعدم مبالاته من الآثام والذنوب فإذا أزيل يقطع عقبات النفس ويستأهل تجليات أنوار القدس فعند ذلك يحصل للنفس ملك لا يفنى، وسلطنة لا تبلى، فاللذة والراحة ليس إلا بالعبادة والذكر.

(**والفائدة الثالثة: أني رأيت كل واحد من الناس**)؛ أي: من عوامهم.

(**يسعى في جميع حطام الدنيا**)؛ أي: فوائدها ومنافعها من الأملاك والأموال بل المناصب والأولاد والأحباء لغرض الدنيا.

(**ثم يمسكه**)؛ أي: الحطام.

(**قابضا يده**) الظاهر يجمع الدنيا، ثم يبخل، ولا يتصدق، ولا يعطي المحاويج، ولا يصرف إلى وجوه البر ومصارف الخيرات والحسنات.

قال في « الفتاوي الفقهية »: أن الاكتساب فوق ضرورة حاله لأجل التصدق أفضل من التفرغ للعبادة عند بعض، وأيضا التصدق لمن حج مرة أفضل من الحج نافلة على وجه وأيضا اختلف في الترجيح أن الغني الشاكر أفضل أو الفقير الصابر.

(**فتأملت في قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ [النحل:٩٦]؛ أي: ينقطع وينتهى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾**) الظاهر: أن المراد مما عند الله تعالى؛ نحو: جنس التصدق؛ فإن المال ما دام في يد صاحبه يد أمانة، وعارية وعلى خطر ليس بيد ملك إذ ما أكله يفنى وما لبس يبلى، وعند موته يكون ملكا لورثته فأنت خديمهم وأجيرهم بلا أجرة وما أعطى لوجوه الخير فهو يبقى بقاء بلا خوف هلاك ولا احتمال تلف.

(**فبذلت**)؛ أي: صرفت.

(**محصولي**) ومجهودي (**من الدنيا لوجه الله**)؛ أي: رضائه (**ففرقته**)؛ أي: ذلك الحطام (**بين المساكين ليكون ذخرا**) وزادا (**لي عند الله تعالى**) ليس المراد المنع عن التجارة والكسب بالكلية إذ الكسب لنفسه وعياله فرض، ولهذا يقال: طلب المعاش أحب من زوايا المساجد.

وروي عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: (أيما رجل طلب شيئًا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرًا محتسبا فباعه لسعر يوم؛ كان عند الله عز وجل بمنزلة الشهداء، ثم قرأ ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ﴾ [المزمل:٢٠] وقال صلى الله عليه وسلم: « **من طلب الدُّنْيَا حَلالا وَتَعَفُّفًا عَن الْمَسْأَلَة، وسعيًا عَلَى عِيَاله، وتعطفًا عَلَى جَاره.. لَقِي الله وَوَجهه كَالْقَمَرِ لَيْلَة الْبَدْر** »[(١)]. وقال عليه السلام: « **التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين** »[(٢)] كما في بعض التفاسير.

وفى « خطبة الأربعين »: من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة من بات تعبا في كسب الحلال، وجبت له الجنة، والله عنه راض.

(**والفائدة الرابعة: أني رأيت بعض الخلق ظن**) مفعول ثان لرأيت، وقوله: (**شرفه**) مفعول ظن (**وعزه في كثرة الأقوام**) جمع قوم (**والأنصار والعشائر**) جمع: عشيره؛ بمعنى: قبيلة (فاغتر بهم) من الغرور.

(**وزعم**) الزعم؛ بمعنى: الاعتقاد الباطل (**آخرون أنه**) أي: العز والشرف.

(**في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم**) أي: قتلهم بغير حق. (**واعتقدت طائفة أخرى**) هذا الاعتقاد أيضا باطل لعل الكلام مبني على التفنن.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١١٠/٣). وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (٣٥٣/١، رقم ٣٥٢)، وعبد بن حميد (ص ٤١٨، رقم ١٤٣٣)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٩٨/٧، رقم ١٠٣٧٤).

(٢) أخرجه الترمذى (٥١٥/٣، رقم ١٢٠٩) وقال: حسن. وعبد بن حميد (ص ٢٩٩، رقم ٩٦٦)، والدارمى (٣٢٢/٢، رقم ٢٥٣٩) والدارقطنى (٧/٣)، والحاكم (٧/٢، رقم ٢١٤٣).

(**أنه**) أي: العز والرفعه (**في إتلاف المال وإسرافه وتبذيره**) إلى غير محله وإعطائه وراء الحد الشروع.

(**وتأملت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]**) يعني: العز الحقيقي والرفعة الحقيقية ما يكون عند الله تعالى إذ ما عند الناس شبحي مجازي لا أصل له، والعز عند الله تعالى إنما هو بالتقوى وهو الكف عن جميع المحظورات إلى ترك الشبهات وترك ما يريبه إلى ترك ما لا بأس به بل يتجرد لخدمة مولاه فلا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلبسه ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنه يفارقه ولا يصرف إلى غيره تعالى نفسا واحدا من أنفاسه فحينئذ يكون صديقا ويدخل في التقوى الورع والعفه فإنها عبارة عن امتناع مقتضى الشهوات فسبب الجميع الخشية فهي سبب إلى لقائه تعالى وقربه والأنس به ولا يتيسر ذلك إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب وهذا لا يكون إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها وهذا إنما يكون بقمع النفس عن شهواتها على ما في بعض التفاسير.

وفى وصايا بعض العارفين لبعض أصحابه: أوصيك بما أوصى به الله تعالى إلى أنبيائه وأوليائه، وكافة أحبائه وعامة عباده لكونه غاية بالقرب إليه ونهاية ما أكرم لديه فليس شيء أعز عنده ولا أفضل لعبده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١] فعليك أيها الولد الأعز الأكرم ببذل جهدك وغاية سعيك، ونهاية بغيك في تحقيق حقائق التقوى، وتدقيق أسرارها؛ فإن لها ظاهرا وباطنا وحقيقة وحقا فمن بلغها فقد ملك سلطنة سرمدية وملكا أبديًا، وفي محاضرات قرة باغي روي عنه صلى الله عليه وسلم: أنه قال لمعاذ رضي الله عنه: « **أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفا بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه بالقرآن** »[1] فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حق صادق لاعتقاداتهم الباطنة،

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٤٧٢/٢، رقم ٩٦٦)، والخرائطي في اعتلال القلوب (٤١٢/١، رقم ٣٨٥).

وهو معنى قوله: (وظنهم وحسبانهم) عطف تفسير الحسبان؛ بمعنى: الظن، كلها باطل زائل.

(**والفائده الخامسة: أني رأيت الناس يذم بعضهم بعضا ويغتاب بعضهم بعض فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم**) لا يخفى أن المقام مبني على الأكثر وإلا فظاهر أن الذم والغيبة قد يكونان بمن ليس له مال ولا جاه ولا علم.

(**فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف:٣٢]**) يعني: قدرنا في الأزل قسمتهم، وما يكون سببا لمعاشهم؛ يعني: أرزاقهم في (**الحياة الدنيا**) الجار متعلق بمعيشتهم لا يخفى أن هذا إنما يدل على ترك الحسد لأجل المال، والمطلوب: ترك الحسد للعلم والجاه أيضا، فالمقصود من الاستشهاد ليس إلا معظم المطالب أو الكلام مبني على الاكتفاء والتمثيل (**فعلمت أن القسمة**) من الرزق (**كانت من الله تعالى في الأزل**) لا يخفى أن الظاهر يقتضي عدم فائدة الاكتساب في تحصيل الرزق بل تكثيره وقد قرر في الفقهية بفرضية بعض الاكتساب وأن التجربة شاهدة بنفع الاكتساب وقد عدوا التجريبات الصادقة من القطعيات التي توجب تأويل النصوص الظاهرة في خلافها على أن المراد من القسمة الأزلية في النص تقديرها مع أسبابها من الاكتساب بناء على قاعدة الأعمال، نعم لا فائدة للحسد في أمر الرزق، وإن كان لسعي العبد مدخل (**فما حسدت أحدا**) لعدم فائدة الحسد في أمر الرزق.

(**ورضيت بقسمة الله تعالى، والفائدة السادسة: أني رأيت الناس يعادي**) من العداوة والخصومة (**بعضهم بعضا لغرض**) كالمال والرئاسة والجاه بل من العلم وهو ظاهر ففي الحقيقة تتحد مع الفائدة الخامسة؛ لكن لما كان فيه خصوصية مخصوصة ووجه قوي بين الأنام أفردها مقابلا لها (**وسبب**) عطف تفسير للغرض (**فتأملت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]**) نصب نفسه لعداوة الإنسان حين طرد عن رحمة الله ولعن لعنة أبدية لسبب امتناعه عن سجدة أبينا آدم عليه السلام فكان ذئبا

للإنسان كذئب الغنم أينما يجد فرصة يهلكه ويتلفه كما في « جامع الصغير »: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ** »[1] الحديث.

(**وعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان**) وأنت خبير أن ما يدل عليه النص اتخاذ الشيطان عدوا وهو ليس بمطلوبه والمطلوب عدم اتخاذ غير الشيطان عدوا وليس بلازم للنص على أن الكفار لا سيما حربياتهم؛ بل الفساق والأشقياء مما يتخذ عدوا إلا أن يراد من الشيطان الأعم بعموم المجاز أو المراد من العدو ما لا يرجى زوال عداوته أو العداوة الكاملة التي معظم قصده الدين ولا يبعد بناء الكلام على المفهوم المخالف كالسكوت في معرض البيان ومفهوم اللقب فافهم، ويمكن أن يقال: أن عداوة الغير عند عداوة الشيطان كالعدم فكان العدو هو الشيطان فلا يليق لأحد أن يتخذه عدوا ما لم يدفع عداوة الشيطان.

(**الفائدة السابعة: أني رأيت كل أحد يسعى بجد**) يعني: يصرف جميه مقدوره (**ويجتهد بمبالغة**) يعني: فوق المأمول (**لطلب القوة**)؛ أي: ما يقتات به؛ أي: ما يؤكل وكذا ما يلبس وما يسكن.

(**والمعاش**) عطف تفسير له (**بحيث يقع به في شبهة وحرام**) يعني: يكون فرط اجتهاده داعيا إلى تناول نحو الشبهات والمحرمات وإلى ارتكابهما طمعا في تكثير الأموال فلا يراعي أسباب الحل فضلا عن الطيب والكمال في الدين إنما يكون بالطيب لا بالحل فقط. قال: المص في الأحيا ولا طريق إلى لقاء الله تعالى إلا بالعلم والعمل، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والتناول منها على قدر الحاجة على الأوقات فمن هذا قال بعض السلف أن الأكل من الطيب من الدين وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين كلوم من الطيبات واعملوا صالحا، انتهي، وعن أبي بكر الصديق

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٢، رقم ٢٢٠٨٢). وأخرجه أيضًا: الطبرانى (٢٠/١٦٤، رقم ٣٤٤). قال الهيثمى (٢/٢٣): رواه أحمد، والعلاء بن زياد لم يسمع من معاذ. وقال فى (٥/٢١٩): رواه أحمد، والطبرانى، ورجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد قيل إنه لم يسمع من معاذ. وقال المناوى (٢/٣٥٠) قال الحافظ العراقى: رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا.

رضي الله عنه أني لأدع سبعين بابا من الحلال مخافة أن أقع في الحرام وفي شرح أربعين النووي زاده واختلف في الطيب، فقيل: هو مرادف للحلال.

وقيل: هو الحلال الخالي عن الشبهة، وقيل: ما لا يعصى في تحصيله، ولا يرتكب نهيا شرعيا، وقيل: ما لا يحصل بالحرف الدنية: كالحجامة، والدباغة، وغير الطيب على خلافه في التفسيرات، انتهى.

وفي بعض المواضع عن الزاهدي عن فتاوي محمد بن الفضل: الحلال معلوم، وأما الطيب: فمن أخذ أرضا مزارعة محافظا على الصلوات في مواقيتها؛ لكنه أخر صلاة واحدة عن وقتها لاشتغاله بالزراعة؛ لا يكون زرعه طيبًا.

وكذا لو زرعه أو غرس بغير طهارة أو منع الأجرة عن الأجير أو أخرها بعد ما جف عرقه، وكذا إذا أخر أداء الثمن بعد حلول الأجل وأداه متفرقا بدون رضاء البائع، انتهى.

وفي بعض الكتب: قال صلى الله عليه وسلم: « **يا علي؛ من أكل الحلال صفى دينه، ورق قلبه، ودمعت عيناه من خشية الله تعالى، ولم يكن لدعوته حجاب، ومن أكل الشبهات اشتبه عليه دينه، ورق قلبه، وضعف يقينه، وحجب الله تعالى دعوته، وقلت عبادته، ويذل نفسه وينقص قدره** »؛ أي: يجعل نفسه حقيرًا وذليلا في طلب المعاش ليس بحسب الدنيا فقط؛ بل بحسب الآخرة أيضا؛ لتأخره عن فضائل العبادات، وإكمال النفس بوجوه الطاعات؛ للاشتغال بتحصيل ذلك المعاش.

(**فتأملت في قوله تعالي: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] فعلمت أن رزقي على الله تعالى وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته**)؛ أي: الله تعالى (**وقطعت طمعي عما سواه**) من أمر المعاش وتحصيل الرزق؛ فإن قيل: لو كسب بمجرد التصدق والإنفاق فضل كسبه هلا يكون الكسب أفضل عبادة، قلت: قال في التاتارخانية: الامتناع من الكسب أولى من الاشتغال به على قصد الإنفاق، وإن الصبر على الفقر أفضل من الشكر على الغنى الظاهر من الامتناع للتفرغ على العبادة. قال بعضهم: اجتهادك فيما ضمن الله لك وتقصيراتك فيما طلب الله منك دليل على انطماس البصيرة منك.

(**الفائدة الثامنة: أني رأيت كل أحد**) الظاهر أن لفظ كل في هذه إنما هي للتكثير لا للتسوير وإلا فظاهر المنع (**يعتمد إلى شيء مخلوق**) يعني: يغتر ويعتني إلى ذلك الشيء فيوقع نفسه إلى تحصيله وتكميله ولا يبالي طاعة ربه رضاء مولاه، وتعمير أوقاته؛ بل يضييع عمره في هوي ذلك الشيء والعمر جوهر عزيز لا يعادله قيمة؛ بل كل نفس واحد من أنفاسه لا يناله الإنسان بخزائن ملوك الدنيا، ولا يقدر عودته، ولا يمكن عوضه وجبرته، ولا يمكن قضاء وظيفته؛ إذ كل نفس موظف فهو رأس مال المؤمن العاقل يكتب به أسباب السعادة الإلهية السرمدية فإذا صرف لمثل هذه الأمور الخبيثة الدنياوية فهو: غبن فاحش، وخسران عظيم، ومصيبة لا يقدر إلى تداركها جميع الأولين والآخرين؛ إذ العمر محسوب، ووقت الأجل معلوم معين.

(**وبعضهم**) الظاهر بالفاء على أن يكون تفصيلا لهذا المجمل (**إلى الدنيا والدراهم**) هكذا ما عندنا من النسخة؛ لعل الأوفق إلى الدنانير والدراهم، ولكن لا ضير؛ لأنه حينئذ يكون من عطف الخاص على العام.

قال في « العوارف »: لا يكمل شغل العبد بالله الكريم، وله في الدنيا حاجة (**وبعضهم إلى المال والملك**) وقد كان حب ذلك قطع طريقه تعالى للمؤمن (**وبعضهم إلى الحرفة والصناعة**)؛ إذ كل حزب بما لديهم فرحون، وكل قوم بما يألف به يتلذذون (**وبعضهم إلى مخلوق مثله**) كالأمراء والملوك، وكل من له رئاسة وقوة بين قوم.

(**فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]**) أي: يكفيه ولا يجعله محتاجا إلى غيره، ومن أصدق المجربات أن من توكل على الله وفوض جميع أمره إلى الله تعالى وتفرغ على طاعة الله تعالى وتقاعد عن معصية الله تعالى سخر الله له رزقه وهيأ أسبابه ويلهم عباده بالعطاء والإحسان إليه بل يفضل سماوي خلاف العادة كما حكى أن ذا النون اصطاد سمكة فطرحها بين يدي ابنة صغيرة له فنظرتها الإبنة تتحرك شفتيها فطرحتها الماء، فقال أبوها: لم ضيعت كسبي؟ قالت: إني لا أرضى أن آكل خلقا يذكر الله تعالى. فقال: أيش نفعل؟ قالت: نتوكل فلما صار وقت العشاء أنزل الله عليها

مائدة من السماء مملوءة بأنواع الأطعمة، ثم لم ينقطع في كل ليلة فحسب أنها منه، ثم بعد زمان لما توفيت الإبنة انقطع المائدة وحكم أنها لتوكل الإبنة.

(﴿**إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾) قال القاضي: مبلغ ما يريده ولا يفوته مراده؛ يعني: أن أمره نافذ.

(﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾) قال القاضي: تقديرًا وجلالا لا يتأتى تغييره وهو بيان لوجوب التوكل، انتهى؛ فإن من علم أن الله تعالى يبلغ ما يريده وينفذ أمره فيمن توكل عليه، وفيمن لم يتوكل؛ إلا أنه من توكل عليه يُكفِّر عنه سيئاته، ويعظم له أجرا، والله تعالى جعل لكل شيء من: الشدة، والرخاء، والموت، والحياة، ونحوها تقديرا متعلقا بنفس ذاته وبزمان وقوعه بجميع كيفياته، وأوصافه، وأنه تعالى بالغ ذلك المقدر على حسب ما قدره تعالى لم يبق له سوى التسليم والاعتماد على تقديره والتوكل عليه فلهذا لم يعطف على قوله ومن يتوكل وكذا من علم أنه جعل لكل شيء مقدارًا واحدًا معينا أو أجلا ونهاية ينتهي إليه، ولا يتأتى تغييره يضطر إلى التوكل عليه لا محالة كذا في « حاشية شيخ » زاده.

(**فتوكلت على الله وهو حسبي ونعم الوكيل**) فلما ذكر الخاتم هذه الثمانية (**فقال شقيق**) محسنا إياه (**وفقك الله تعالى يا حاتم إني نظرت التوراة والإنجيل والزبور**) وقد عرفت من الكلام على النظر بغير القرآن من الكتب السماوية لعل المنع: إما من إفراط النظر أو النظر للعمل بالجميع أو التناول المفضول عند إمكان العمل بالفاضل.

(**والفرقان فوجدت الكتب الأربعة**) الإلهية؛ بل جميع الكتب ولو صحفا، لكنه اكتفى بما هو مدون لكونه متبوعا ومشهورًا.

(**تدور على هذه الفائدة الثمانية فمن عمل بها**)؛ أي: الثمانية (**كان عاملا بهذه الكتب الأربعة**).

النصيحة الثامنة عشر

ما يجب على سالك سبيل الحق

• أيها الولد..!!

قد علمت من هاتين الحكايتين أنك لا تحتاج الى تكثير العلم، والآن أبين لك ما يجب على سالك سبيل الحق:

فاعلم أنه ينبغي للسالك شيخ مرشد مرب؛ لِيُخْرِج الأخلاق السيئة منه بتربيته، ويجعل مكانها خلقا حسنا.

ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع لحيسن نباته، ويكمل ريعه، ولا بد للسالك من شيخ يربيه ويرشده إلى سبيل الله تعالى؛ لأن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله، فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلف الخلفاء في مكانه، حتى يرشدوا إلى الله تعالى.

وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبًا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه: أن يكون عالما إلا أن كل عالم لا يصلح للخلافة.

وإني أبيّن لك بعض علاماته على سبيل الإجمال؛ حتى لا يدّعي كل أحد أنه مرشد، فنقول: من يعرض عن حب الدنيا وحب الجاه، وكان قد تابع شيخًا بصيرًا تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وكان محسنًا رياضة نفسه من قلة الأكل والقول والنوم وكثرة الصلوات والصدقة والصوم، وكان بمتابعة ذلك الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة: كالصبر والصلاة والشكر والتوكل واليقين والسخاء والقناعة وطمأنينة النفس والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأني وأمثالها، فهو إذا نور من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم يصلح للإقتداء به، ولكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر.

ومن ساعدته السعادة فوجد شيخًا كما ذكرنا، وقبله الشيخ، ينبغي أن يحترمه ظاهرا وباطنا:

أما احترام الظاهر فهو ألا يجادله، ولا يشتغل بالاحتجاج معه في كل مسألة؛ وإن علم خطأه، ولا يلقي بين يديه سجّادته إلا وقت أداء الصلاة، فإذا فرغ من الصلاة يرفعها، ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته، ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته.

وأما احترام الباطن: فهو أنّ كل ما يسمع ويقبل منه في الظاهر لا ينكره في الباطن لا فعلا ولا قولا؛ لئلا يتّسم بالنفاق، وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنه ظاهره.

ويحترز عن مجالسة صاحب السوء؛ ليقصر ولاية شياطين الإنس والجن عن صحن قلبه، فيصفي عن لوث الشيطنة، وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى.

ثم اعلم أن التصوف له خصلتان: الاستقامة، والسكون عن الخلق.

فمن استقام وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو «صوفي». والاستقامة أن يفدي حظ نفسه على أوامر الله تعالى.

وحسن الخلق مع الناس: ألا تحمل الناس على مراد نفسك، بل تحمل نفسك على مرادهم ما لم يخالفوا الشرع.

– ثم إنك سألتني عن العبودية وهي ثلاثة أشياء:

أحدها: محافظة أمر الشرع.

وثانيها: الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى.

وثالثها: ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالى.

– وسألتني عن التوكل؟

وهو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد، يعني: تعتقد أن ما قُدر لك سيصل إليك لا محالة، وإن اجتهد كل من في العالم على صرفه عنك، وما لم يكتب لك لن يصل إليك، وإن ساعدك جميع العالم.

– وسألتني عن الإخلاص؟

وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس، ولا تبالي بمذمتهم.

واعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق.

وعلاجه أن تراهم مسخرين تحت القدرة، وتحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة لتخلص من مراءاتهم. ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء.

(**أيها الولد: قد علمت من هاتين الحكايتين**)؛ أي: حكاية الشبلي وحكاية حاتم الأصم (**أنك لا تحتاج إلى تكثير العلم**) بل يكفي لك قليل العلم إذ النجاة والوصول إلى رضاء الله تعالى إنما هو بالعمل، فالمقصود هو: العمل والعلم؛ إنما هو لأجل العمل فالقدر الذي يعلم به وجوه العمل كاف فالاشتغال على وراء الحاجة ليس بلازم بل ليس بأفضل بل الاشتغال إلى العمل الذي هو المقصود الأصلي أفضل من الاشتغال بتفاصيل العلم ففيه إشارة إلى ترجيح العلم: كسفيان الثوري، وداود الظاهري، وابراهيم ابن أدهم حيث ذهبوا إلى ترجيح جانب العمل وتقاعدوا عن التعمق إلى تدقيقات العلم تعليما وتصنيفا، وكثيرة اجتهاد عبد أن وصلوا رتبة الاجتهاد وبعضهم رجحوا جانب العلم واشتغلوا توفيره وتكثيره؛ لكن المذكور في « الفتاوى » من حصل علم الحال أن ذكيا صاحب قابلية فالسعي بالعلم أفضل وإن غبيا لا يزيد على سعيه أمرا كثيرا، فالعمل في حقه أفضل.

(**والآن أبين لك ما يجب على سالك سبيل الحق**) كما هو سبيل أولياء الله وطريق مشايخ المتورعين المتشرعين المتسننين؛ يعني: لا يجب عليك كثير العلم؛ بل الواجب عليك سلوك سبيل الحق، وسبيل الحق أن لا ترضى ولا تقنع بشيء دون الحق؛ لأنه من رضي من الدنيا بالدنيا فهو ملعون، ومن رضي من الزهد بالثناء فهو محجوب، ومن رضي من الحق بشيء مما دون الحق كائنا ماكان فهو طاغ فالحذر الحذر عمن سوى الحق، كما ورد في القرآن أن صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي لله رب العالمين. فالسالك لا يرغب إلى شيء سوى الله تعالى ويطهر قلبه عن كل شيء غير الله تعالى ويزين جميع أركانه وجوارحه بحدود الله تعالى بإن يكون صادقا في طلب الله تعالى ومخلصًا في عبادة الله تعالى، وفي طلبه

وعبادته لا يشرك غير الله تعالى إلى أن لا يطلب شيئًا من غيره ولا يستعين من غيره حتى نحو الملح والماء، كما ورد عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه قال: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشترط علي أن لا تسأل الناس شيئا. قلت: نعم، قال: « **لا، ولو سوطك إن سقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه** »[1].

ثم أراد أن يبين طريق حصول هذا السلوك، فقال: (**اعلم أنه ينبغي للسالك من شيخ الشيخ**) في اصطلاح هذا الشأن هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حد التكميل فيها بعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها ومعرفته بذواتها وقدرته على شفائها كما يشير إليه كلام المص.

(**هنا مرشد مرب**) من التربية فطلب هذا الشيخ فهو عين طلب الله تعالى ابتغوا إليه الوسيلة الرفيق، ثم الطريق من لا شيخ له فشيخه الشيطان؛ لكن لا يعتقد أن الشيخ مقصود فالشيخ كالكعبة يسجدون إليها والسجدة لله تعالى؛ لكن ذلك لا يكون بالتكلف بل بالمحبة والشوق والاحتراق بنار الفراق فمن حصل له ذلك بالعناية الأزلية فيتوب توبة نصوحا مع الشرائط مع اعتقاد أهل السنة ولا يتوجه إلى الرخص ثم يطلب شيخًا كاملا كما ذكره.

(**ليخرج**) ذلك الشيخ (**الأخلاق السوء**)؛ أي: الذميمة الرذيلة.

(**منه**)؛ أي: من السالك (**بتربية منه**)؛ أي: الشيخ (**ويجعل مكانها**)؛ أي: الأخلاق السوء.

(**خلقا**)؛ أي: أخلاقا.

(**حسنا**)؛ أي: حسنة؛ أي: الحميدة.

(**ومعنى التربية**) وحقيقته (**يشبه فعل الفلاح**)؛ أي: الأكار والمزارع.

(**الذي يقلع الشوك**) الذي يضر بقاؤه نبات الزرع.

(**ويخرج النباتات الأجنبية**) إذ بقاؤها يضعف قوة الزرع.

(**ليحسن نباته**)؛ أي: الزرع.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢/٥، رقم ٢١٥٤٨)، قال الهيثمى (٩٣/٣): رجاله ثقات.

(**ويكمل**)؛ أي: يقوى ويفوق.

(**ريعه**)؛ أي: محصوله. (لأن الله تعالى أرسل إلى العباد رسولا للإرشاد إلى سبيله فإذا ارتحل عليه السلام من الدنيا قد خلف الخلفاء في مكانه حتى أنهم يرشدون الخلائق إلى الله تعالى لأجل هذا المعنى).

قوله: (**فلابد للسالك من شيخ يربيه ويرشد**) تكرير للتأكيد إشارة إلى غاية لزوم الشيخ؛ إذ الوصول بلا شيخ صعب، ولذا قيل: خذ العلم من أفواه الرجال.

وفي « نفحات الأنس » كان صفي الدين رجلا صالحًا دائمًا في ذكر الله تعالى فرأى ذكره في الواقعة كأنه نور خرج من الفم ودخل في الأرض وبعد الإفاقة تأمل، فقال: لا خير فيه لأنه تعالى قال: إليه يصعد الكلم الطيب، ثم أخذ الذكر من تلقين شيخ كامل فرأى تلك الواقعة أن ذلك النور صعد إلى السماء وخرقها.

قال أبو علي الدقاق من لا يربيه شيخ كشجرة نبتت في الصحراء بلا تربية أحد لا تثمر وإن أثمرت لا تكون لذيذة.

(**إلى سبيل الله تعالى وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبًا للرسول صلى الله عليه وسلم وأن يكون عالما**) بعلوم الشرائع والأخلاق وبصيرًا بعيوب النفس (**لا أن كل عالم يصلح له**)؛ أي: أن يتخذ شيخًا يقتدى به ومرشدًا (**وإني أبين لك بعض علاماته**) ففيه إشارة إلى أن الكل كثير لا يتحمله هذه الرسالة بل ما ألقي إجمالا يصلح أن يكون دليلا لما أبقى (**على سبيل الإجمال**) والتفصيل ربما يندرج تحت الإجمال (**حتى لا يدعى كل أحد أنه مرشد**) ولا يتبع على كل أحد ولا يقلد على اعتقاد أنه شيخ مرشد (**فنقول**) الشيخ الذي يصلح للإرشاد (**هو كل من يعرض من حب الدنيا**)؛ لأنه رأس كل خطيئة إذ جميع المحظورات متولد منه ومنته إليه فمن يريد سلامته عن جميع المحظورات الدينية يعرض عنها؛ لأن عزها ذل، وذلها عز، ومنحها محن، ومحنها منح، وهي دار مشقة وفراق ودار بلاء وفناء وعبور لا دار بقاء ودوام وسرور، أولها: ضعف، وفتور، وآخرها موت وقبور فانية مشوبة بالمضار والشرور والآخرة باقية خالصة عن الشوائب والمرور عزها باقية أبدية ونعمها صافية سرمدية.

(**وحب الجاه**) ولو علمًا وعبادة؛ بل الإعراض أهم فيهما.

(**وكأن**) ذلك الشيخ (**قد تابع لشخص بصير حاو لشروط المشيخة يتسلسل متابعة إلى سيد لمرسلين صلى الله عليه وسلم وكان محسنًا برياضة نفسه**)؛ يعني: يفعل الرياضة على وجه حسن (**من قلة الأكل**) بيان للرياضة؛ إذ يقال: قلة الأكل يوصل صاحبه إلى أعلى عليين كما أن كثرته ينزل صاحبه إلى أسفل السافلين. وعن ذي النون المصري لا تسكن الحكمة بمعدة ملئت طعامًا.

وقال المص في « منهاج العابدين » عن إبراهيم: صحبت أكثر رجال الله تعالى في جبل لبنان، وكانوا يوصونني إذا رجعت أبناء الدنيا فعظهم بأربع قل لهم من يكثر بالأكل لا يجد لذة العبادة ومن ينم كثيرًا لا يجد بركة عمره ومن لم يترك رضاء الناس فلا ينتظر رضاء الرب ومن يكثر بفضول الكلام فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام، وعن سهل أن جميع الخير في هذه الأربعة حتى صارت البدلاء بها إبدالا.

وقال: بعض الجوع رأس مالنا ومعناه أن ما يحصل لنا فراغ، وسلامة، وعبادة، وحلاوة، وعلم إنما هو بسبب الجوع والصبر؛ لكن المقصود ليس إفراط الجوع الذي يضعف البدن ويضر في العبادة إذ النفس مطية فالرفق بها لازم وقلة.

(**القول**) وقد سمعت بعض ضرر إكثار الكلام روى عن المصنف: (**احفظ لسانك لا تقول فتبتلى**) أن البلى مؤكل بالمنطق.

وعن ابن المبارك: احفظ لسانك أن اللسان سريع إلى المرء في قتله، وإن اللسان دليل الفؤاد يدل الرجال على عقله وفي « المنهاج » لسان المرء ليثه ولهذا قيل: لسانك أسدك أن أرسلته يأكلك.

وفي المثل: رب كلمة تقول لصاحبها دعني.

وعن مالك بن دينار: (**إذا رأيت قساوة في قلبك، ووهنا في بدنك، وحرمانًا في رزقك؛ فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك**) وقيل: أفضل الصدقة حفظ اللسان، ومن كف لسانه ستر الله عورته كلام ابن آدم بلاء إلا ذكر الله تعالى البلاء مؤكل على القوم أن

الله تعالى لا يقبل عمل عبده حتى لا يرضى عن لسانه سكون اللسان سلامة الإنسان صلاح الإنسان في حفظ اللسان بلاء الإنسان من اللسان تلف الإنسان من طرف اللسان.

(**والنوم**) نقل عن الأربعين للمصنف النوم مانع قوي عن العبادة ورأس مال السعادة العمر والنون ينقصه إذ يمنع العبادة، وقيل: كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار وفي الروضة من لزم الرقاد؛ أي: النوم حرم المراد.

(**وكثرة الصلاة**) لأنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية، والبدنية، والمالية، والقلبية، ومن الطهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجات الرحمن، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين، وكف عن الأطيبين ومشتملة على عبادة جميع أحوال الإنسان قيامًا، وقعودًا، وانحناء، وسقوطا على الأرض ومشتملة أنواع الأذكار ثناًء، وتحميدًا، وتكبيرا، وتسبيحا، وتهليلا، وتوحيدًا وجامعة لأصناف العبادات فرضًا وواجبًا وسنة ومستحبًا وندبًا وأيضًا جامعة لفضائل الفعل كما ذكر والترك؛ إذ بترك محرماتها ومنهياتها ومكروهاتها سيما عنده تشهي النفس يحصل الآخرة فالصلاة وسيلة قوية إلى أجل المآرب واقصد المقاصد.

(**والصدقة**) أي: كثرة الصدقة الظاهر ما هو من النوافل أو أعم منها ومن نحو الزكاة والأفضل في الصدقة أن يكون من أحب أمواله إذ الملك ما لصاحبه فقط وغير الصدقة ملك الغير.

قال: ما عندكم ينفد وما عند الله باق، وقد قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران:٩٢] وفى « الروضة » للزندوسي، عن أنس رضى الله تعالى عنه يؤتى برجل يوم القيامة من النار، فيقول له، كيف وجدت مقيلك، فيقول: مقيلى أشد، فيقول الله تعالى: أتفتدي بملأ الأرض ذهبا حتى أخرجك من النار، فيقول العبد: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت عبدي فقد سألتك في دار الدنيا أهون من ذلك أمرتك بإشباع جائع فلم تفعل، وفيه أيضا عن على رضي الله عنه، قال: سألت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن قراءة القرآن، فقال: « **عليك بالصدقة؛ فإنها أمان من النار، قلت: والصلاة عليك، قال: عليك بالصدقة، فإنها في القلب، قلت: والتسبيح، قال: عليك**

بالصدقة؛ فإنها مهور حور العين، قلت: فقيام الليل، قال: لا يقاس على قيام الليل ولكن الصدقة أفضل من قيام الليل بألف مرة، وأما البخيل فحارس نعمته وحازن ورثته والبخل في الطعام من أخلاق الطغام ».

(**والصوم**) قال في « الجامع الصغير »: قال عليه الصلاة والسلام: «**صمت الصائم تسبيح ونومه عبادة ودعاؤه مستجاب وعمله مضاعف**»[١]. وفيه: «**صيام المرء في سبيل الله تعالى يبعد من جهنم مسيرة سبعين عامًا**»[٢]. ولهذا اختار بعض السادات الصوفية صوم الدهر، وبعضهم صوم داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام يصوم يومًا ويفطر يومًا وبعضهم كل اثنين وخميس من كل أسبوع، وبعضهم أيام البيض من كل شهر الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وكل ذلك ورد في فضله وكثرة أجره وثوابه أثر؛ لكن شرطوا في الصوم عدم ضعف البدن وإلا فيمنع الصلاة والصلاة أفضل من الصوم كما في وصايا لقمان لابنه.

(**وكان**) ذلك الشيخ (**بمتابعة الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له**) أي: لنفسه (**سيرة**) أي: ملكة راسخة وطبيعة لازمة لقد صدق من قال[٣]:

يا من تقاعد عن مكارم خلقه ... ليس التفاخر بالعلوم الزاخرة

من لم يهذب علمه أخلاقه ... لم ينتفع بعلومه في الآخرة

كما قيل:

حسن الخلق يلحق ... الأخسة مرتبة الأكابر

وسوء الخلق يلحق ... الأعزة إلى حالة الأصاغر

وروي عنه عليه الصلاة والسلام: « **الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الملح العسل**»[١].

---

(١) أخرجه الديلمى (٣٩٧/٢، رقم ٣٧٦١).

(٢) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (١٩٤/٣) قال الهيثمى: فيه مسلمة بن على وهو ضعيف.

(٣) انظر: فيض القدير ١٣٠/٢.

(**كالصبر**) لا سيما في طريق الطاعة بل أفضل الصبر ذلك والصبر عمل لا يوازنه عمل إذ ثواب سائر الأعمال مما يمكن حسابه وعده وأما ثواب الصبر فغير منتاه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

(**والشكر**) لا سيما على ما وفقه الله تعالى من الطاعة.

قال المص: إن تسبيحة واحدة محتاجة إلى شكر والشكر والتحميد من أفضل الطاعات بل حكمة مشروعية جميع الطاعات هو شكر المنعم، ولهذا يقال: شكر المنعم على المنعم عليه واجب ومن ثمة اختلف في أن التحميد أفضل أو التهليل وإن كان الأصح هو الثانى على ما في « شرح حصن الحصين » لعلي القاري رحمه الباري.

(**والتوكل**) في جميع الأمور وقد عرفت تفصيله.

(**واليقين**) الظاهر أن المراد به معرفته تعالى بذاته وصفاته تحقيقيًا؛ أي: بإيمان تحقيقي لا استدلاليًا كالحكماء والمتكلمين والصوفيين البطالين، وذلك بالذوق والحال والوجدان وذلك إنما يحصل بالاتقاء والتورع وبدوام العبوديه مراعيًا للكتاب ومحافظًا للسنة متوقيا عن الشبهات والمكروهات تاركًا جميع ميولات النفس وهواها.

(**والسخاوة**) قال الجنيد رحمه الله تعالى: أربع توصل الرجل إلى مقام المقربين وإن قل علمه وعمله الحلم، والسخاوة، وحسن الخلق، والتواضع.

وعن علي رضي الله تعالى عنه: (كمال الرجل أربعة: السخاء عند القلة، والتواضع عند الدولة، والعفو عند القدرة، والعطاء بغير المنة).

وفى « وصايا نجم الدين الكبرى »: أوصيه بمواساة الفقراء، وإن لا يمر عليه يوم إلا ويتصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة ممن يعلم أنه يصلي.

(**والقناعة**) عن الشافعي رحمه الله تعالى:

=

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٣١٩/١٠، رقم ١٠٧٧٧). وأخرجه أيضًا: فى الأوسط (٢٥٩/١، رقم ٨٥٠)، والديلمى (٢٠٠/٢، رقم ٢٩٩١)، قال الهيثمى (٢٤/٨): فيه عيسى بن ميمون المدنى، وهو ضعيف. ضعفه المنذرى (٢٧٦/٣) وقال رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى.

obeikandi.com

كن غني القلب واقنع بالقليل مت ولا تطلب معاشًا من لئيم
ولا تكن للعيش مجروح الفؤاد إنما الرزق على الله الكريم

وقال بعضهم: ما سيقت أغصان ذل إلا على طمع بذر

وقيل: الطامع لا يشبع أبدا؛ لأن حروف الطمع كلها مجوفه، وقال أبو بكر الوراق: لو سئل الطمع من أبوك؟ قال: الشك في المقدور. ولو قيل: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل، ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: الحرمان.

وقيل: اطمع من أعظم آفات النفوس وفي كلام بعضهم:

خذ القناعة من دنياك وارض بها واجعل نصيبك منها راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ما راح منها بغير القطن والكفن

قال الشافعي رحمه الله تعالى: الحريص محروم، والرزق مقسوم، والبخيل مذموم، والحسود مغموم.

قال في « العوارف »: لا يكمل شغل العبد بالله الكريم، وله في الدنيا حاجة.

(**وطمأنينة النفس**) الظاهر أن المراد به النفس المطمئنة، وهي على ما ذكره المص في بعض كتبه التي تنورت بنور القلب وتحملت بالأخلاق الحميدة وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية متابعة له في الترقي إلى جانب عالم القدس متنزهة عن خبائث الرجس مواظبة على الطاعات مساكنة إلى رفيع الدرجات حتى خاطبها ربها: ﴿يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ – ٣٠] للتجريد، ويمكن أن يراد باطمئنان النفس اطمئنانه بذكر الله تعالى على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]

(**والعلم، والحلم، والتواضع، والصدق، والحياء، والوفاء، والوقار، والسكون، والتأني، وأمثالها**) كالنصيحة، والشفقة، والخدمة، والألفة، والبشاشة، والاحتمال، والمداراة، والإيثار، والكرم، والفتوة، وبذل الجاه، والمروءة، والتودد، والعفو، والصفح، والتلطف، والبشر، والطلاقة، والثناء، وحسن الظن، وتصغير النفس، وتوقير الإخوان،

وتبجيل المشائخ، والترحم على الصغار، والتوقير على الكبار وغيرها وتفاصيل الكل في المطولات كالإحياء والمنهاج والطريقة.

قال تاج الدين النقشبندي: ومن يريد أن يعرف الشيخ الكامل بالتحقيق يجلس على مقابلته فإن حصل له الجمعية وزال عنه التفرقة أو نقص فهو ولي وإن لم يحصل له التمييز ففي وقت سكون الشيخ يجلس أيضا مقابله متوجهًا إلى الباطن فإن نقص من الخواطر والوساوس فولي مرشد وإلا فيتركه فالشيخ هو الذي بقوة تصرفه ترتفع الظلمات البشرية عن المريد، وتثبت أنوار الجمال الإلهي فبسببه يحصل طلب الذات الأحدية فتحويل القلب عن الأدنى إلى الأعلى وانصراف الرغبة عن الأدنى على يد الشيخ وترك الدنيا على يد المريد وقيل: الشيخ يحيي ويميت.

(**فهو إذا نور من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم**) ومعجزة من معجزاته (**يصلح للاقتداء به**) فيه إشارة إلى ما ذكر أدنى ما يقتدي به إذ الأعلى مما يجب الاقتداء به (**لكن وجود مثله نادر**)؛ أي: عزيز وقليل.

(**أعز**)؛ أي: أشرف قدرًا وأعظم قيمة أو أقل وجودًا.

(**من الكبريت الأحمر**) في بعض اللغات إذا تعذر وجود شيء ولم يكن له وجود، يقال: هو معدوم كالكبريت الأحمر فحينئذ يكون كناية عن كمال الندرة والقلة. وقيل: حجر يضيء في الليل.

حكي أن سليمان عليه الصلاة والسلام وضع في قبة بيت المقدس فيستضاء مقدار ميل في الليل إلى أن تغزل إلى النسوان بضيائه على ما نقل في بعض المواضع عن شرح هذه الرسالة أو غبار كيمياء لو وضع مقدار أذن خلال في مرجل مملوء انقلب المرجل مع ما فيه ذهبًا أو فضة على ما قرر الشيخ الوالد – نور الله قبره، وجعل الجنة مثواه – عند تدريس هذا المحل.

(**ومن ساعدته**) من المساعدة (**السعادة**) أي: الشرف فاعل ساعدت؛ يعني: من وفقه الله تعالى بالسعادة، وقد يفسر بالبخت.

(**فوجد شيخا كما ذكرنا**) إذ لغاية ندرته، ونهاية عزته لا يصادف مثله إلا بتوفيق الله أو بمساعدة البخت كان مصادفة مثله مما لا يكون حصوله مقدورًا.

(**وقبله الشيخ**) فيه إشارة إلى أن الشيخ على تقدير وجوده لا يقبل كل أحد؛ بل إنما يقبل من علم فيه استعدادا وقابلية؛ إذ شرط في فيض العلة الفاعلية استعدادا لعلة القابلية وأيضا أنهم لا يكتمون ولا يبخلون ممن فهموا منه القابلية والاستعداد ويظنون منه السعي والمجاهدة؛ إذ سرهم وديعة عظيمة يحرم إعطاؤها لغير أهلها كما يحرم المنع عن أهلها، ولذا قالوا: لا تنطقوا الحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم. ويروى لا تكشفوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها، ولا تكتموها عن أهلها فتظلموهم.

وفى « شمس المعارف »: ومن منح الجهال علما أضاعه، ومن منع المستوجبين فقد ظلم.

وأيضا قيل: صن القال عممن لم يكن أهلا للقال قال عليه الصلاة والسلام، نحن معاشر الأنبياء، أمرنا أن نتكلم على الناس على قدر عقولهم – كما سيأتي من المص – (**فينبغى أن يحترمه**)؛ أي: يعظمه ويوقره (**ظاهرًا وباطنًا وأما احترام الظاهر فهو أن لا يجادله**) الظاهر أنه عام للمناظره إذ المناظرة بين المتساويين وعند خفاء الأمر وكلام الشيخ عند طالبه يلزم أن يكون حقا في اعتقاده.

فإن قيل: عند كون خلاف الشيخ ظاهرًا بينا ما يفعل الطالب.

قلت: أن هذا قريب أن يكون من قبيل تعليق المحال المحال إذ الموصوف بالصفات السابقة لا يذهب ولا يقول ما يكون فساده ظاهرًا ولو حدث على مقتضى البشرية لا يصر عليه بل يتذكر في أول التنبه.

(**ولا يشتغل بالاحتجاج معه**)؛ أي: على خلافه؛ يعني: لا يشتغل على إتيان الحجة على خلاف الشيخ، وفي لفظ الاشتغال إشارة إلى الرخصة بنحو مرة واحدة إذ لا يعد ذلك مجادلة (**في كل مسألة**) هذا وإن كان ظاهرًا في رفع الإيجاب الكلي؛ لكن المناسب حمله على السلب الكلي لا السلب الجزئي (**وإن علم خطاؤه**) إذا لم يرجع بما هو بمرة

واحدة لا يلزم على تلميذه إلزامه لعل الشيخ يتذكر بعد التأمل ويرجع عن إنكاره بعد ما وصل إدراكه بعد هذا الزمان بالتفكر.

وقد قال تاج الدين في « رسالته »: لا ينبغي للمريد أن يقتدي بجميع أفعال الشيخ بلا أمره إذ يجوز عمل الشيخ بحسب مقامه وحاله، وذلك للمريد سم فمحرم وفيها أيضا ينبغي أن يعتقد المريد أن خطأ الشيخ أقوى من صوابه ولا ينصح للشيخ إن لم يسأله كما أن الشيخ نظام الدين يقرأ المشارق على شيخه؛ لكن لغاية سقامة نسخته يتكلف الشيخ ويتعب على نفسه، فقال نظام الدين يومًا لشيخه: نسختك غلط جدًا أن تأمرني، اطلب عن فلان ونسخته صحيحة، فكان ذلك صعب على الشيخ فغضب عليه.

قال نظام الدين: زال بهذا حالي، وسقطت عن مقامي حتى خفت من الإيمان الشرعي، فاستشفعت من زوجته فرجعت إلى حالي ومقامي بعده، وعن بعض العارفين: أنه قال: أول من رآني صار صديقًا، وآخر من رآني صار زنديقًا.

(**ولا يلقى**)؛ أي: لا (**يضع بين يديه سجادته**) لاستلزامه لتعريض الأمر بالصلاة (**إلا وقت أداء الصلاة**)؛ فإنه حينئذ من كمال التأدب وزيادة التكريم إما إذا علم من الشيخ صلاته ألبتة: إما بالقرائن أو لكون بعض الصلاة كالضحى موظفا عند الشيخ فهي كالوقتية (**فإذا فرغ يرفعها**) لإظهار مسارعة الخدمة (**ولا يكثر نوافل الصلاة بخضرته**) لإيهام سوء أدب وهو ملتزم بكمال حسن الأدب (**ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه**).

قال في « الرسالة التاجية » وإن كان ما أمره خلاف شرع في اعتقاده؛ لأن الشيخ لا يأمره إلا بأمره تعالى فيحسن عقيدته في حق الشيخ ولا يتوقف في العمل بإشاراته.

كما حكي أن بعض تلامذة الشيخ النصر استأذنه منه ليتزوج فأصر زيادة فمنع الشيخ، ثم تزوج بلا إذن فحصل أربع بنات جلسن كلهن في الدكان للعمل السوء فحمل ذلك على فراسة الشيخ وكرامته.

(**وأما احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه في الظاهر لا ينكره**) ولا يرده (**في الباطن**)؛ أي: في قلبه (**لا فعلا ولا قولا**) الظاهر قيد للإنكار والرد (**لئلا يتسم**) من السمة؛ بمعنى: العلامة؛ يعني: أن عدم موافقة الظاهر بالباطن سمة (**بالنفاق**) وعلامة له فلو

فعل ذلك للزم ذلك (**وإن لم يستطع**)؛ أي: إن لم يكن ذلك مقدورًا له (**يترك صحبته إلى أن يوافق ظاهره باطنه**)؛ لأن الإنكار يسد باب الفيض، فلو تكلف مع الإنكار لا يستضيء من أنوار الشيخ.

قال في « العوارف » ومن قال للإستاذ: لا يفلح أبدًا وإن الأدب مع السادات يبلغ صاحبه إلى الدرجات والكمالات، ومن لم يعظم حرمة من تأدب حرم بركة وفيضًا منه.

وقال بعضهم: ما وصل من وصل إلا بالأدب، وما سقط من سقط إلا بترك الأدب.

وقال الجنيد حين رد بعض أصحابه: إن لم تؤمنوا بي فاعتزلوا عني، والحاصل أنه ينبغي له أن يكون منقادًا متسلمًا لأمره؛ بل لمن يقدمه الشيخ أيضا من المريدين وإن كان علمه الظاهري أقل من علم المريد، ويخدمه بالنفس، والمال، والبدن، ويحبه على جميع الخلائق؛ بل على نفسه بموجب لا يكمل إيمان أحد حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده إذ الشيخ خليفة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كما حكي أن خواجة أحرار قدس سره، قال: سمعت من أمير قاسم، قال: ذهبت لزيارة مولانا زين الدين وعنده رجل صوفي أجنبي، فمولانا قال للصوفي: أتحب شيخك أو الإمام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله تعالى، قال: أحب شيخي فغضب عليه مولانا إلى أن شتم بنحو: يا كلب، ويا حمار، فقام الشيخ من غضبه، وراح الرجل، وأنا متحير، فخرج مولانا من بيته بعد زمان وجاء الرجل واعتذر، فقال: عملت خمسين سنة بتفاصيل فقه الحنفي و لم أحصل التبري عن رغبة المكاره ومشتهيات النفس والهوى فيخدمه زمان قليل للشيخ زال مني مثل تلك الرغبات والميولات فسلم الشيخ اعتذاره وأكرمه وحسنه كما في « الرسالة التاجية ».

(**ويحترز عن مجالسة الصاحب**)؛ أي: المصاحب (**السوء**) فضلا أن يتخذه خليلا؛ لأن الصحبة سارية، والطبيعة سارقة، والرجل على دين خليله.

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى في « وصاياه » لتلميذه يوسف السمتي وإياك والانبساط إلى السفهاء ولا تجيبن دعوة، ولا تقبلن أمانة وهدية، وليكن بطانة لك يعرفك خيار الناس، فمتى عرفت بفساد فازدد في الصلاح.

وفي نصائح بعض المشايخ: إياك ومخالطة الناس المحبين للدنيا، المقبلين عليها؛ فإنه يميت القلب.

وقيل: صحبة المخالف سم مجرب قاتل، وإنما يحترز عن ذلك **(ليقصر)**؛ أي: يزول وينعدم حكم **(ولاية)**؛ يعني: تصرف **(شياطين الجن)** من الوساوس وقوة الإغواء **(و)** شياطين **(الإنس)** وهم: الفساق والأشقياء؛ بل مطلق أبناء الدنيا؛ بل أحكام شيطانية الإنس أقوى من أحكام شيطانية الجن؛ لكون أشخاصهم مرئيًا وحيلهم ومكرهم خارجيًا (من صحن قلبه)؛ أي: وسطه الجار متعلق بقوله: ليقصر.

فإن قيل: صحبة السوء؛ أي: بالأشخاص الردية كيف يكون باعثًا لتصرف شياطين الجن، وكيف يكون في القلب قلة إذا وقع الصحبة مع موافق الشيطان ومصاحبهم كانت كنفس الشيطان إذ الأشخاص الردية آلة الشياطين في تأثير أعمالهم في غيرهم وإن في الأفعال الخارجية الجوارحية تأثيرًا قويًا في الملكات القلبية.

قال بعض المشائخ: لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله تعالى مقاله.

قال القشيري: باعد عن أهل الدنيا؛ فإن صحبتهم سم مجرب؛ لأنهم ينتفعون بك وأنت تنقص بهم فإذا قصر ولا يتهم وبطل تصرفاتهم بالاحتراز عن صحبتهم **(فيصغي)** الطالب عن **(لوث الشيطانية)**؛ أي: لوث وخباثة من طرف الشيطان أو اللائق بالشيطان فيبعد بسببه عن فيض الشيخ ورضائه **(وعلى كل حال يختار الفقر)** مع الصبر عليه، قال بعض في وصاياه: اختر الفقر على الغنى؛ فإن فيه الخفة، والصفاء، وارض باليسير من الدنيا، والقناعة: كنز لا يفنى؛ وليكن عيشك من كسب اليد ولا تدخر لأجل الغد؛ فإن الغد يجيء برزقه، والله كان في كفالته واقصد إلى رتبة المساكين وهي مقصد سيد المرسلين.

[ومن الكامل][1]:

وَاسْتَغْنِ مَا أَغْنَاكَ رَبُّكَ بِالغِنَى وَإِذَا تُصِبْكَ خَصَاصَةٌ فَتَجَمَّلِ

---

(١) البيت لعبد قيس بن خُفَاف البُرْجُمِي من قصيدة له في المفضليات: (ص ١٥٥٥ - ١٥٦١). وهو شاعر جاهلي عاصر النابغة ووفد على النعمان- وذكرهُ السيوطي في شرح شواهد المغني: (١/ ٢٧١).

أي: إن تصبك فقر ومسكنة فاصبر ولا تضجر؛ بل أظهر الغنى، قال بعضهم: من استغنى بالله عن الناس أمن من عوارض الناس، ومن أظهر الفقر إلى الناس لا ينفك عن الرذالة ومن أظهر الغنى عن الناس واقتصر الافتقار إلى رب الناس يفتقر إليه كل شيء حتى ملوك الناس.

(**ثم اعلم**) يريد: أن يذكر بعض ما يكون كالعمدة من شرائط الصوفية ونبه على زيادة كونه مهما عندهم بقوله: اعلم، فقال: (**إن التصوف**)؛ أي: التخلق بالأخلاق الإلهية على ما فسر به المص في بعض مصنفاته.

قال السيوطى في « شعلة النار »: التصوف علم الحال لا علم المقال، وهو أن يتخلق بمحاسن الأخلاق التي وردت السنة النبوية بها ولهذا قالوا: التصوف ارتكاب كل خلق سني وترك خلق دني.

وقيل: التصوف أربعة أحرف: التاء توبة عن المعاصي، والصاد صبر على البلاء، والواو وفاء بالعهد، والفاء فراغ عن جميع الخلق.

وقال الجنيد: التصوف حفظ الأوقات، وعدم مطالعة العبد غير حاله، ولا يوافق غير ربه، ولا يقارن غير وقته، وعن سهل بن عبدالله الصوفي من صفى من الكدر وامتلاء في الفكر، وانقطع إلى الله تعالى من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر.

(له) أي: التصوف (**خصلتان**) كالركن له (**الاستقامة والسكون من الخلق**) لعل المراد: عدم الاضطراب منهم يعفو فرطاتهم، وتجاوز قصورهم، ولا يشتغل بقيد انتقامهم؛ بل يجتهد على إحسانهم مسيئهم ومحسنهم على حذاء ما فهم من تقريره الآتي هنا.

(**فمن استقام**) مع الله تعالى (**وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم**) عن الجنيد رحمه الله تعالى: أربع يرفع الرجل إلى أعلى الدرجات، وإن قل علمه، وعلمه: الحلم، والتواضع، والسخاء، وحسن الخلق، وهو كمال الإيمان (**فهو صوفي والاستقامة**) التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١٥] في سورة هود وعليه

حمل قوله عليه الصلاة والسلام: « **شَيَّبَتْنِي سورة هُودٌ** »[١] وقيل: إن جميع مقاصد القرآن رجعة إلى الاستقامة، ولهذا قيل: إن الفاتحة مشتمله على مقاصد القرآن، والمقصود من الفاتحة هو الاستقامة المفادة من قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

(**أن يفدي**) من الفداء (**حفظ نفسه**)؛ أي: ميولها وشهواتها (**النفسه**)؛ أي: لخالص نفسه، أو لحفظ نفسه، أو لإكمال نفسه، أو لنجاة نفسه، ولا يخفى أن ذلك إنما يتحصل بتحميل الأفعال الشاقة من الأحكام الإلهية والسنن النبوية والسيرة الأحمدية (**و**) معنى (**حسن الخلق بالناس أن لا تحمل الناس على مراد نفسك**) يعني: كل شيء يريد نفسك وتميل وتشتهي في معاملة الخلق لا ترسل نفسك عليهم؛ بل تمنعها منه (**بل تحمل نفسك على مرادهم**) يعني: توافقهم وتعطي آمالهم في كل شيء يرجون ويترقبون منك (**ما لم يخالف الشرع**) قيل: سُئل عنه صلى الله تعالى عليه وسلم عن معنى قوله عليه الصلاة والسلام: « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق؟ قال: صل من قطعك، واعف عمن ظلمك، وأحسن من أساء إليك** »[٢].

قيل: أن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] مجمع مكارم أخلاق حسان، قال القاضي عياض في شفائه، روي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم نزلت عليه قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآيه سأل جبريل عن تأويلها؟ فقال جبريل: حتى أسأل العالم، ثم ذهب، ثم أتاه، فقال: « **يا محمد؛ إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وقال له: الصبر على ما أصابك** »[٣].

---

(١) أخرجه الترمذى (٤٠٢/٥، رقم ٣٢٩٧) وقال: حسن غريب، والحاكم (٣٧٤/٢، رقم ٣٣١٤) وقال: صحيح على شرط البخارى. وأخرجه أيضًا: ابن أبي شيبة (١٥٢/٦، رقم ٣٠٢٦٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٦٧٠/٢، رقم ٤٢٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقى (١٩٢/١٠، رقم ٢٠٥٧٢). وأخرجه أيضًا: الديلمى (١٢/٢، رقم ٢٠٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٢٤/١، رقم: ٢٥).

obeikandi.com

وقيل: إن مكارم الأخلاق مع كثرتها منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله.

وفي « جامع الصغير »: أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن ظلمك.

وفى « وصايا أبي حنيفة » رحمه الله تعالى ليوسف السمتي: خذ العفو، واترك كل من يؤذيك، وبادر في إقامة الحدود، وعد مرضاهم ومن قعد منهم عنك، فلا تقعد أنت منه، وصل من جفاك، وأكرم من أتاك، وكلم بالجميل الحسن لمن يكلمك بالقبيح السوء، ومن مات فشيعه، ومن له فرح فهنئه، ومن له مصيبة فعزه عنها، ومن أصابه هم فتوجع له به، انتهى.

(**ثم إنك سألتني عن العبودية، وهي ثلاثة أشياء: أحدها: محافظة أمر الشرع**) والمداومة عليه بلا ترك، ولا هوان.

(**وثانيها: الرضاء بالقضاء**) أي: الحكم الإلهي (**والقدر**)؛ أي: التقدير الإلهي، وللقوم وجوه بالفرق بينهما؛ لكن المناسب هنا اتحادهما (**وقسمة الله**) خصوصًا في أمر الرزق.

(**وثالثها: ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالى**)؛ لأن مخالفة النفس أساس الأمر بين العبد وبين الله تعالى فلا تغفل عن الله تعالى بالاشتغال على حظ النفس والاتباع على هواها.

وقيل: من رخص النفوس غاب عن الملك القدوس.

قال القشيري: أصل المجاهدة: فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات.

(**وسألتني عن التوكل وهو أن يستحكم**) من الاستحكام (**اعتقادك بالله تعالى فيما وعد**) بنحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] كما يدل عليه قوله (**يعني: أن تعتقد أن ما قدر**)؛ أي: قدر الله (**لك سيصل**) ويمكن أن يكون لفظ السين للتأكيد بنحو قوله عليه الصلاة والسلام سترون ربكم (**إليك لا محالة**)؛ أي:

ألبتة (**وإن اجتهد**) جميع (**من في العالم على صرفه عنك**)؛ أي: على منع ذلك منك فإن المقدر كائن لا يزال ويمتنع تخلف مراد الله عن إرادته.

فإن قيل: كثيرًا ما نرى أشخاصًا كثيرة يضطرون في أمر الرزق لعدم الاكتساب؛ بل يموت جيعانا، قلنا: لعل ذلك من عدم توكله أو قلته. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]؛ إذ فهم منه شرطية التوكل، وقد أخذ في التوكل تفويض أمره إليه تعالى طالبا عرفانه وقربه ورضاءه منقادا لحكمة من النفع، والضر، والمحنة، والشر راضيا بقضائه، وشاكرًا لنعمائه وصابرًا لبلائه.

(**وما لم يكتب لك**) أي: الشيء الذي لم يقدر لك الله تعالى (**لن يصل إليك في جميع أوقاتك المستقبلة وإن ساعدك**) أي: أعانك ونصرك (**جميع العالم**)؛ لأن إرادة الله تعالى غالب على إرادتهم فلا فائدة في إضاعة العمر لتحصيله غير استصعاب النفس والمشقة؛ فإن قيل: فهذا يقتضي حرمة الكسب وهذا عين مذهب؛ نحو: الكرامية يحرمونه لاستلزامه رفض التوكل الواجب، ومخالف لمذهب أهل السنة من فرضية الكسب للمضطر لنفسه أو عياله ورخصته لغيره.

قلنا: لعل المراد: المنع عن إفراط الكسب كما يرى عن بعض أبناء الدنيا يعطلون أنفسهم بصرف أوقاتهم إلى اكتساب متاع لدنيا وهذا القدر لا ينافي وجوب التوكل؛ لأن التوكل صفة القلب وهو الثقة بالله والاعتماد عليه بأنه يرزقه ولو بسبب نحو الكسب بلائقة في الكسب؛ فإنه ضلال وإن الأنبياء كلهم يتوكلون مع أنهم مكتسبون كآدم فإنه: زراع، وإدريس خياط، ونوح نجار، وإبراهيم بزاز، ومحمد صلى الله تعالى عليهم أجمعين غاز كما في الخبر في « جامع الصغير »: « **بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيَّ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حَتَّى يعبدوا اللهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي** »[1] الحديث.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٥٠، رقم ٥١١٤)، والحكيم (١/٣٧٥)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/٧٥، رقم ١١٩٩)، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٥/٢٦٧) قال الهيثمى: فيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه ابن المدينى وأبو حاتم وغيرهما، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات.

(**وسألتني عن الإخلاص هو أن يكون أعمالك لله تعالى لا يرتاح**)؛ أي: لا يفرح (**قلبك بمحامد الناس**)؛ أي: مدائحهم (**ولا يتأسى بمذامهم**)؛ أي: لا يحزن؛ يعني: لا يغتر بمن يمدح ولا يمل بقول من يذم، قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] فالمدح والذم عنده سيان.

(**واعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق**) أفراد الرياء بالذكر من بين سائر الذميمة لمناسبة الإخلاص الذي سئل عنه؛ لأنه مقابلة وكمال توضيحه يتوقف عليه أو حصول الإخلاص إنما يكون بترك الرياء أو لمناسبة قوله لا يرتاح إلى آخره إذًا لارتياح المذكور هو الرياء أو لأن ضرره عظيم ووقوعه كثير وخلاصه عسير.

(**وعلاج إخراجه أن تراهم**)؛ أي: تعتقدهم (**مسخري القدرة**)؛ أي: الخلق الذين يقصد منهم تعظيمه مسخرين لقدرة الله تعالى؛ يعني: ليس لهم قدرة على شيء في جنب قدرة الله تعالى؛ لأن النافع والضار هو الله تعالى (**وتحسبهم كالجمادات**) التي لا حركة لها اختيارية؛ بل اضطرارية إذ ليس للعبد قدرة مؤثرة وإن كان له قدرة.

اعلم أن هذا مبني على أصل الأشعري وإلا فالماتريدية لا يرضون على ذلك لاستلزامه الجبر المحض، ويقولون: أن المؤثر في فعل العبد مجموع قدرة الله تعالى وقدرة العبد نعم التشبيه بالجمادات لا يقتضي اتحاد عين حكم الجماد إذ المشبه مغاير للمشبه به والأصل: كون الوجه أقوى في المشبه به؛ لكن لا يتحمل على ذلك مذهبهم فافهم.

(**في عدم قدرة**) على (**إيصاله الراحة والمشقة**) لعل طلب التعظيم إما للوصول إلى الراحة أو للخلاص عن المشقة وإلا فلا يناسب قوله من تعظيم الخلق (**لتخلص**) متعلق بقوله تحسبهم (**من مراءاتهم**)؛ أي: الرياء إليهم (**ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة**) على شيء سيما النفع والضر.

=

وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد (ص ٢٦٧، رقم ٨٤٨)، وابن أبي شيبة (٦/٤٧١، رقم ٣٣٠١٦)، والطبراني في الشاميين (١/١٣٥، رقم ٢١٦).

(**لن يبعد عنك الرياء**) ومن علاجه ملاحظة الضرر والمترتب عليه واستلزامه قلب الموضوع؛ إذ العمل للموضوع لعبادة الرب يكون مستعملا للناس ويلزمه استخفاف عبادة الرب وهو عالم ما في ضميره.

obeikandl.com

النصيحة التاسعة عشر

اعمل بما تعلم

• أيها الولد..!!

الباقي من مسائلك بعضها مسطور في مصنفاتي، فاطلبه ثمّة، وكتابة بعضها حرام، اعمل أنت بما تعلم، لينكشف لك ما لم تعلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١).

(**أيها الولد: الباقي من مسائلك**)؛ يعني: إلى الآن خرج الجواب عن جميع ما سألت؛ إلا أمرين:

فأحدهما قوله: (**بعضها مسطور**)؛ أي: مكتوب (**في**) أكثر (**مصنفاتي**) أو جميع مصنفاتي من التصوف؛ فإن كنت حريصا له (فاطلبه ثمة) كالإحياء، والمنهاج، وبداية للهداية؛ لعل ذلك البعض إنما يكون معلوما فيما بينهما وكتابة بعضها حرام.

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ١\ ٧١: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه.

وقال الكلاباذي في " بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار " ١/ ١٣٠: فقد شرط لوراثة هذا العلم العمل بعلم الدراسة الذي هو علم الاكتساب، وهو علم الأحكام بعد أحكام علم التوحيد، وهذا علم الدراسة، وعلم الوراثة: علم آفات النفس، وآفات العمل، وخدع النفس، وغرور الدنيا، وأخبر أن من عمل بعلم الاكتساب ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم، وهو علم الإفهام، وفي نسخة « علم الإلهام »، والفراسة الذي هو النظر بنور الله عز وجل؛ فإنه قال صلى الله عليه وسلم: « اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله عز وجل »، وقال صلى الله عليه وسلم: « ومن ورثه الله تعالى هذا العلم، فهو الذي شرح الله صدره للإسلام »، فهو على نور من ربه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « النور إذا دخل القلب انشرح وانفتح »، فقيل: وما علامة ذلك؟ فقال: « التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل دخوله، ومن تجافى عن الدنيا كشف عن سره الحجب، فصار الغيب له شهودا » قال حارثة رضي الله عنه: عزفت نفسي عن الدنيا، فأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا.

obeikandl.com

وثانيهما: قوله: (**وبعضها من السؤالات التي كتابتها**) لعدم إحاطة العبارة أو لامتناع التعبير وتكلمها حرام لعدم الإمكان كما عرفت أنه من الوجدانيات لا يمكن الفهم بلا ذوق أو لأنه سر لا يجوز إفشاؤه لغير أهله، والأهلية إنما تحدث بعد الوصول إلى ذلك المقام، وبعد الوصول لا يبقى حاجة إلى الكتاب والكلام، فهذا كالمستدرك بما سبق لعل وجه التكرار لزيادة التقدير والاهتمام إلى مباشرة أسبابه ومواظبة لوازمه كما يشير إليه قوله: (**اعمل أنت بما تعلم**) من العلوم الشرعية الإلهية والأحكام السنية النبوية بشرائط جانبي ملكات الأخلاق ورعاية قيود علم الزهد (**لينكشف لك**) لأجل أن ينكشف أو إلى أن ينكشف لك (**ما لم تعلم**) ما أشكل عليك معرفته؛ يعني: أن أردت معرفة هذا النوع من مسألتك فاجتهد العمل فيظهر لك ذلك فهذا معنى ما روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم من عمل بما علم رزقه الله ما لم يعلم.

obeikandl.com

النصيحة العشرون

لا تسألني قبل الوقت

• أيها الولد..!!

بعد اليوم لا تسألني ما أُشكل عليك إلا بلسان الجنان، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [الحجرات:٥].

واقبل نصيحة الخضر عليه السلام حين قال: ﴿فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٧٠].

ولا تستعجل حتى تبلغ أوانه يكشف لك وتراه: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧].

فلا تسألني قبل الوقت، وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ [فاطر:٤٤].

(**أيها الولد: بعد اليوم**) الظاهر؛ أي: بعد اليوم الذي قلت لك وبعضها كتابتها وتكلمها حرام (**لا تسألني**)؛ يعني: لا تلح في السؤال ما أشكل عليك الحاحا (**هو بلسان الجنان**)؛ أي: بلسان الحال؛ لعل ذلك بقرينة فكأنه لما منع سؤال هذا الجنس أعاد سؤاله بل أقدم عليه على ما قيل الإنسان حريص على ما منع منه فأعاد المنع بحجته على ما يشير إليه بقوله اقتباسا.

(**ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم**) يعني: الخير ليس في السؤال بل الخير في الصبر إلى أن يظهر المقصود نفسه، ثم أيد ذلك بقصة خضر عليه السلام، فقال: (**واقبل نصيحة خضر**) إلى موسى عليهما السلام وهو قوله: (**فلا تسألني**) الأظهر والأوفق أن يذكر قبيلة ويقال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي (عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾) يعني: إن أردت متابعتي لا تسألني فيما نبهت لك إلى أن أذكره لك إذ رب أمر تسيء في البداية؛ لكنه في النهاية جيد حصن فلو أجيب إلى جنس مثل هذا السؤال يرى كريها ومنكرًا ولو صبر وأخر إلى أن يظهر حقيقة ذلك الأمر لظهر حسنه فالاستعجال في الجواب

ليس فيه مصلحة؛ بل كراهة وباعث إلى سوء اعتقاد (**ولا تستعجل**) في خروج الجواب (**حتى تبلغ آوانه**)؛ أي: آوان المسئول عنه (**ينكشف لك**) يعني: إن لم تستعجل إلى ظهور زمانه ينكشف لك مسألتك وإن استعجلت يصعب ذلك بل يكون باعثا إلى حرمانك كما قال الفقهاء: من استعجل الشيء قبل آوانه عوقب بحرمانه، وقيل أيضا: الاستعجال شؤم، والمستعجل محروم الاستقصاء شؤم، والمستقصى محروم.

(**وأرأيت**) كأنه توبيخ؛ إذ مثله إنما استعمل فيما يكون الأمر بينا والحكم ظاهرًا قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧] أول الآية ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧] قال البيضاوي: كأنه منه خلق لفرط استعجاله وقلة ثباته كقولك خلق زيد من الكرم جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع؛ لعل المقصود هنا أن الروية محققة فلا فائدة في الاستعجال قبل وقته والأمور مرهونة بأوقاتها؛ لكن الإنسان لكونه مخلوقًا من العجلة من عادته أن يستعجل قبل وقته (**فلا تسألني قبل الوقت**) فانتظر إلى وقته والوقت مشروط بالسير والسلوك كما يشير إليه (**ويتقن**)؛ أي: اعلم علما يقينيا (**أنك لا تصل إلى ذلك الوقت**)؛ أي: الوقت الذي ينكشف لك مطلوبك (**إلا بالسير**) والسلوك في طريقة وذلك السير إنما يحصل بما يشير إليه آنفا من قوله: اعمل أنت بما تعلم إلى آخره حاصله السير على العلائق النفسانية والعوائق الجسمانية والمرور عن حجب مواد الهيولانية التي ينتكس النفس بالاشتغال بها والتلذذ بمراداتها في مهاوي عالم الرجس والزور إلى أن يصل إلى أعياد وصال القدس والنور التي هي ظهور الوقت المسئول ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ [الروم:٦] لعل المعنى المراد هنا أيضا: أن رؤية المطلوب منوطة بالسير إذ الواصل إلى ذلك المطلوب فيما قبل إنما وصل به. والله أعلم.

obeikandi.com

النصيحة الحادية والعشرون

إن تسر تر العجائب

• أيها الولد..!!

بالله؛ إن تسر تر العجائب في كل مترل، وابذل روحك؛ فإن رأس هذا الأمر بذل الروح، كما قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى لأحد من تلامذته: (إن قدرت على بذل الروح فتعال، وإلا فلا تشتغل بالترهات الصوفية).

(**أيها الولد**) كأن المخاطب لم ينزجر بما ذكر بل ظن من أحواله إمارة الإنكار فأعاد هذا الحكم بالتأكيد القسمى، فقال: (**بالله إن تسر**) سيرًا صادقًا (**تر العجائب**) والغرائب التي لا تحيطها العبارات ولا يقررها الكلمات ولا يخطره الخواطر في الدهور والأوقات حال كون تلك العجائب (**في كل مترل**) من منازل السير فيه إشارة إلى كثرة السير حيث اشتمل منازل كثيرة لعل المراد من كل منزلة طبقة ومرتبة من مراتب النفس، ثم أراد أن يبين السير وطريقه، فقال: (**أبذل**) من البذل؛ بمعنى: الصرف (**روحك**) الذي شأنه الاستغراق في مطالعة الله تعالى وجلاله وجماله من كدورة من وساوس النفس (**فإن رأس هذا الأمر**) أي: السير أي رأس مال هذا الأمر الذي سئل عنه وأريد الوصول إليه (**بذل الروح**) فهذا الأمر إنما يمكن حصوله ببذل الروح لعل المراد من هذا السير الخفى المكتوم هو ما قالوا من نحو المكاشفات والتجليات والوصول الذي يتعذر معرفة ماهيات كل منها بغير شيء من الذوق كما أشار إليه المص مرارًا (**قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى لأحد من بعض تلامذته: إن قدرت على بذل الروح فتعال**) يعني: تصلح لخدمتى، وأبقيك في خدمتى، (**وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية**)؛ يعني: الفائدة إنما تترتب على بذل الروح لأعلى ترهاتهم.

النصيحة الثانية والعشرون

أنصحك بثمانية أشياء

- **أيها الولد..!!**

إني أنصحك بثمانية أشياء، اقبلها مني لئلا يكون علمك خصمك يـوم القيامـة، تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة:

أما اللواتي تدع:

فأحدها: ألا تناظر أحدًا في مسألة ما استطعت؛ لأن فيها آفات كثيرة، فإثمها أكبر من نفعها، إذ هي منبع كل خُلق ذميم كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها.

نعم، لو وقع مسألة بينك وبين شخص أو أقوام، وكانت إرادتك فيها أن تظهـر الحق ولا يضيع، جاز البحث، لكن لتلك الإرادة علامتان:

إحداهما: ألا تفرّق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك.

والثانية: أن يكون البحث في الخلاء أحبّ إليك من أن يكون في الملأ.

واسمع إني أذكر ههنا فائدة:

واعلم أن السؤال عن المشكلات عرض مرض القلب إلى الطبيب، والجواب لـه سعي لإصلاح مرضه.

واعلم أن الجاهليين: المرضى قلوبهم، والعلماء: الأطباء.

والعالم الناقص لا يحسن المعالجة، والعالم الكامل لا يعالج كل مريض، بل يعالج مـن يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح، فإذا كانت العلة مزمنة أو عقيمًا لا تقبل العـلاج، فحذاقة الطبيب فيه أن يقول: هذا لا يقبل العلاج، فلا تشغل فيه بمداواتـه لأن فيـه تضييع العمر.

ثم اعلم أن مرض الجهل على أربعة أنواع: أحدها يقبل العلاج، والباقي لا يقبل.

- أما الذي لا يقبل:

فأحدهما: من كان سؤاله واعتراضه عن حسد وبغض، فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه، فلا يزيد له ذلك إلا بغضًا عداوة وحسدًا، فالطريق ألا تشتغل بجوابه، فقد قيل[١]:

كل العداوة قد تُرجَى إزالتُها إلا عداوة مَن عاداك عن حَسَدٍ

فينبغي أن تعرض عنه، وتتركه مع مرضه؛ قال الله تعالى:﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم:٢٩].

والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار في زرع علمه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»[٢].

---

(١) انظر: فيض القدير ٥٤٩/٣، وفيه: ويكفي في قبح الحسد كما في "الإحياء": أنه أول ذنب عصى الله به لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود إلا الحسد كما أن قابيل لم يحمله على قتل هابيل إلا الحسد، وقد عم وقوعه وطم، قال في "المنهاج": ولا حيلة في دفعه حتى أعرف بعض الناس بذل جهده في استجلاب دواعي التآلف وأسباب كف التنكر مع شخص من أقرانه فلم يجد و لم يفد.

تنبيه: قالوا: كلما عظمت النعمة على العبد كثرت حساده وعظمت الشماتة فيه وأقول كما قال شيخنا الشعراوي: من أعظم نعم الله علي أن حكمي بين الحسدة كبهلوان يمشي علي الحبل بقبقاب وجميع الأعداء والحساد والمتعصبين من أهل مصر واقفون تحتي ينتظرون لي زلفة لأنزل إلى الأرض متقطعا فما تغيب الشمس علي أو تطلع كل يوم وأنا لم أقع في شيء يشمتون بي فيه وما في عيني قطرة وهو من نتائج الحقد والحقد من نتائج الغضب فهو فرع الغضب والغضب أصل أصله وله أسباب وعلامات وعلاج وهو من أمراض القلب فمن لم يرزق قلبا سليما منه فعليه بمعالجته ليزول ولعلاجه أدوية مبينة في كتب القوم كالإحياء والمنهاج.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٦/٤، رقم ٤٩٠٣). وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (١٤٠٨/٢ رقم ٤٢١٠) قال البوصيرى (٢٣٨/٤): هذا إسناد فيه عيسى بن أبى عيسى وهو ضعيف. والبيهقى فى الشعب (٢٦٧/٥، رقم ٦٦١١) قال المناوى (٢٤٧/٤): قال العامرى فى شرح الشهاب: صحيح.

قال العراقي في تخريج آحاديث الإحياء ٤٥\١١: أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة. وقال البخاري: لا يصح، وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن.

والثاني: أن تكون علته من الحماقة، وهو أيضا لا يقبل العلاج كما قال عيسى عليه السلام: (إني ما عجزت عن إحياء الموتى، وقد عجزت عن معالجة الأحمق).

وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنًا قليلا، ويتعلم شيئًا قليلا من علوم العقل والشرع، فيسأل ويعترض من حماقته على العالم الكبير، الذي أمضى عمره في العلوم: العقلي والشرعي، وهذا الأحمق لا يعلم، ويظن أن ما أُشكل عليه هو أيضا مُشكل للعالم الكبير، فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة، فينبغي ألا يشتغل بجوابه.

والثالث: أن يكون مسترشدًا، وكل ما لا يفهم من كلام الأكابر يحمل على قصور فهمه، وكان سؤاله للاستفادة، لكن لكونه بليدًا لا يدرك الحقائق، فلا ينبغي الاشتغال بجوابه أيضا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « نحن معاشر الأنبياء أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »[1].

وأما المرض الذي يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشدًا عاقلا فهمًا، لا يكون مغلوب الحسد والغضب وحب الشهوة والجاه والمال.

ويكون طالب الطريق المستقيم، ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد، وتعنّت وامتحان، وهذا يقبل العلاج، فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك إجابته.

والثاني مما تدع: وهو أن تحذر وتحترز من أن تكون واعظًا ومذكرًا؛ لأن آفته كثيرة إلا أن تعمل بما تقول أولا، ثم تعظ به الناس، فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام: (يا ابن مريم؛ عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستح من ربك).

وإن ابتليت بهذا العمل فاحترز عن خصلتين:

---

(١) أخرجه الديلمى (٣٩٨/١، رقم ١٦١١). قال العجلونى (٢٢٥/١): رواه الديلمى بسند ضعيف.

قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٥٧/١: رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه وعند أبي داود من حديث عائشة:" أنزلوا الناس منازلهم".

الأولى: عن التكلف في الكلام بالعبارات والإشارات والطامات والأبيات والأشعار؛ لأن الله تعالى يبغض المتكلفين، والمتكلف المتجاوز عن الحد، يدل على خراب الباطن وغفلة القلب.

ومعنى التذكير: أن يذكر العبد نار الآخرة، وتقصير نفسه في خدمة الخالق، ويتفكر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لا يعنيه، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم سلامة الإيمان في الخاتمة، وكيفية حاله في قبض ملك الموت، وهل يقدر على جواب منكر ونكير؟ ويهتم بحاله في القيامة ومواقفها، وهل يعبر عن الصراط سالما أم يقع في الهاوية؟

ويستمر ذكر هذه الأشياء في قلبه، فيزعجه عن قراره، فغليان هذه النيران، ونوحة هذه المصائب يسمّى تذكيرا.

وإعلام الخلق وإطلاعهم على هذه الأشياء، وتنبيههم على تقصيرهم وتفريطهم، وتبصيرهم بعيوب أنفسهم لتمسّ حرارة هذه النيران أهل المجلس، وتجزعهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضي بقدر الطاقة، ويتحسّروا على الأيام الخالية في غير طاعة الله تعالى.

وهذه الجملة على هذا الطريق تسمى وعظًا، كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد، وكان هو وأهله فيها فتقول: الحذر الحذر، فروا من السيل!! وهل يشتهي قلبك في هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكلف العبارات، والنكت والإشارات؟ فلا تشتهي البتة؛ فكذلك حال الواعظ، فينبغي أن يجتنبها.

والخصلة الثانية: ألا تكون همّتك في وعظك أن ينعر الخلق في مجلسك أو يظهروا الوجد، ويشقوا الثياب، ليقال: نعم المجلس هذا؛ لأن كله ميل للدنيا والرياء، وهو يتولد من الغفلة، بل ينبغي أن يكون عزمك وهمّتك أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة، ومن المعصية الى الطاعة، ومن الحرص إلى الزهد، ومن البخل إلى السخاء، ومن الشك إلى اليقين، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الغرور إلى التقوى، وتحبب إليهم

الآخرة، وتبغّض إليهم الدنيا، وتعلمهم علم العبادة والزهد؛ ولا تغرهم بكرم الله تعالى عز وجل ورحمته؛ لأن الغالب على طباعهم الزيغ عن نهج الشرع، والسعي فيما لا يُرضي الله تعالى به، والاشتغال بالأخلاق الرّدية.

فألق في قلوبهم الرعب، وروّعهم، وحذرهم عما يستقبلون من المخاوف؛ ولعل صفات باطنهم تتغير، ومعاملة ظاهرهم تتبدل، ويُظهروا الحرص والرغبة في الطاعة والرجوع عن المعصية.

وهذا طريق الوعظ والنصيحة، وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال وسمع، بل قيل: إنه غول وشيطان، يذهب بالخلق عن الطريق ويهلكهم، فيجب عليهم أن يفروا منه؛ لأن ما يفسد هذا القائل من دينهم، لا يستطيع بمثله الشيطان، ومن كان له يد وقدرة يجب عليه أن يتزله عن منابر المسلمين ويمنعه عما باشره؛ فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثالث مما تدع: أنه لا تخالط الأمرء والسلاطين ولا تراهم، لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة، ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم؛ لأن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق والظالم، ومن دعا لطول بقائهم فقد أحبّ أن يعصى الله في أرضه.

والرابع مما تدع: ألا تقبل شيئًا من عطاء الأمراء وهداياهم وإن علمت أنها من الحلال؛ لأن الطمع منهم يفسد الدين، لأنه يتولد من المداهنة، ومراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم.

وهذا كله فساد في الدين، وأقلّ مضرّته أنك إذا قبلت عطاياهم، وانتفعت من دنياهم أحببتهم، ومن أحبّ أحدًا يحب طول عمره، وبقاءه بالضرورة، وفي محبة بقاء الظالم إرادة في الظلم على عباد الله تعالى، وإرادة خراب العالم، فأي شيء يكون أضر من هذا على الدين والعاقبة؟.

وإياك وإياك أن تُخْدَع باستهواء الشياطين أو قول بعض الناس لك: بأن الأفضل والأولى أن تأخذ منهم الدينار والدرهم، وتفرّقها بين الفقراء والمساكين؛ فإنهم ينفقون على الفسق والمعصية، وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم؛ فإن اللعين قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة، وآفته كثيرة، ذكرناها في «إحياء العلوم» فاطلبه ثمة.

(**أيها الولد**) كأنه أتم ما هو النصب مما سئل إلى هنا فما ذكر فيما بعد كالخاتمة والتذنيب لما ذكر قبل.

(**إني أنصحك بثمانية أشياء اقبلها مني لئلا يكون علمك خصما عليك يوم القيامة**) فإذا لم تعمل بها يكون علمك خصما لك لعدم جريك على مقتضى العلم لا يخفى أن هذا يقتضي أن يكون تلك الثمانية كلها مختصا بالعالم وأنت ستعلم أن بعضًا منها عام للعالم وغيره إلا أن يقال الكلام على التغليب أو فهم ذلك إنما هو بطريق مفهوم المخالف ومن شرطه أن لا يكون إخراج الكلام لوقعة وحادثة وهنا لما كان المخاطب عالما عبر به أو لغير ذلك ثم المراد من خصومة العلم إما كونه معاقبا لعدم جريه على مقتضى علمه وعدم وضعه العلم فيما وضع له فكأن العلم كان خصما له لكونه معاقبًا لأجله وأما أن العلم يكون خصمه حقيقة فيدعى عند الله تعالى بأنه ضيعني و لم يؤد حقي فإنه تعالى قادر على ذلك؛ لكن ذلك موقوف على السمع؛ إذ مثله إنما يدرك بالرواية لا بالدراية وكونه مسموعًا في بعض الأعمال كالصلاة، فعلى تقدير ثبوته وكونه على حقيقة لا يكون مقيسا عليه إذ من شرط القياس أن لا يكون ثبوت الأصل المقيس عليه خارجا عن سنن القياس.

(**تعمل منها أربعة**)؛ يعني: أربعه منها تعمل، وكذا قوله: (**وتدع منها أربعه: أما اللواتي**) جمع: التي (**تدع**) التقديم للاهتمام؛ إذ التخلية مقدمة على التحلية، وفي الثواب أكثر، وفي العمل والإتيان أشد وأصعب، وفي الحديث: « **ترك ذرة من محارم الله تعالى خير من عبادة الثقلين** »، وفي رواية: « **من منهيات الله تعالى** »، وفي حديث آخر: « **ترك الدنيا أمر من الصبر وأشد من حطم السيوف** »[1].

---

(١) أخرجه الديلمى (٢/٧٠، رقم ٢٣٩٥).

(**أحدها: أن لا تناظر**) من المناظرة؛ بمعنى: المجادلة؛ إذ أصل المناظرة وإن كان بحثًا موضوعًا لإظهار الصواب وكان واجبا في بعض المحال فضلا عن الجواز كما يشير؛ لكن عند تطرق الآفة يخرج عن الصلاحيه إذ ثبوت الأشباء إنما هو عند سلامة الأسباب وانقطاع الموانع.

(**أحدًا في مسألة**) أي: مسألة من العلوم الدينية الأصلية والفرعية أو غيرهما إذ النكرة في سياق النفي عامة وقوله: (**ما استطعت**) لعله تأكيد للنفي للمبالغة فيه أو إشارة إلى جوازها عند الضروره كالتعين عند ظهور ملحد قاصد بالدين فإنها عند ذلك فرض وإن لم يمكن دفع الآفة؛ لأن الضرر القليل يرتكب لدفع الضرر الكثير.

(**لأن فيها**) أي: في المناظرة (**آفة كثيرة وإثمها من نفعها كبير**) ولا يرتكب الضرر الكثير للنفع الجزئي (**إذ هي**)؛ أي: المناظرة (**منبع كل خلق ذميم**)؛ أي: محل يظهر فيه ذلك وكل للتكثير وإلا فظاهر أنه على الحقيقة لا يكون للكل منبعًا (**كالرياء**) بالنسبة إلى من غلب من المناظرين (**والحسد**) من جانب من كان مغلوبا (**والكبر**) من الغالب (**والحقد**) من المغلوب (**والعداوة**) الظاهر من المغلوب أيضًا (**والمباهات**)؛ أي: التفاخر من الغالب، وقوله: (**وغيرها**) بعد الكاف في قوله: كالرياء تأكيد أو للإشارة إلى زيادة الكثرة في البقية (**نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص واحد أو قوم كثير**) فيه إشارة إلى أنه ليس فيه طلب وإرادة؛ بل المسألة أوقعت عليه (**وكأن إرادتك فيها**) أي: في المناظرة في تلك المسألة (**أن تظهر الحق ولا تضيع الحق**) فيه إشارة إلى أنه لو أهمله لضاع الحق وإلى أنه لو ظهر في يد خصمه لقبل واعترف؛ إذ لو أنكر لضاع الحق (**جاز حينئذ البحث**)؛ أي: المباحثة؛ لعل المراد من الجواز هو الإمكان العام؛ أي: لا يمتنع فيشمل الوجوب والندب والإباحة كما في محاجة الخليل صلوات الله على نبينا وعليه مع نمرود عليه ما يستحق.

قال الإمام البزازي: بعد ما قال ودفع الخصم وإثبات المذهب مما يحتاج إليه، وقول من قال أن تعلم الكلام والناظرة فيه مكروه مردود بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام:٨٣] دل قوله تلك إلخ إشارة إلى

مناظرته في إثبات التوحيد وجعله من حجج الله تعالى مضيفا إلى نفسه على شرفه؛ إذ شرف العلوم بقدر شرف المعلوم، انتهى.

(**لكن لتلك الإرادة علامتان**) فعند وجود مجموع العلامتين يعلم ذلك الجواز (إحديهما أن لا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك) في الغيرة والمسرة القلبية.

(**والثانية: أن يكون البحث في الخلاء أحب إليك من أن يكون في الملاء**)؛ أي: مجمع الناس الظاهر أنه مما يستلزمه الأولى فتصريحه لزيادة الاعتناء (**واسمع**)؛ أي: واعلم (**أني أذكر لك هنا فائدة**)؛ أي: مناسبة لهذا المقام وإن لم يكن من فروع المقام، وأمثلته: إذ المناظرة بين العالمين وما يذكر هنا بين العالم والجاهل والمناسبة في مجرد أصل السؤال، والفائدة قوله: (**اعلم أن السؤال من المشكلات**)، أي: المسائل الخفية الغير المعلومة (**عرض مرض القلب**)؛ أي: كعرض مرض القلب فالكلام من قبيل زيد أسد؛ أي: تشبيه بليغ؛ لأن السؤال كالعرض والإشكال؛ أي: عدم العلم؛ يعني: الجهل: كمرض القلب في الإهلاك، والإتلاف عند الإهمال؛ إذ الجهل يهلك الدين كما أن المرض يهلك البدن (**إلى الطبيب والجواب له**)؛ أي: السؤال (**سعى لإصلاح**) لدفع (**مرضه**) بالأدوية والمعالجة المناسبة (**واعلم أن الجاهلين**) قوله: (**المرضى قلوبهم**) خبران (**والعلماء الأطباء**) مبتدأ وخبر (**والعالم الناقص**) في العلوم الشرعية الدينية وإن كاملا في غيرها (**لا يحسن المعالجة**)؛ بل يفسد كالطبيب الجاهل، ربما يفسد البدن بمعالجته لعدم معرفة الدواء الدافع للمرض المخصوص (**والعالم الكامل**)؛ أي: العارف أحوال أمراض القلب ومرتبته (**لا يعالج كل مريض**) بجواب الإشكال (**بل يعالج**) مرض (**من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح**) إما: بالكشف، أو بالقرائن السابقة، والحالية، وأكثر ذلك بين العلماء الظاهرية والصوفية والعالم الكامل فيه إما لا يساعده ولا يجيب عن إشكاله أصلا أو يجيب بأمر مناسب بحال السائل على وجه لو تأمل واعتبر ينزجر به عن إنكاره الطبيعي أو يؤخر جوابه بوقت آخر، عسى أن يتحول إنكاره إلى هذا الوقت، أو يجيب جوابًا إلزاميًا تحقيقيا؛ فإنه لا يدرك الجواب الحقيقي لغاية دقته أو يمكن إدراكه؛ لكنه يعلم عدم قبوله تعنتا ومكابرة (**وإذا كانت العلة**)

المرض (**مزمنة**) مرضًا مزمنًا نوع من الفلج لا يقبل العلاج إلى أن يموت وهو مشهور عند الفقهاء (**أو عقيمًا**) بالفتح، أو الضم جرح، أو مرض لا يتصور البرء، أو لا يرجى، فقوله: (**لا يقبل العلاج**) كالتفسير لهما (**فحذاقة الطبيب أن يقول: هذا لا يقبل العلاج**) لمعرفته حقيقة المرض (**فلا يشتغل بمداواته**)؛ أي: المريض؛ (**لأن فيه تضييع العمر**) وإضاعة المال، (**ثم اعلم أن مرض الجهل**) من قبيل لجين الماء؛ أي: الجهل الذي كالمرض (**على أربعة أنواع:**) أحدها يقبل العلاج، والباقى لا يقبل.

أما الذي لا يقبل (**أحدها: من كان سؤاله واعتراضه عن حسد وبغض**) الحسد أن تحب زوال نعمة الغير، أو تحب نزول مصيبة به وهو غير الغبطة الجائزة، وهو اشتهاء مثل نعمة الغير بلا محبة زوالها.

وأما الحسد ممن يستعين بالنعمة على المعاصي فجائز؛ لأنه في الحقيقة طلب زوال الظلم، وسببه: كبر، وعداوة، وخبث النفس، ثم الحسد إن وقع في القلب بلا اختيار، ثم دفع فلا بأس به اتفاقا، وإن كان باختيار وعمل بمقتضاه؛ نحو: ظهور أثره في الخارج فحرام اتفاقا. وإن لم يعمل بذلك فحرام عند المص؛ لكن ظاهر بعض الأحاديث؛ نحو: « **إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلم به أو يعمل به** »[1]. وفي حديث آخر: «**إذا حسدت فلا تبغ على المحسود بالقول والفعل يشعر عدم الحرمة** »[2] كما روي عن الحسن رحمه الله تعالى: (الحسد غمة لا يضرك ما لم تبده).

(**فكلما تجيبه بأحسن الجواب**) بأن يطابق سؤاله، ويحسم مادة إشكاله (**وأفصحه**) لعله بعبارة لطيفة (**وأوضحه**) بحيث لا يرتاب في فهمه لغاية وضوحه (**لا يزيد له**)؛ أي:

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٢٠٢٠، رقم ٤٩٦٨)، ومسلم (١/١١٦، رقم ١٢٧)، وأبو داود (٢/٢٦٤ رقم ٢٢٠٩)، والترمذى (٣/٤٨٩، رقم ١١٨٣) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٦/١٥٦، رقم ٣٤٣٣)، وابن ماجه (١/٦٥٨، رقم ٢٠٤٠). وأخرجه أيضًا: الطيالسى (ص ٣٢٢، رقم ٢٤٥٩)، وأحمد (٢/٣٩٣، رقم ٩٠٩٧)، وأبو يعلى (١١/٢٧٨، رقم ٦٣٩٠)، وابن حبان (١٠/١٧٨، رقم ٤٣٣٤)، والقضاعى (٢/١٦٧، رقم ١١١٤).

(٢) انظر: الإحياء ٣/١٩١.

للسائل الحاسد (**ذلك**)؛ أي: ذلك الجواب الحسن (**إلا غيظا**)؛ أي: غضبا (**وحسدًا**) من قبيل تأكيد الذم بما يشبه المدح والمأمول الطبيعي أن يزيد محبة ومسرة فهذا السائل لا يريد إظهار الصواب؛ بل أظهر أن ليس له غرض ممدوحا فيجب متاركته بما عليه من مرضه فظهر أنه ممن في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا (**فالطريق أن لا تشتغل بجوابه**)؛ إذ لا فائدة في الجواب؛ بل المتوقع: هو الضرر، فالتحاشي لازم.

فإن قيل: قد ذكروا له علاجا علميا، وعمليا، وفعليا؛ فكيف لا يفيد الجواب؟! قلت: ذلك من الوجدانيات التي يتعذر إلزام بها وما ذكرت إنما هو لمنصف مريد الحق، ومسترشد يريد منك إزالة مرضه، أو ذلك بالنسبة إلى نفس الحاسد لا من الغير.

(**شعر: كل العداوة قد ترجى**) من الرجاء (**إزالتها**)؛ أي: إزالة الغير إياها أما بالنصائح والمواعظ أو الأدلة والحجج والبيان (**إلا عداوة من عاداك**) من العداوة (**عن حسد**)؛ فإنها ليس بمرجو الإزالة لعل لهذا عدَّ الحسود في الحديث من الذين يدخلون النار بغير حساب (**فينبغي أن تعرض عنه وتترك مع مرضه**) من الغم والحزن وضيق النفس؛ لأن ضرره راجع إليه في الدنيا والآخرة ولا يضر محسوده؛ بل قد ينفع.

(**قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [النجم:٢٩]**) لعل الأعلى كون المراد من الذكر القرآن إذ من حكم القرآن حرمة؛ نحو: الحسد، فمن لم يترك الحسد فقد أعرض عن الذكر (﴿**وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾) إذ الحسود لا يريد بحسده إلا غرضا دنياويًا فمن لا يريد الدنيا لا يجترئ على الحسد بل يندم من ساعته ويتوب (**والحسود بكل ما يقول**) قولا متسببًا عن حسده (**ويفعل**) كذلك لا مطلق كل قول وفعل منه.

(**يوقد النار في زرع عمله**)؛ يعني: كما أن النار تتلف الزرع، كذلك الحسد يتلف العمل.

(**والحسد يأكل الحسنات**)؛ أي: يزيل ويبطل (**كما يأكل النار الحطب**) لا يخفى أن الظاهر من كلام المص هنا ما ظهر أثره في « الجوارح » وقد سمعت من مذهب المص أنه إن وجد فيه الاختيار وإن لم يظهر أثرًا خارجيًا فحرام؛ إلا أن يقال مراده بيان ما هو أشد

و لم يكن في كلامه ما يدل على حصر ما ذكره؛ إذ ذكر شيء غير مناف لما عداه، ثم أنه لأحبط لطاعة المؤمن بمعصيته ولا لمعصيته بطاعته عند أهل الحق وظاهر كلام المص هنا يشعر حبط الحسنة بالسيئة وهو ظاهر مذهب أبي هاشم وأبي علي وقد أورد عليه أنه خرق الإجماع؛ بل ملائم لمذهب جمهور المعتزلة من أن كبيرة واحدة تحبط جميع الطاعات فأجيب بإن المراد: إضعاف الحسنات لا أصلها، ويمكن أن يريد بالإبطال: نقل حسنات الحاسد إلى المحسود، لا سيما إذ اطول اللسان فيه كمن يرمي عدوه بحجر فلم يصب عدوه وعادت إلى عينه فأعماه، والتوجيه أن الحسد يؤدي إلى الكفر، والكفر حابط للحسنة إجماعا لا يخلو عن بعد كما لا يخفى.

(**والثاني**:) من الذي لا يقبل العلاج (**أن يكون علته**)؛ أي: علة الجهل ومرضه (**من الحماقة**)؛ أي: البلادة والغباوة ضد الذكاء والفطنة (**وهو**)؛ أي: المرض الذي من الحماقة (**لا يقبل العلاج**) لعل المراد من عدم القبول هو عسرة العلاج، وإلا قالوا: علاجه السعي، والجد، والمواظبة في التعلم. أو المراد من الحماقة: صاحب قوة بلادة في نهاية؛ لكن لا يناسبه سياق الكلام.

(**كما قال عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام**) لعل مثله مبني على الرواية عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلا فما يؤخذ من كتبهم أو يسمع التوتر من رهبانهم مما لا يصلح للاحتجاج به ودعوى في كل قرن إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ليس بمسموع.

(**إني ما عجزت عن إحياء الموتى**) إذ من معجزته: إحياء الموتى بإذن الله تعالى (**وقد عجزت من معالجة الأحمق**)، فمعالجة الأحمق أصعب من إحياء الموتى يشكل أنه إن كان على طريق المعجزة فهما في عدم الصعوبة متساويان، وإن كان على العادة فالإحياء ممتنع، ومعالجة الأحمق قد يمكن وإن أريد من الإحياء ما هو بطريق المعجزة، ومن المعالجة ما هو بطريق العادة فلا فائدة في الاستصعاب، فلعل الكلام مبني على الفرض والتنظير؛ يعني: لو كان الإحياء مقدورًا عاديًا للبشر يقتضي على مقاساة معالجة الأطباء للأمراض الصعبة زيادة عسر وقوة صعوبة؛ فعلاج الأحمق أعظم من ذلك عسرًا أو المراد من الموتى هو

الكفار؛ يعني: أمكن معالجة الكفار بإفهام الحق بطريق المعجزة أو النصح بالأدلة دون الأحمق منهم أو من غيرهم، وفي محاضرة الإمام الثعالبي، عن عيسى عليه الصلاة والسلام: **(عالجت الأكمه والأبرص فأبرأتهما، وأعياني علاج الأحمق)** فعلى هذا يمكن أن يراد بالموتى: ذوو أمراض شديدة: كالأكمه والأبرص، وعنه في المحاضرات أيضا: لا تنطقوا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم، ولا تطرحوا الدر تحت أرجل الخنازير، ولا تعلقوا الجواهر في أعناق الكلاب.

فعلى هذا يمكن أن يراد من الحماقة ما لا يكون غبيًا أصليًا؛ بل الحماقة تختلف باختلاف المسائل إذ من يكون عاقلا فهيمًا بالنظر إلى بعض المسائل يمكن أن يكون بليدًا غبيًا بالنظر إلى أخرى وإليه يميل كلام المص.

(وذلك رجلا يشتغل بطلب العلم زمانًا قليلا) القلة يعم الحقيقة، وهي ظاهرة، والحكمية وهي أن يكون الزمان كثيرًا في نفسه؛ لكن فهم الطالب بطيء أو سريع؛ لكن المطلوب غاية خفي **(ويتعلم شيئًا من العلوم العقلي)** الظاهر أن المراد من العقلي علم ذات الله تعالى وصفاته؛ يعني: علم العقائد والكلام؛ إذ لا بد كون أصل هذا العلم مأخوذًا من العقل وإن كان تطبيقه إلى الشرع لازمًا في كونه معتدًا به كما قرر في محله **(والشرعي فيسأل)** سؤال اعتراض، فقوله: **(ويعترض)** قرينة وعطف تفسير **(من حماقته)** إذ العاقل الذكي يتفطن ويعلم حقيقته، فلا يسأل أو يسأل؛ لكن لا على سبيل الاعتراض؛ بل على سبيل العرض وعلامته هو التنبه بإشارة العالم الكبير **(على العالم الكبير)** الممضي عمره **(في العقل والشرعي)** لعل ذلك كالسؤال عن كنه ذاته تعالى وكنه صفاته كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه، أنه قال عليه الصلاة والسلام: « **لا يزال الناس يسألون حتى يقال: هذا خلق الله تعالى، فمن خلق الله؟ فمن وجه من ذلك شيئا؛ فليقل: آمنت بالله ورسله** »[1].

---

(١) أخرجه البخارى (٦/٢٦٦٠، رقم ٦٨٦٦)، ومسلم (١/١١٩، رقم ١٣٤)، وأبو داود (٤/٢٣١، رقم ٤٧٢١). وأخرجه أيضًا: الحميدى (٢/٤٨٨، رقم ١١٥٣).

وفي رواية: « **فليستعذ بالله ولينته** »[١].

وفي « الصحيحين » أيضا: عن المغيرة بن شعبة: « **أنه نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عَنْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ** »[٢]، وأيضا يمكن أن يلحق عليه نحو السؤال عن المشكلات، ومواضع الغلظ للتغليظ، والتخجيل، وأما السؤال في ذلك للتعليم، أو التعلم، أو اختبار، الأذهان، أو الحث على التأمل فليس من هذا الباب؛ بل مستحب كما في الطريقة المحمدية.

(**وهذا الأحمق لا يعلم أن ما أشكل عليه هو أيضا مشكل للعالم الكبير**) حتى روى عن باب مدينة العلم علي، كرم الله وجهه، ورضى الله عنه: (العجز عن درك الإدراك إدراك، والبحث عن سر ذات الله إشراك).

والجزء الأول أيضا مروي عن الصديق الأعظم رضي الله تعالى عنه.

(**فإذا لم يتفكر**) الأحمق المذكور (**هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة فينبغى أن لا يشتغل بجوابه**) لعل ذلك عند علمه إصراره على سؤاله عند التنبيه عليه بامتناع الجواب عنه، وإلا فالظاهر أنه ليس من هذا الباب والله أعلم.

(**والثالث**) مما لايقبل العلاج (**أن يكون الطالب مسترشدًا**) يطلب رشده (**وكل ما لا يفهم من كلام الأكابر**) سيما المتصوفة (**يحمل على قصور فهمه لغاية دقة الكلام**) ونهاية لطافته أو لبنائه على اصطلاح خاص بهم لغرض عدم إطلاع الأجانب لكونه سرا بينهم (**وكان سؤاله للاستفادة؛ لكن يكون بليدًا**) غبيا أو ذكيًا؛ لكن لا يكون أهلا لما

---

(١) أخرجه البخارى (٣/١١٩٤، رقم ٣١٠٢)، ومسلم (١/١٢٠، رقم ١٣٤).

(٢) أخرجه البخارى (٢/٥٣٧، رقم ١٤٠٧)، ومسلم (٣/١٣٤١، رقم ٥٩٣)، وأبو عوانة (٤/١٦٦، رقم ٦٣٨٩)، والطبرانى (٢٠/٣٨٤، رقم ٩٠٠)، وابن حبان (١٣/٢٧، رقم ٥٧١٩).

ومن غريب الحديث: "قيل وقال": الحديث فيما لا فائدة فيه. "وكثرة السؤال": التنطع فى المسائل والإكثار من السؤال عما لم يقع ولا تدعو إليه الحاجة، وقيل المراد كثرة سؤال الإنسان عن حاله وتفاصيل أمره. وقيل: السؤال عن المسائل العلمية امتحانًا وإظهارًا للمراء وادعاء وفخرًا. "إضاعة المال": صرفه فى غير حله، وبذله فى غير وجهه المشروع.

سُئل عنه فيكون بليدًا بالنسبه إليه (**لا يدرك الحقائق**) لخفائه (**فلا ينبغي الاشتغال بجوابه أيضًا**) لعدم ظهور فائدته، فالاشتغال بالجواب عبث وتضييع وقت؛ لكن المناسب حينئذ أن يجيب جوابا مناسبا لحاله وإن كان على خلاف مقتضى الحال أو ينبه إشكاله وعدم اقتدار فهمه إياه (**كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم**: « **نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نتكلم الناس على قدر عقولهم** ») ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في محل: « **اللهم إني أعوذ بك منك** »[1] وفى محل آخر: « **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ**»[2] قال شراح الحديث الأول: فيما كان السامع من الخواص يعرف أن النفع، والضر، والخير، والشر من الله تعالى فقط.

والثاني: فيما كان السامع من العوام لا يقدر على فهم ذلك لعل من هذا القبيل ما قال السيوطي في رسالة المستقلة وتبعه أبو السعود أن النظر والبحث في كلمات ابن العربى ليس بجائز، ومن تكلف في تأويله ليس بمصيب وقد وقع النهي السلطاني عن مطالعة كتبه وما خطئوا بناءًا على ظاهر كلامه فخطأ إذ هو رجل فاضل صالح بل ولي من أولياء الله تعالى خطأه على القاري وضلله لاقتضاء ظاهر كلامه الخطأ بكلام طويل لا يتحمله مثل هذه الكراسة.

(**وأما الواحد الذي يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشدًا عالمًا عاقلا ذكيًا فهما**) فطنا (**لا يكون مغلوب الحسد**) ومقهوره (**والغضب، وحب الشهوات، والجاه**) من حيث العلم أو من غيره (**والمال ويكون طالب الطريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان**) هذا بالنسبة إلى ما قبله كالمستغنى عنه؛ لكنه لزيادة الاعتناء والاهتمام ذكره على طريق التكرير (**وهذا يقبل العلاج فيجوز أن يشتغل بجواب سؤاله**) لانتفاء المانع من الاشتغال بالجواب.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/٣٣٥، رقم ٦٧١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/١٢ رقم ٣٨٩٣).

(**بل يجب عليك إجابته**) بالجواب عن سؤاله لعل هذه عند تعينه وكأن السؤال من مسائل الدين والأولى بل قد يجيب إذ الوجوب حينئذ ليس بكلي؛ بل يسن أو يستحب أو يباح.

(**والثاني مما تدع هو أن تحذر**) من الحذر؛ بمعنى: الفرار (**وتحترز**) لعل المراد من الثاني هو: التكلف في الفرار والإفراط فيه فتأكيد؛ بل تأسيس وإن كان على الوجهين من قبيل عطف التفسير (**من أن يكون واعظا أو مذكرًا**) في مجامع الناس على الهيئة المتعارفة في زماننا وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: « **إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ** »[1] الحديث (**لأن فيه**)؛ أي: في الوعظ (**آفة**) مضرة (**كثيرة**) كالرياء، والتباهي، والكبر، والعجب، والتمدح.

فإن قيل: إن غاية العظة والتذكير راجع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو واجب، والأصح أن العمل ليس بشرط وإن كان ذلك أولى.

قلت: وجوبه إنما هو على الكفاية فلعله حاصل بالغير وكونه عاملا بما أمر به ونهى عنه عمل بالعزيمة، وإنه إذا تعارض الواجب مع الحرمة يرجح جانب الحرمة، وإن كان الواجب راجحًا عند تعارضه مع البدعة والكراهة، وظاهر أن ما ذكر من قبيل الحرام نعم الكلام في وقوع ما ذكر قطعًا أو ظنا، وأما عند كونه احتمال فظاهر أنه لا منع منه مع ما سيذكره من الشرطين كيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١/٧٤، رقم ٥٥)، وأبو داود (٤/٢٨٦، رقم ٤٩٤٤)، والنسائى (٧/١٥٦، رقم ٤١٩٧)، وأبو عوانة (١/٤٤، رقم ١٠١)، وابن خزيمة فى السياسة كما فى إتحاف المهرة للحافظ (٣/٨، رقم ٢٤٥٦)، وابن حبان (١٠/٤٣٥، رقم ٤٥٧٤)، والبغوى فى الجعديات (١/٣٩٢، رقم ٢٦٨١) وابن قانع (١/١٠٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/٣٢٣، رقم ٥٢٦٥)، وأبو نعيم فى المعرفة (١/٤٤٩، رقم ١٢٩١). وأخرجه أيضًا: الطبرانى (٢/٥٤، رقم ١٢٦٧)، وابن عساكر (١١/٥٤).

(**إلا أن تعمل بما تقول أولا ثم تعظ به الناس**) قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٢-٣]. [ومما قيل[1]:]

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو مريض

وفي « الفوائح »: ومن عجب الدنيا طبيب مصفر وأعمش كحاله وأعمى منجم.

حكي أن قوم الشيخ عبد الوهاب الشعراني سألوا وافد مواعظة من الشيخ و لم يجد الشيخ بدا من إلحاحهم، فقال: سأشاور وتأمل فأجيب بواحد: من لا: ونعم. فجاء إلى بيته وسأل عياله لا أقرب لي منكم وأنتم عالمون بأحوالي والقوم يطلبون مني نصيحة، فهل لي قصور وإساءة فأتوب عليه. قال جميعهم: لا نعلم منك شيئًا غير الخير فتهيأ الشيخ للوعظ، فجاءت جارية من الباب، فقالت: هل استحللت شقة التفاحة التي أكلت من النهر جاء بها النهر، فقال: لا، فاعتقها، ثم ذهب إلى صاحب التفاحة فوجده فهو إذا المجوسي فذكر القصة وطلب الحق، فقال: على طريقة المزاج تعجبًا لطلبه لمثل هذا الشيء الحقير لا أحل سآخذ منك يوم القيامة، فقال الشيخ: أعطيك كذا فامتنع المجوسي إلى أن قال الشيخ: جميع مالي لك، وأنا عبدك إن شئت استخدم، وإن شئت بع فامتنع فتضجر وتفجع ورجع باكيًا وقائلا: كيف يكون حالي عند حضور ربي بخصومة هذا الكافر فرق قلبه وندم على قوله واستدل به على حقية دينه والحق الشيخ من خلفه فآمن بحرمة ورع الشيخ وحاله.

(**فتفكر فيما قيل**) من طرف الله تعالى (**لعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام**) هذا كما سمعت سابقًا مبني على إخبار نبينا عليه الصلاة والسلام وإلا فالشريعة السابقة لا تكون شريعة لنا.

(**يا ابن مريم عظ**) من الوعظ (**نفسك**) لعل المراد من وعظ نفسه هو العرض على نفسه (**فإن تعظت**)؛ أي: قبلت وعظك وعملت بموجبه (**فعظ الناس وإلا فاستحي ربك**) ولهذا قيل: أحسن العظات ما بدأت به فأنفسك وأجريت به أمرك (**وإن ابتليت بهذا**

(١) انظر: محاضرات الأدباء ٥٤/١، وربيع الأبرار ٤٦٣/١.

العمل)؛ يعني: إن لم يكن الحذر والاحتراز وابتليت بالعظة **(احترز عن خصلتين الأولى التكلف في الكلام بالعبارات)** الغريبة **(والإشارات)** اللطيفة **(والطامات والأبيات والأشعار؛ لأن الله تعالى يبغض المتكلفين)** فيه إشارة إلى أنه لو لم يكن بتكلف بل بسهولة وملكة راسخة لأمنع منه كيف والشعر والسجع والفصاحة في الخطابة والتذكير ولو مع تكلف يسير مستحب؛ لأن فيها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها إذا لم يقارن غرض سوء كالرياء وحب الثناء.

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: « **إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ بلفظ الكلام كما يتخلل البقر الكلأ** »[1] كما في الطريقة.

(والتكلف المجاوز)؛ أي: التكلف الذي يتجاوز **(عن الحد)** إذ اليسير كما عرفت لا يعبأ به **(يدل على خراب الباطن)** إذ المتوجه إلى حال بطنه لا يقدر إلى تكلف لسانه؛ لأن الذهن بسيط لا يقدر أن يتوجه إلى شيئين في زمان واحد، وإن من يشتغل على تعمير باطنه لا يشتغل على تعمير ظاهره.

(وغفلة القلب) يمكن أن يراد من غفلة القلب هو: الغفلة عن تعمير أخلاقه الحميدة إذ التكلف في ذلك: إنما هو لأغراض ذميمة كحب المدح والرئاسة والرياء.

(ومعنى التذكير)؛ أي: الوعظ **(أن يذكر)** من التذكير **(العبد)** الواعظ غيره **(نار الآخرة و)** يذكر **(تقصير نفسه في خدمة الخالق)** التي تقضيه العبودية التي خلق لأجله الثقلان والتقصير إما بأصل العباداة فرائض، أو واجبات، أو سنن، أو مستحبات أو في وصفها؛ أي: في إكمالاتها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٣٠١، رقم ٥٠٠٥)، والترمذى (٥/١٤١، رقم ٢٨٥٣) وقال: حسن غريب. والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/٢٥١، رقم ٤٩٧٢). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٥/٣٠٠، رقم ٢٦٢٩٧).

ومن غريب الحديث: (يتخلل بلسانه): هُو الذى يتعمق فى الكلام ويُفَخّم به لِسَانه ويَلفُّه كما تَلُفُّ البَقَرة العشب بِلِسَانِها.

(**ويتفكر في عمره الماضي الذي فناه فيما لا يعينه**) والمعني الأصلي لما لا يعني ما يستحب تركه كحكايات الأسفار، والبحار، والجبال، والأطعمة إذا لم يقارن أغراضًا حميدة كدفع الوحشة، وإيجاب الألفة، ودفع المهابة، والتكبر، وكذا المزاج عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: « **مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ** »[١]، وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أنه توفي رجل واستبشر رجل آخر بالجنة، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « **ما يدريك لعله يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل بما يعنيه** »[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «**أكثرُ الناسِ ذنوباً أكثَرُهُم كلاماً فيما لا يعنيه** »[٣].

قال في الطريقة المحمدية: ووجهه أن يجره غالبًا إلى ما لا يحل.

(**ويتفكر بما بين يديه من العقبات عن سلامة الإيمان في الخاتمة**) عن سلب الشيطان ويتفكير في الأشياء التي تكون سببًا لحسن الخاتمة ولسوء الخاتمة نعوذ بالله تعالى (**وكيفية حاله في قبضه**)؛ أي: قبض روحه (**ملك الموت**) فاعل للقبض من الختم على الإيمان رزقنا الله، والختم على الكفر نعوذ بالله تعالى (وهل يقدر جواب منكر ونكير) بأحسن الجواب ويسلم عن عذاب القبر أولا (**ويهتم بحاله يوم القيامة**) من الحساب، والجواب، والوزن، وإعطاء دفاتر الأعمال (**ومواقفها**) والشمس في الفوق قدر ميل (**وهل يعبر**) من العبور؛ بمعنى: المرور (**عن الصراط سالمًا**) بلا عقاب ولا سلاسل وأغلال ومقارنة كافر وشيطان (**أم يقع في الهاوية**) اسم لمطلق النار لا ما يقال من اختصاص بعض دركاتها (**ويستمر ذكر هذه الأشياء في قلبه**) فلا ينسيه الشيطان بأفكار الدنيا (**فيزعجه**)؛ أي: يقطع الذكر

---

(١) أخرجه الترمذى (٤/٥٥٨ رقم ٢٣١٧) وقال: غريب. وابن ماجه (٢/١٣١٥، رقم ٣٩٧٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/٢٥٥، رقم ٤٩٨٧). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (١/٤٦٦، رقم ٢٢٩)، وابن عساكر (٤١/٤٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/٤٢٥، رقم ١٠٨٣٦).

(٣) أخرجه الديلمي (١/٣٦٢، رقم ١٤٦٢).

الذاكر (**عن قراره في الدنيا**) ومحبته بها (**فغليان هذه النيران**) مما ذكر (**ونوحة هذه المصائب**) إذ لا مصيبة فوق ذلك (**تسمى تذكيرًا**) لكونها مذكرًا للمعاد؛ بل المبدأ أيضا (**وإعلام الخلق وإطلاعهم**) على هذه الأشياء تسمى: وعظا - كما سيأتي -.

(**وتنبيههم على تقصيرهم وتفريطهم وتبصيرهم بعيوب أنفسهم فيمس حرارة هذه النيران أهل المجلس وتجزعهم**)؛ أي: تقلعهم (**تلك المصائب**) عن الدنيا، ومبالاتها الظاهر أنه فاعل تجزعهم (**ليتداركوا العمر الماضي بقدر الطاقة**) الذي فانوا فيه وظائف العبادات اللازمة، والفاضلة بالاستحلال، ورد المظالم، والقضاء، وتفريغ الكفارات، وأداء المنذورات، والتوبة الصادقة عن سائر التقصيرات، والاشتغال بفضائل الطاعات والنوافل المندوبات لا سيما استغراق الأوقات بذكر الله الذي لا بد له من الملاقات.

(**ويتحسروا**) من التحسر كالتحزن (**عن الأيام الخالية**)؛ أي: السالفة (**في غير طاعة الله**) بل بارتكاب محرماته واشتغال منهياته فضلا عن المكروهات والشبهات سيما تكاثر حقوق العباد.

حكي عن الحريري أنه قال: دخلت على الجنيد وهو مهتم، فقلت: ما لك؟ فقال: فاتني شيء من وردي، فقلت: تعبد بعد، فقال: كيف؟ وهي أوقات معدودة.

قال علي رضى الله عنه: (ينبغي أن يكون للمرء من أربع ساعات من النهار ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة فيها العلماء يبصرون بأمر الله وينصحونه، وساعة يخلي بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويجمل).

(**وهذه الجملة**) من قوله: وإعلام الخلق وإطلاعهم إلى هنا (**على هذا الطريق يسمى وعظا**) فإذا علمت معنى التذكير والوعظ فقد علمت عدم الاحتياج فيهما إلى تكلف العبارت وغيره بل عدم صحته، ثم بالغ في منع ذلك لابتلاء العامة فأراد تنظيرًا له، فقال: (**كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيها**) بحيث يتلفه ويهلكه بعياله ومتاعه (**فتقول: الحذر الحذر**)؛ أي: احذر الحذر احذر الحذر أو عجل الحذر الحذر (**فروا من السيل وهل يشتهي قلبك**) ويخطر به (**في هذه الحالة أن تخبر إلى صاحب الدار خبرك**) الذي هو هجوم السيل مفعول تخبر.

(**بتكلف العبارات والنكت والإشارت، فلا تشتهي ألبتة فكذلك حال الواعظ فينبغي أن يجتنب عنها**) لعل مراده: الإفراد وإلا فما يكون ادخل في التحريض والإغراء والترغيب والتنفير والترهيب كما يقتضيه المقدمات الخطابية التي اقتضاها ذلك المقام فالظاهر ليس بممنوع؛ بل الاستحباب بأغراض حميدة ليس ببعيد.

(**والخصلة الثانية**) من اللتين يلزم الاحتراز عنها (**أن لا تكون همتك**)؛ أي: قصدك في وعظك (**أن ينعر الخلق في مجلسك**)؛ أي: يجتمعوا مجلسك؛ يعني: احترز من أن تقصد في وعظك جمع الخلق في مجلسك (**ويظهروا الواجد**) والشوق (**ويشقوا الثياب**) من وجدهم وشوقهم.

روى أنه حين وعظ موسى عليه الصلاة والسلام مزق واحدهم قميصه فأوحى الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام قل له: مزق قلبك لا ثوبك.

(**ليقال نعم المجلس هذا؛ لأن كله ميل إلى الدنيا**)؛ لأنه عين حب المدح وجلب القلوب (**وهو يتولد من الغفلة**)؛ أي: غفلة القلب، وفيه إشارة إلى أنه لو كان ذلك لأمر أخروي كالترغيب إلى الآخرة والتنفير عن الدنيا فلا منع بل ممدوح وبالجملة أن مثله حال القلب، فكل يعمل بما فيه؛ لأن صاحب البيت أدرى بما في البيت وكل يعمل على شاكلته.

(**بل ينبغي أن يكون عزمك وهمتك**) يعني: قصدك وسعيك من وعظك (**أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة**) حتى يقرعوا عن الدنيا بل يفروا منها مقبلين إلى الآخرة بإسماع كراهة الدنيا ومضراتها وإعلام محاسن الآخرة ومنافعها؛ إذ منافعها مع المضرات توأم ومسراتها مع الحسرات محرم (**و**) تدعو (**من المعصية إلى الطاعة**) بإخبار صدق المعصية وغوائلها وما يترتب عليها من العذاب والعقاب وإيذان ماهيات الطاعات وفوائدها السرمدية ومنافعها الأبدية.

(**و**) تدعو الخلق (**من الحرص**) في الدنيا والطمع فيها (**إلى الزهد**) تركها والإعراض عنها، قال في محاضرات الثعالبي مما يتمل في التوراة أوحى الله إلى الدنيا من خدمك فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه، ومن خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله خاف

من كل شيء يا موسى من أحبني لم ينسني ومن رجا نعمتي إلخ في مسألتي المال يفنى، والبدن يبلى، والأعمال تحصى، والذنوب لا تنسى **(ومن البخل إلى السخاء)**.

قال الشافعي رحمه الله: الحريص محروم، والرزق مقسوم، والبخيل مذموم، والحسود مغموم.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: السخاء يبلغ صاحبه إلى أعلى الأعالي.

(ومن الغرور) إلى الدنيا **(إلى التقوى)** التي لا شيء أكرم منها عند الله تعالى، وهي كلي مشكك يقبل الزيادة والنقصان أدناها التوقي عن الكفر وأعلاها التنزه عما يشتغل سره عن الحق تعالى منقطعًا إليه بالكلية؛ لعل المراد هنا: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل وترك إلى ما لا بأس به عند بعض كما أفصح عنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: « **لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لا بَأْسَ بِهِ** »[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] إن أولياؤه إلا المتقون والعاقبة للتقوى.

(وتحبب) من التفعيل من المحبة **(إليهم الآخرة)** بذكر حقيقتها وبيان غايتها؛ بنحو: كون نعمها صافية سرمدية، وشرابها خالية عن إثم ولاغية، وفيها يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة لاقية، وبالفوز الأبدي، والفلاح السرمدي باقية.

(وتبغض) تفعيل من البغض **(عليهم الدنيا)** وقد سمعت غير كرة ولا مرة مفاسدها **(وتعلمهم علم العبادة)** بأنواعها، ومراتبها، وفوائدها.

(والزهد)؛ أي: الإعراض عن الدنيا؛ **(لأن الغالب في طباعهم الزيغ)**؛ أي: الميل والانحراف **(عن منهج الشرع)**؛ أي: عن طريقة **(والسعي فيما لا يرضى الله تعالى به)** إذ النفوس مجبولة على المعاصي والمناهي.

---

(١) أخرجه الترمذى (٤/٦٣٤، رقم ٢٤٥١) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٢/١٤٠٩، رقم ٤٢١٥)، والطبرانى (١٧/١٦٨، رقم ٤٤٦)، والحاكم (٤/٣٥٥، رقم ٧٨٩٩) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقى (٥/٣٣٥، رقم ١٠٦٠٢). وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد (ص ١٧٦، رقم ٤٨٤).

(**والاشتغال**) ولأن الاشتغال (**بالأخلاق الردية**)؛ أي: الذميمة (**غالب في طباعهم فألق**) أمر من الإلقاء (**في قلوبهم الرعب**)؛ أي: الخوف (**وروعهم**)؛ أي: خوفهم (**وحذرهم**) أمر من التحذير (**عما يستقبلون من المخاوف**) يعني: من المخاوف المستقبلة كما أشير عند قبض الروح والقبر والقيمة والجحيم (**لعل صفات باطنهم تتغير**) يعني: لأجل تغير صفات باطنهم من الرذائة إلى الحميدة (**ومعاملة ظاهرهم تتبدل**) من الأعمال الفاسدة إلى الصالحة (**وتظهر الحرص**) والطمع (**والرغبة**) والمحبة والطلب (**في الطاعة والرجوع عن المعصية**) إلى الطاعة (**وهذا طريق الوعظ والنصيحة وكل وعظ**) وتذكير (**لا يكون هكذا فهو وبال**) ووزر وإساءة (**على ما قال**) هكذا فيما عندنا من النسخة فالأولى على من قال (**وسمع**) يعني: يكون وزرًا على القائلين والسامعين لعل وجه كونه وبالأعلى السامعين أما كونه آفات الأذن؛ لأن ما يكون من جنس ما سبق يكون لا جرم لغوًا وهذيانات وقصصًا وحكايات لا أصل لها، وإما أقاويل ضعيفة، وكلمات سخيفة؛ بل لا يخلو عن انحراف عقائد المسلمين والرخصة في تروك أكثر القربات الشرعية كما يقال: فساد كبير عالم متهتك.

وقيل: ليس العلم بكثرة الروايات؛ إنما العلم بكثرة الرعة، والخشوع، والرعايات في الفرائض، والواجبات، والسنن، والمستحبات، وسائر القربات.

(**بل قيل: إنه**)؛ أي: مثل هذا العالم (**غول**) في القاموس سحرة الجن والمنية وشيطان يأكل الناس، وفي بعض اللغات الغول نوع من الجن يتشكل بأشكال مختلفة يضل الناس من سواء الطريق، فقوله: (**وشيطان يذهب بالخلق عن الطريق**) كعطف تفسير له الباء في قوله بالخلق زائدة (**ويهلكلهم**) كما قيل: زلة العالم زلة العالم.

كما روى: أنه كان قاص يبكي بمواعظه؛ فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورًا وينقره، ويقول هذا الفم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة.

(**فيجب عليهم**)؛ أي: على الخلق (**أن تفروا منه؛ لأن ما يفسد هذا القائل**)؛ أي: الواعظ (**من دينهم لا يستطيع مثله**)؛ أي: مثل الواعظ من إفساد الدين (**الشيطان**) ومن هذا قيل: شيطان الإنس أضل من شيطان الجن (**ومن كان له يد وقدرة**) عطف تفسير

لليد؛ أي: على المنع بلا إيجاب فتنة كالأمراء والحكام (**يجب عليه أن يتزله**) من الإنزال كالهبوط (**من منابر المسلمين ويمنعه عما باشر**) من دعوى الوعظ (**فإنه**)؛ أي: المنع (**من جملة الأمر بالمعروف**) لعل الأولى أن تقتصر على قوله (**والنهي عن المنكر**) إذ قد عرفت إضلاله عباد الله عن الصراط المستقيم.

(**والثالث: مما تدع هو أن لا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم**) في بعض المواضع عن المص إذا رأيت الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقير واذا رأيت الفقير بباب الأمير فبئس الفقير، وبئس الأمير، وفي بعض المواضع عن الطبقات أرسل بعض السلاطين إلى الغزالى بأن جيء عندي فعظني وانصحني، فكتب الغزالي إليه الذي ينصحك لا يصحبك والذي يصحبك لا ينصحك.

وقيل: الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك بواسطة العلوم.

قال في « الفتاوى »: لو افتخر الملوك نحن ظل الله على الأنام لافتخر العلماء الظل مزال نحن حامل علمه تعالى والعلم صفة لازمة له تعالى وليس له زوال فلا تذل ما أعزه الله تعالى بالمخالطة إلى الأمراء.

(**لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة**) وفي « جامع الصغير »: إذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلم أنه لص وفي قمع النقوش ألم تعلم أن النظر إلى وجه الظلمة يبطل الأعمال الصالحة، فكيف بمن يسلم عليهم، أو يجالسهم، أو يؤاكلهم، إنا لله وإليه راجعون مما حل بالخلق من تلبيس مثل هذه الخبائث، ولعمري أن الصادق مع الله تعالى لو خير بين أن يلقى حية وأن يجالس ظالمًا على وجه المؤانسة لاختار لقاء الحية دون أن يرى وجهه، وفي وصايا بعض الصالحين فاحذر حب الظلمة، وموالاتهم، ومخالطتهم؛ فإذا خالطتهم فكن حذرا منهم؛ لأن غاية بغيتهم تكميل دنياهم بك وموافقة هواهم إياك.

(**ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثنائهم**) يعني: لا تمدحهم؛ (**لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم**) كأنه تلميح؛ بل اقتباس إلى قوله عليه الصلاة والسلام إذا مدح الفاسق غضب الرب، واهتز العرش، كما في « جامع الصغير » لعل مثل ما ذكر هنا بالنسبة إلى ملوك زماننا وإلا ففي الحديث إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض، وفي

حديث آخر: « **من أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة** »[1]، وفي حديث آخر: « **ومن أهانه أهانه الله** ».

(**ومن دعى لطول بقائهم فقد أحب أن يعصي الله في أرضه**) بل يدعو بإصلاح حاله، وعدالته، ودفع ظلمه، واستقامته، وبكونه مظفرًا، ومنصورًا على أعدائه في الدين.

(**والرابع: مما تدع أن لا تقبل شيئًا**) من عطايا الأمراء وهداياهم، وإن علمت أنها من الحلال؛ (لأن الطمع يفسد الدين) فإن قيل: القبول غير الطمع، والمفسد للدين هو الطمع لا القبول، قلنا: القبول باعث، ومفض إلى الطمع ألبتة أو القبول مسبوق بالطمع أو المراد من الطمع مجرد القبول.

(**لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم**) إذ الإنسان مجبول بمحبة من أحسن إليه. وقد قيل: الإنسان عبيد الإحسان فأخذ عطياتهم يجعلك رقًا وعبدًا ضروريًا لهم؛ أي: الظلمة، وقد كنت مأمورًا من قبل الله تعالى بعدم أدنى ميل على حكم قوله تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود:١١٣] قد عقبه تعالى بقوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

(**وهذا كله فساد في الدين**) كما سمعت قوله: وقد نصب العلماء أميرًا على الأمراء وإمارتهم عليهم إنما هي بالاستغناء عنهم لا الافتقار بهم.

(**وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت**)؛ أي: أكلت (**من دنياهم أحببتهم**) وقد قيل: أن الظالم مع الصالح إذا كان متحابين، فالصالح يؤخذ بمحبة الظالم والظالم يرحم يغفر لمحبة الصالح.

حكى أن عالمًا من مقربي الملوك لقى في السوق عالمًا من الفقراء الصالحين فكلما تملق وانبسط إليه فلم يتوجه العالم الفقير إليه، فقال للعالم الفقير: إني أحبك، فقال: أما أني لا أحبك لتركك الجماعة، فقال: إني مشتغل بمهام العباد، فقال: هل يتصور تقديم مهام الأنام على مهام رب الأنام فبكى، وقال: يغفر الله لي لمحبتي إياك، ويغفر الله تعالى لبغضك إياي.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٢/٥، رقم ٢٠٤٥٠)، والبخارى فى التاريخ الكبير (٣٦٦/٣)، والبيهقى (١٦٣/٨، رقم ١٦٤٣٦).

(**ومن أحب أحدًا منهم يحب طول عمره وبقائه بالضرورة**) على حسب اقتضاء قاعدة المحبة (**وفي محبة بقاء الظالم إرادة على عباد الله تعالى**) لأن إرادة بقاء الظالم تستلزم إرادة بقاء ظلمه (**وإرادة خراب العالم**) فإن قيل: لم لا يجوز أن يقتضي المحبة الدعاء النصح على الامتناع من الظلم والعدل والإنصاف على الرعية كما هو شأن العالم العاقل، قلنا: لو سلم تصور ذلك عن كل عالم فلا شك أنه يتضمن ولو في بعض الأحيان مثل ذلك المحذور.

فإن قيل: فإن لم يكن مصاحبه عالما ناصحا لغلا في الجور على العباد فلعل في خلطة العالم منفعة عظيمة لأهل العالم.

قلنا: روي عن علي رضي الله تعالى عنه: لا تصاحب بقوم أنهم يتكاملون بك وأنت تنقص بهم، ولو سلم فلعل ذلك حاصل بغيرك من العلماء وأنت عد نفسك أني لست من رجال هذا المقام؛ لأن نفسي طاغية لا تنقاد لي؛ بل المناسب لهذا الشأن غيري.

(**فأي شيء أضر من هذا بالدين والعاقبة**)؛ أي: الآخرة بالجر عطف على الدين (**إياك ثم إياك**) يعني: الحذر الحذر من (**أن تخدع باستهواء**) من الهوى (**الشيطان أو قول بعض الناس لك**) وهو من شياطينهم يريدون إضلالك وهم في صورة صداقتك؛ لكنهم في نفس الأمر في غاية عداوتك ولقد صدق من قال: احذر من عدوك مرة، ومن صديقك ألف مرة.

وقيل أيضا: العدو العاقل أولى من الصديق الغبي الجاهل (**بأن الأفضل**) الجار متعلق بالقول.

(**والأولى أن تأخذ الدينار والدراهم**) وقد قيل: آخر بالدينار وآخر الدرهم هم (**منهم**) من الأمراء الواهبين (**وتفرقهما بين الفقراء والمساكين**) وليس ذلك في نفس الأمر محبة وإحسانًا بل كان بغضًا وعدوانًا؛ لأن أموالهم بعد تسليم حلها لا جرم أنها ليس بطيب وإن الله تعالى، وإن قال: كلوا حلالا؛ لكن عقب ذلك بقوله طيبا، ومن أظهر المجربات عند الفقراء الصالحين أن أكل أموالهم يسد أبواب الذكر ويفتح أبواب قسوة القلب

ويحصل قبضًا ضروريًا ويفقد لذة العبادة (**فإنهم ينفقون في الفسق**) كالملاهي والملاعب والإسرافات (**والمعصية**) بل في نحو الخمر وسائر المحرمات والمكروهات.

(**وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم فإن اللعين**) تعليل على مضمون قوله: إياك أن تخدع إلى آخره (**قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة وآفته فاش**) يعني: شائع (**كثير قد ذكرناه في إحياء العلوم**) ولو كان عندنا نسخة لذكرناه (**فاطلبه**) يا من عندك نسخته (**ثمه**)؛ أي: منه؛ لأن هذه الكراسة لا تتحمل ذلك.

obeikandl.com

النصيحة الثالثة والعشرون

الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها

• أيها الولد..!!

ينبغي لك أن تحترز من هذه الأربعة فإنها من المتروكات، وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها:

فالأول: أن تجعل معاملتك مع الله تعالى، بحيث لو عامل بها عبدك معك ترضى بها منه، ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب، والذي لا ترضى به لنفسك من عبدك المجازيّ فلا ترضى أيضا لله تعالى وهو سيدك الحقيقي.

والثاني: كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم؛ لأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يحبّ لسائر الناس ما يحبّ لنفسه.

والثالث: إذا قرأت العلم أو طالعته، ينبغي أن يكون علمك علمًا يُصلح قلبك ويُزكي نفسك، كما لو علمت أن عمرك ما يبقى غير أسبوع، فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والخلاف والأصول والكلام وأمثالها؛ لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك، بل تشتغل بمراقبة القلب، ومعرفة صفات النفس، والإعراض عن علائق الدنيا، وتُزكي نفسك عن الأخلاق الذميمة، وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته، والاتصاف بالأوصاف الحسنة، ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه.

(**وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها؛ الأولى: أن تجعل معاملتك مع الله تعالى**) في جميع الخدمات الإلهية ظاهرًا وباطنًا (**بحيث لو عامل معك بها**)؛ أي: بالمعاملة (**عبدك ترضى أنت بها**) أي: بتلك المعاملة (**منه**)؛ أي: من عبدك (**ولا يضيق خاطرك عليه**)؛ أي: على العبد؛ يعني: لا يقع في قلبك لأجله فتور وانكسار، وإن لم تظهر ذلك على العبد (**ولا تغضب**) بإن تظهر الآثار على العبد: كالضرب، والشتم، والعتاب، وبالجملة تكون راضيًا عن العبد لإتيانه الخدمة على الوجه الأكمل والطرز الأولى على وفق مرادك.

(**ولا ما ترضى لنفسك من عبدك المجازي**) إذ في الحقيقة أن ذلك عبد له تعالى بل كونه عبدًا لك مجعول بجعل الله تعالى؛ لأنهم لما استنكفوا أن يكونوا عبادا له تعالى جعلهم الله عبادًا لعباده وعارض بعروض الكفرإذ الأصل في الإنسان هو: الحرية والإسلام.

(**لا يرضى الله تعالى عنك**) وأنت عبده الحقيقي (**وهو**)؛ أي: الله تعالى (**سيدك الحقيقي**)؛ يعني: غلامك مع كونه عبدًا مجازيًا لك أنت لا ترضى عنه إذا لم يفعل على وفق مأمولك وأنت مع كونك عبدًا حقيقيًا له تعالى كيف يرضى الله تعالى عنك إذا لم تفعل على وفق ما طلبه منك على الوجه الأكمل في كل عبادة وطاعة قولية أو فعلية ظاهرة أو باطنة وهو علام الغيوب وعالم الغيب والشهادة.

(**والثاني: كلما عملت بالناس اجعل كما ترضى لنفسك منهم**)؛ لأنه لا يكمل إيمان العبد (**حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه**) هذا مضمون حديث في « الصحيحين » على رواية أنس رضي الله عنه: « **لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ** »[1]، ويدخل فيه ما عد من مكارم الأخلاق من: الرفق، واللينة، والتواضع، وعفو الإساءة، وستر العيوب، وترك الأذى قولا، وفعلا، وترك اللعن، والسب، والنميمة، والحقد، والحسد، وبالجملة كل معاملة من غيرك في حقك فترضى عنه وتكون بها فرحًا مسرورًا فافعلها في حق غيرك حتى يكون إيمانك إيمانا كاملا، ويقرب إلى هذا المعنى قول علي رضي الله عنه: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته، واشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته فكان نفسه في شغل والناس منه في راحة).

(**والثالث: إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغي أن يكون علما يصلح قلبك**) الظاهر منه الإصلاح (**ويزكي نفسك**) كعلم الأخلاق، وعلم التصوف، والعمل (**كما لو علمت أن عمرك ما بقي غير أسبوع بالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه**) بالتدريس والمطالعة

---

(١) أخرجه البخارى (١/١٤، رقم ١٣)، ومسلم (١/٦٧، رقم ٤٥)، والترمذى (٤/٦٦٧ رقم ٢٥١٥) وقال: صحيح. والنسائى (٨/١١٥، رقم ٥٠١٦)، وابن ماجه (١/٢٦، رقم ٦٦)، والدارمى (٢/٣٩٧، رقم ٢٧٤٠).

والتعلم إذ ليست ذلك مقصودًا لذاته بل المقصود منه هو العمل وأنت بخبر الموت تعلم أنه لم يبق للعمل وقت وأنت تعلم أن الفقه من أشرف العلوم فما ظنك بغيره.

واعلم أن المراد من ذلك بعد ما حصل من الفقه بقدر ما يكمل به نفسه وبعد ما يغني عنه غيره مما يحتاج إليه العامة، وإلا فكيف يتصور المنع من علم هو فرض عين أو كفاية وقد روى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: « **أَفْضَلُ العِبادَةِ الفِقْهُ** ».[١] وفي حديث آخر: «**مَا عُبِدَ اللهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي دِينِ اللهِ، وَلَفَقِيهٌ واحد أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عابد**»[٢]. وفي حديث آخر: « **فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ** »[٣]. وفي حديث آخر: « **فضل العالم على العابد سبعون درجة** »[٤] الحديث.

---

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١/١٢٠). وأخرجه أيضاً: الطبراني في الأوسط (٩/١٠٧، رقم ٩٢٦٤)، وفي الصغير (٢/٢٥١، رقم ١١١٤)، قال الهيثمي (١/١٢٠): رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه محمد بن أبي ليلى ضعفوه لسوء حفظه. والديلمي (١/٣٥٤، رقم ١٤٢٢).

(أفضل العبادة الفقه) أي الفهم في الدين وانكشاف الغطاء عن عين اليقين، وقيل: المراد الاشتغال بعلم الفقه، والأوّل أقرب، قال السهروردي: جعل الله تعالى الفقه صفة للقلب، فقال: (لهم قلوب لا يفقهون بها) فلما فقهوا علموا ولما علموا عملوا ولما عملوا عرفوا اهتدوا، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر انقيادا لمعالم الدين وأوفر حظا من نور اليقين. [التيسير بشرح الجامع الصغير ١/٣٧٥]

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/١٩٤، رقم ٦١٦٦) قال الهيثمي (١/١٢١): فيه يزيد بن عياض، وهو كذاب. والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٦٦ رقم ١٧١٢) وقال: فيه يزيد بن عياض ضعيف. والخطيب (٢/٤٠٢)، وابن عساكر (٥١/١٨٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/٥٠، رقم ٢٦٨٥) وقال: غريب. والطبراني (٨/٢٣٣، رقم ٧٩١١)، والحارث كما في بغية الباحث (١/١٨٤، رقم ٣٩)، وابن حبان في الضعفاء (١/٣٤٠، ترجمة ٤٢٨ سلام بن سلم الطويل) وقال: يروى عن الثقات الموضوعات كأنه كان المعتمد لها. وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/٢١).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٧٠ رقم ١٧٢٥) وابن عدي (٦/٢٢٢، ترجمة ١٦٩٢ محمد بن عبد الله بن علاثة القاضي).

وغيرها من الأحاديث الدالة على فضل العلم علي العبادة، وفي الخلاصة النظر في كتب أصحابنا من غير سماع أفضل من قيام الليل، وفي التجنيس: تعلم الفقه أولى من تعلم القرآن، وتعلم القرآن أفضل من صلاة التطوع، وطلب الفقه أفضل من جميع أعمال البر.

فإن قيل: مقتضى هذه الأحاديث وكذا أقوال الفقهاء أن يرجح جانب الفقه من الذي نعى؛ يعني: الذي وصل إليه خبر موته في الأسبوع.

قلت: المراد ما هو بقدر الحاجة كما أشير، والمراد: المنع عن القصر على الفقه، ويؤيد ما في بستان العارفين ينبغي أن لا يقتصر على الفقه، ولكن ينظر في علم الزهد وفي كلام الحكماء وشمائل الصالحين؛ فإن الإنسان إذا تعلم الفقه ولا ينظر في علم الزهد والحكمة قسا قلبه والقلب القاسي بعيد من الله، انتهى.

نعم الظاهر من صنيع المص أنه اختار أفضلية جانب العمل على العلم كما فهم من «وصايا السيوطي » وقد سمعت وصية خضر عليه السلام إلى موسى عليه وعلى نبينا السلام لعل هذا مذهب الشافعية نعم من الحنفية من ذهب إلى ذلك كداود الطائي رحمه الله تعالى فإنه بعد ما حصل الفقه ترك تعليمه، واختار العمل، وإن كان الأصح عند الحنفية أفضلية العلم لكونه عبادة متعدية إلى الغير ولذا فضّل الذي الذي يتعلم للتعليم على الذي يتعلم لأجل العمل.

(**والخلاف والأصول**) يعني؛ أصول الفقه، لا أصول الدين بقرينة قوله (**والكلام**)؛ أي: ماعدا العمل مسائل العقائد الدينية، فالمراد هو كلام المتأخرين الذي خلط بالفلسفيات، وكثير من العقبات؛ إذ العقائد الدينية أصل كل علم وعبادة.

(**وأمثالها؛ لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك**) وقد عرفت أن المراد هو التبحر فيها؛ يعني: وراء الحاجة الأصلية وإلا فكل عمل يتوقف على علمه (**بل تشتغل بمراقبة القلب**) هل فيه ذكر الله تعالى أو غيره وتخاطر شيئًا من الغوائل الذميمة أولا.

(**ومعرفة صفات النفس**) من الأخلاق (**والأعراض عن علائق الدنيا، وتزكي نفسك عن الأخلاق الذميمة**) هذا كالتكرير لما قبله لزيادة الاعتناء والاهتمام بشأنها (**وتشتغل بمحبة الله تعالى**) والمحبة وإن كانت من عطية الرب؛ لكن حصولها من جهة العبد

بترك ملاحظة غير الله تعالى بأن يخلو القلب عن كل شيء غيره تعالى، فإذا تفكر اسمه في القلب وارتسخ ذلك ودام يحصل لذة تنقطع جميع اللذات عندها، ولا يتعلق القلب بالغير وإن كان تكلف أن يخطر الغير لا يمكن ذلك فهذا غاية طريق المتصوفة.

وعن سيد الطائفة جنيد - قدس الله سره العزيز - أن حصول المحبة له تعالى والتبتل إليه بشرائط إلى سبعة بقرينة، والسابع دوام الوضوء، ودوام الخلوة، ودوام الصوم، ودوام السكوت؛ لأن التكلم بغير الذكر يطفئ أنوار الذكر، ودوام الذكر، وربط القلب، والسابع: نفي الخواطر خيرًا كان أو شرًا؛ فإن لم يمنع خواطره غيره تعالى يكون سوء أدب مع الله تعالى فيعاقب بوساوس النفس، والخواطر الشيطانية، ويذهب حلاوة الذكر؛ بل ربما يأتي النفرة عن الذكر والاستئناس مع الخلق فيظهر ولاية الشيطان، وسلطنته، ويتصرف الشيطان حيث شاء.

(وعبادته، والاتصاف بالأوصاف الحسنة) لعل ذلك أما الأعمال الصالحة أو الأخلاق المرضية فعلى التقديرين هو كالتأكيد لما قبله للتثبيت وزيادة التقرير، وما في حاشية شيخ زاده، روي أنه حين أخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بموت رجل بعد ساعة اضطر الرجل فسئل منه عليه الصلاة والسلام: أوفق العمل في هذه الساعة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: « **اشتغل بالعلم** » قال الراوي: فلو كان شيء أفضل من العلم لأمره النبي عليه الصلاة والسلام بذلك في ذلك الساعة، فلعل ذلك الرجل عامي محض فالأفضل في حقه هو العلم سيما المتعلق بتفاصيل المعاد؛ بل المبدأ وما ذكره المص بالنسبة إلى الخواص وإلا فإن صح هذا الراوية فلا شك أن يكون ما ذكره رأيًا في مقابلة النص.

(ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه) فاللائق عليه أن لا يشتغل في جميع الأوقات غير ما ذكرنا إذ الموت في كل يوم وليلة مقرر وسادتنا النقشبندية - قدس الله أسرارهم - يأمرون بإن يجعل كل نفس آخر نفس كأنه يختم عمره بذلك النفس كي لا يذهل بغيره تعالى بل يستغرق ويستهلك بمطالعته فإنه سيلاقيه، وإن المؤمن محب لله تعالى، فهل يليق للمحب أن يذكر غير محبوبه ويفضل عليه غيره.

النصيحة الرابعة والعشرون

اسمع مني كلاما آخر وتفكر فيه

• **أيها الولد..!!**

اسمع مني كلاما آخر، وتفكر فيه حتى تجد فيه خلاصا: لو أنّك أخبرت أن السلطان بعد أسبوع يجيئك زائرًا. فأنا أعلم أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمت أن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدّار والفرش وغيرها.

والآن تفكر إلى ما أشرت به فإنك فهم، والكلام الفرد يكفي الكيّس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله لا ينظر الى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم» رواه مسلم(١).

وإن أردت علم أحوال القلب فانظر إلى «الإحياء» وغيره من مصنفاتي، وهذا العلم فرض عين، وغيره فرض كفاية، إلا بمقدار ما يؤدي به إلى فرائض الله تعالى، وهو يوفقك حتى تحصّله.

والرابع: ألا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدّ ذلك لبعض حجراته، وقال: « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوت آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا (٢)» رواه مسلم(٣)، ولم يكن يعدّ بعد ذلك لكل حجراته بل كان يعدّه لمن علم أن في قلبها ضعفا، وأما من كانت صاحبة يقين فما كان يعدّ لها أكثر من قوت يوم أو نصف.

(**أيها الولد**) ما بعد هذا من تتمة ما قبله، يدل عليه قوله الآتي والرابع، لكن فصل ذلك بهذا القول إشارة إلى زيادة الاعتناء والاهتمام وجه اتصاله إلى ما قبله أن حاصله تثبيت مراقبة القلب وتوضيحه بالتنظير.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٨٧/٤ رقم ٢٥٦٤) وروايته: "قلوبكم وأعمالكم"، وابن ماجه (١٣٨٨/٢، رقم ٤١٤٣). وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (٣٦٩/١، رقم ٣٧٩)، وابن حبان (١١٩/٢، رقم ٣٩٤)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٢٨/٧، رقم ١٠٤٧٧)، والديلمى (١٦٦/١، رقم ٦١٤).

(٢) الكفاف: ما أغنى عن سؤال الناس وحفظ ماء الوجه وسد الحاجة من الرزق.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٨١/٤، رقم ١٠٥٥). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٢٥٤/١٤، رقم ٦٣٤٣).

(**اسمع مني كلامًا آخر**) يتضح به ويتبين منه ما هو المقصود عما قبله (**وتفكر فيه**) بالنظر، والاعتبار، والعناية، والاستدلال (**حتى تجد خلاصة**) عن النار في تلك الدار أو عن اشتغال القلب؛ بل جميع الجوارح عما لا يليق به تعالى في هذه الدار وهذا الكلام هو (**لو أنك أخبرت**) بصيغة المجهول (**أن السلطان بعد أسبوع يجيئك زائرًا**) لزيارة (**فأنا أعلم**) وأتيقن (**أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما عملت أن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب**) فتلبس جيدها وأحسنها (**والبدن**) فتظهره من جنس الخبث والوسخ (**والدار**) فتهيئ أحسنها (**والفروش**) فتبسط أجملها (**وغيرها**) مما يكون مرغوبًا ومرضيًا عند السلطان هذا هو التنظير فالمقصود قوله (**والآن**)؛ أي: في هذه الساعة (**تفكر**) واستدل (**إلى ما أشرت به**) بالخطاب وصيغة المفعول من نحو مراقبة القلب الذي هو المقصود في الباب؛ يعني: اشتغلت إلى ما يتعلق إليه نظر السلطان في تلك الحالة فأولى لك أن تشتغل إلى إصلاح ما يتعلق إليه نظر الله تعالى، وهو القلب، ويمكن أن يعم إلى سائر محل العبادات بأنواعها وأوصافها (**فإنك فهم**)؛ أي: فاهم وفهيم (**والكلام الفرد**)؛ أي: القليل (**يكفي الكيس**) الذي يستدل بما ألقى على ما أبقى على خلاف الغبي والأحمق.

(**قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم**: « **إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم** »)؛ أي: صورة أعمالكم؛ إذ الأعمال بلا نية حميدة ليست بمرضية؛ إذ الأعمال بالنيات التي في القلب كما يشير إليه.

(**ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم، وإن أردت علم أحوال القلب فانظر إلى الإحياء وغيره من مصنفاتي**) فإنه يقتضي بسطًا وتفصيلا لا يتحمله هذه الكراسة.

(**وهذا العلم**)؛ أي: علم أحوال القلب (**فرض عين**) إذ المقصود من شرعيته ليس مجرد الحصول؛ بل المقصود: هو الحصول من إفراد كل أحد على الخصوص.

(**وغيره فرض كفاية**) الظاهر المراد من الغير: الفقه ونحوه: كما ذكر والمراد من كونه فرض كفاية: ما يكون زائدًا على حاجة كل أحد في نفسه، وهو المعبر عنه بعلم الحال، وإلا فقد عرفت أن ما يتوقف عليه الأعمال الظاهرة كالصلاة والصوم فرض عين، كما

يدل عليه قوله: (إلا مقدار ما يؤدي فرائض الله تعالى من الوضوء والصلاة وغيرها) الظاهر وغيرهما وكذا واجباته تعالى، وقد وقيل: العلم تابع للمعلوم؛ يعني: علم الفرائض فرض وعلم الواجبات واجب، والأولى: أن يشير إليه؛ إلا أن يحمل على المقايسة أو الاكتفاء.

(**والرابع**) من التي ينبغي لك أن تفعلها (**أن لا تجمع من الدنيا أكثر لأجل العيال من كفاية سنة**) لنفسك ولمن مؤنته ونفقته عليك؛ لأنه تضييع وقت ومانع توكل فلذا قال بعض الفقهاء: إن كفاية سنة الحوائج الأصلية لا يعتبر في الغناء كما في الطريقة.

قال محشية خواجه زاده: حتى لو كان قيمة ذلك مقدار النصاب لا يجب عليه الأضحية، وصدقة الفطر، ونفقة الأقارب، ويجوز له أخذ زكاة الغير، والنذر، والوصية المطلقة، وغير ذلك من الفروع، ثم قال في الطريقة: أن ما زاد على قوت سنة يعتبر في الغناء، وأما من لا عيال له فله أن يدخر قوت أربعين يومًا وإن ادخر زائدًا عليه خرج من التوكل؛ أي: الكامل.

(**كما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعد**)؛ أي: يهيئ (**لبعض حجراته وقال: اللهم اجعل قوت آل محمد**) الظاهر من الآل هنا هو: أهل البيت رضي الله تعالى عنهم أجمعين (**كفافا**) على قدر كاف؛ يعني: لا زيادة مانعة ولا نقصانا مخلا كما في الحديث: « **اللَّهمَّ إِني أَعوذ بك من الجُوع، فإنه بِئْسَ الضْجيعُ** »[1].

(**و**) مع ذلك (**لم يكن يعد ذلك**)؛ أي: قدر كفاية سنة (**لجميع حجراته؛ بل كان عليه الصلاة والسلام يعد ذلك**) المقدار (**لمن**) لزوجته (**علم**) عليه الصلاة والسلام (**إن في قبلها ضعفًا**) لابتداء إسلامها أو لكونها من عوام أصحابه (**وأما من كانت صاحبة يقين**) وتوكل تام (**ما كان يعد لها إلا قوت يوم أو نصفه**) لعدم تعلق قلبها وعدم اضطرابها لعدمه بل تقنع بقوت يوم كما تقنع بقوت نصف يوم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/٩١، رقم ١٥٤٧)، والنسائي (٨/٢٦٣، رقم ٥٤٦٨)، وابن ماجه (٢/١١١٣، رقم ٣٣٥٤). وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (١/٣١٦، رقم ٢٩٩)، وأبو يعلى (١١/٢٩٧، رقم ٦٤١٢).

النصيحة الخامسة والعشرون

الدعاء والخاتمة

• أيها الولد..!!

إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك، فينبغي لك أن تعمل بها ولا تنساني فيه من أن تذكرني في صالح دعائك.

وأما الدعاء الذي سألت مني فاطلبه من دعوات الصحاح، واقرأ هذا الدعاء في أوقاتك، خصوصا في أعقاب صلوتك:

اللهم إني أسألك من النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمّه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أنفعه.

اللهم كن لنا ولا تكن علينا، اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقق بالزيادة آمالنا، واقرن بالعافية غدوّنا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا، ومنّ علينا بإصلاح عيوبنا، واجعل التقوى زادنا، وفي دينك اجتهادنا، وعليك توكلنا واعتمادنا.

اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفف عنا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا ما أهمنا في هذه الدار وفي تلك الدار، واصرف عنا شرّ الأشرار، وكيد الفجار، واعتق رقابنا، ورقاب آبائنا، وأمّهاتنا، وإخواننا، وأخواتنا، ومشايخنا من النار، برحمتك يا عزيز يا غفار، يا كريم يا ستّار، يا خالق الليل والنهار، خلّصنا من هم الدنيا وعذاب القبر والنار، يا رحيم يا جبّار يا الله.. يا الله.. يا الله.. يا الله.. يا رحيم، يا رحيم، يا أرحم الراحمين ويا أول الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

opeikandi.com

لما فرغ عن النصائح أراد أن يذكر الدعاء الذي يقرأ في الأوقات الذي سبقت الإشارة إليها فقال: (**أيها الولد: إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك**) كلها (**فينبغي لك أن تعمل بها**)؛ يعني: قد فعلنا ما يكون منا فافعل أنت ما يكون منك (**فلا تنساني من أن تذكريني في صالح دعواتك**)؛ أي: في دعواتك الصالحات؛ لأن شكر المنعم على المنعم عليه واجب (**وأما الدعاء الذي سألت مني فاطلبه من دعوات**) الأحاديث (**الصحاح**) فإن أفضل الأدعية وأولاها على الإطلاق: ما أخذ عنه عليه الصلاة والسلام بالإجماع والاتفاق؛ فإنه العارف خواص الأدعية اللائق بحال الداعي، ولأي شيء يدعى، وبأي لفظ يعبر، وبأي نظم يعقد، ويقرر، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يترك خصالا حميدة ولا خلة سعيدة إلا طلبها من مولاه بداية ونهاية إجمالا وتفصيلا.

(**واقرأ هذا الدعاء في جميع أوقاتك**) سيما الأوقات التي وردت استجابة لدعوات فيها: كليلة القدر، ويوم عرفة، وشهر رمضان، وليلة الجمعة، ويومها، وجوف الليالي (**خصوصا في أعقاب صلواتك**) الخمس، أو مطلق الصلوة كالجمعة، والعيد، والنوافل. قال السيوطي في رسالة المخصوصة بالدعاء: أخرج ابن عساكر، عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: « **من كانت له إلى الله تعالى حاجة فليدع بها دبر صلاة مفروضة** »[1]، وأخرج أبو بكر ابن أبيض، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: « **من صلى صلاة فريضة فله دعوة مستجابة**»[2]، ثم أنه يحتمل أن يكون هذا الدعاء من جملة الأحاديث الصحاح كما في بعض المواضع على أن يكون راويه عائشة رضي الله عنها وعن أبويها فحينئذ يكون قريبًا أن يكون من عطف الخاص على العام فوجه الخصوص اشتماله لجميع المهمات الدينية والحاجات الأخروية على أبلغ وجه، وأعذب لفظ، وأفصح تعبير وآكد تقرير، سواء

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٥/٤١٥).

(٢) أخرجه الطبراني (١٨/٢٥٩، رقم ٦٤٧) قال الهيثمي (٧/١٧٢): فيه عبد الحميد بن سليمان وهو ضعيف.

كانت مما تتعلق بجلب نفع أو دفع ضر ويحتمل أن لا يكون كذلك لكن حينئذ وإن كان معناه أشمل على جميع لطائف المهمات؛ لكن الأولى في الاختيار أن يكون بلفظ الحديث؛ إذ لا يمكن أن يعادل ما نظمه الغير بما نظمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذ هو العارف بما يليق أن يدعى به أو عنه، وإن في الحديث فضيلتين: فضيلة الدعاء، وفضيلة الحديثية كما بلفظ القرآن فلعل المص وصل إليه كونه حديثًا فلذا اختاره كما يتبادر من كلامه.

ثم اعلم أنه قيل: يشترط في حصول الثواب معرفة معاني الأدعية اختاره الإمام الغيطي.

وقال ابن حجر والهيثمي: لا يثاب بلا فهم المعاني ولو بوجه بخلاف القرآن للتعبد بلفظه الشريف وأورد عليه أن ذلك محتاج إلى النقل بل القياس من عدم الفرق بين القرآن وغيره، وإن كان متفاوتا، ثم قيل: وعليه عمل الصلحاء من جعل الأدعية والأذكار أورادًا يواظبون عليها وما حسن المسلون فهو عند الله حسن، وفضل الله واسع، انتهى.

لا يخفى أنه يرد عليه إن كان الصلحاء من العلماء فلا جرم أنهم عالمون معاني الأذكار، وإلا فلا يصلح الاحتجاج بعملهم وما يكون حسنا عند الله تعالى ما حسن عظماء العلماء؛ إلا أن يقال: أنهم لكونهم صلحاء لا يواظبون على ما لم يصل إليهم صحته وثبوته، فلعلهم وصل إليهم ذلك وبالجملة أن فضل الله تعالى واسع فافهم والسابق إلى الخاطر أن فهم معنى الدعاء والذكر أولى وأفيد وأقرب إلى الخضوع بلا لزوم وعليه حمل علي القاري قول حصن الحصين يتدبر ما يقول ويتعقل معناه، وإن جهل شيئًا تبينه، ثم السابق إلى الخاطر أن من لم يعرف معنى الأدعية المأثورة لا يتركها لعدم علمها وأما غيرها فلعل الأولى أن يدعو بما يعرفها ولو بغير لفظ عربي بقي أن من آداب الدعاء بسطه كفيه رافعًا حذاء صدره وبينهما فرجة كما في كبير الحلبي، وضم اليدين وتوجيه أصابعها مع انضمامها نحو القبلة كما في « شرح الحصن » لعلي القاري فبينهما مخالفة؛ إلا أن يحمل على جوازهما أو يراد من الضم الضم في مجرد الرفع والبسط، وينظر عند الدعاء بين يديه كما يقبل عن الحقائق، ومما ينبغي أن ينبه هنا أن الدعاء هو: العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] الآية.

وفي الحديث[1]: « **ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء؛ لأنه عبادة، وإخلاص، وحمد، وشكر، وسؤال، وتوحيد، ورغبة، ومناجات، وتضرع، وتذلل، واستكانة، واستغاثة، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى، وكمال عجز العبد** »، ثم إنه أشكل خفي على هذا الحديث بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] ودفع بإن المراد من هذا الحيث ليس شيء من أنواع العبادات القولية؛ فإن الصلاة أفضل العبادات البدنية.

أقول: هذا تخصيص بلا مخصص ولا داع بل الظاهر: أن الدعاء من أفراد التقى؛ لكن يشكل بهذا الحديث على قولهم: أن الذكر أفضل وأكمل من الدعاء محتجا بقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥] إذ ما لا يكون أكرم لا يكون أكبر.

(**اللهم إني أسألك من النعمة تمامها**) أخروية أو دنيوية؛ لعل المراد من تمام النعمة الدنياوية ما يكون وسيلة إلى النعم الأخروية ومدارا عليها والتوفيق على الطاعة يحتمل أن يعد من كل منهما بجهتين، ولعل منها أيضا الشكر على النعمة؛ إذ لا شك أن الشكر متمم للنعمة ولئن شكرتم لأزيدنكم، وأعظم النعم الإسلام وأدناها توفيق تسبيح وعصمة عن كل كلمة لا تغنيك كذا.

قال المص في « المنهاج » (**ومن العصمة**)؛ أي: الوقاية والحفظ عن كل سوء ومكروه سيما حفظ الدين وسلامته (**دوامها**) بأن لا يزول ولا يزيغ أبدًا سيما عند قبض الروح بالنسبة إلى الإيمان (**ومن الرحمة شمولها**) بجميع الخير والبر الديني والدنياوي الأنفسي والآفاقي (**ومن العافية حصولها**)؛ أي: وجودها في الحديث سلوا الله العفو والعافية؛ فإن أحدًا لم يعط بعد اليقين خيرًا من العافية وفي آخر. ما سأل العباد شيئًا أفضل من أن يغفر لهم ويعافيهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٢/٢، رقم ٨٧٣٣)، والبخارى فى الأدب المفرد (٢٤٩/١، رقم ٧١٢)، والترمذى (٤٥٥/٥، رقم ٣٣٧٠)، وقال: حسن غريب. وابن حبان (١٥١/٣، رقم ٨٧٠)، وابن ماجه (١٢٥٨/٢، رقم ٣٨٢٩)، والحاكم (٦٦٦/١، رقم ٨٠١) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٨/٢، رقم ١١٠٦).

قال في « الحصن » قال العباس رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله تعالى؛ علمني بشيء أدعو الله به، فقال: « **سل ربك العافية، قال: فمكثت أياما، ثم جئت، فقلت: يا رسول الله تعالى؛ علمني شيئًا أسأله ربي عز وجل، فقال: يا عم سل العافية** »[1] ثم عن الطبراني، قال: فلينظر العاقل مقدار هذه الكلمة التي اختارها صلى الله تعالى عليه وسلم لعمه من دون الكلم إلخ، ثم قال: فلقد تواتر عنه عليه الصلاة والسلام: « **الدعاء بالعافية** » وورد عنه لفظًا ومعنى من خمسين طريقًا هذا، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو المعصوم على الإطلاق، فكيف بنا ونحن عرض لسهام القدر، وعرض بين سهام النفس والهوى والشيطان.

كما ورد في الخبر: « **اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة** »[2]، قيل: عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: « **العافية عشرة: خمسة في الدنيا: العلم، والعبادة، والرزق الحلال، والصبر على الشدة، والشكر على النعمة. وخمسة في الآخرة: يأتيه ملك الموت بلطف ورحمة، ولا يروعه منكر ونكير في القبر، ويكون آمنًا من الفزع الأكبر ومحو سيئاته، وإن يكون حسناته مقبولة، ويمر على الصراط كالبرق الخاطف ودخل الجنة مع السلامة** ».

(**ومن العيش**) ما يعاش به (**أرغده**) الرغد: سعة العيش، يقال: عيشه رغدا؛ أي: واسعة طيبة، وقد يقال: زيادة المال بلا زحمة.

(**زمن العمر أسعده**) لعل سعادته ما كان مصروفا على طاعة الله ومنهيا عن جميع ما كره إلى الله تعالى.

(**ومن الإحسان أئمه**) لعل الإحسان هو الحسنة التي عدت من جوامع الكلم، وكان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام به بقوله: « **اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي**

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/٥٣٤، رقم ٣٥١٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/٩٨٥، رقم ٢٩٥٧). قال البوصيرى (٣/١٩٥): هذا إسناد ضعيف. وأخرجه أيضًا: الديلمى (٤/٣٨٥، رقم ٧١١٩).

obeikandl.com

الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»[1] كما في الحزب الأعظم، وفي « كتاب البركة »: كان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام به وإن إنسا لا يدعو بدعاء إلا جعلها فيه وفي بعض المواضع عن تفسير الحدادي إن الحسنات عشرة خمسة في الدنيا علم الدين والعمل الصالح وأكل الحلال والزوجة الصالحة والمسكن الذي يسكن فيه وخمسة في الآخرة قبول الطاعات وغفران السيئات وإرضاء الخصوم، ونجاة من النيران، ودخول الجنة، فلعل تمام الحسنة هو حصول هذه العشرة.

(**ومن الإنعام أعمه**) ما يكون دينيا بجميع الأنواع ودنيا ويا كذلك من النفساني وصفاتها والأولادي، والأهلي، والأموالي مع أحوالها، ولو أحقها.

(**ومن الفضل**) ضد النقص كما في « القاموس » لعل المراد النعم المتكثرة (**أعذبه**) العذب الحلو لعل عذب الفضل هنا النعم التي يراعي حقها ويؤدي شكرها وتقوى بها على الطاعة ويتوسل بها إلى وجوه البر بلا تسب إلى النقمة ولا تطرق حسرة وندامة.

(**ومن اللطف**) قال في « القاموس »: لطف لطفا رفق واللطيف البر بعباده المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف، ثم قال: واللطف بالضم التوفيق فالمقام صالح للكل؛ لكن الأقرب أن يكون اللطف المفهوم من اللطيف (**أنفعه**) وكونه أنفع كونه دائمًا وكاملا يؤدي حقه، ويعلم قدره بالشكر، والحمد.

(**اللهم كن لنا**) لنفعنا؛ يعني: افعل بنا ما ينفعنا (**ولا تكن علينا**)؛ أي: على ضرنا؛ يعني: لا تفعل بنا ما يضرنا في جميع الأمور في البدايات والنهايات في الديانات والمعاملات، وفي الأفعال والأقوال واعتقاديات لا سيما في الأخرويات، وتوسيط لفظ اللهم لكونه نوعًا آخر من المقاصد ولكونه جامعا بجميع المرادات والحاجات كما أعاده في قوله: (**اللهم اختم بالسعادة آجالنا**) لكونه من أقصد المقاصد وأجل المآرب؛ بل هو نتيجة جميع

---

(١) أخرجه البخارى (٥/٢٣٤٧، رقم ٦٠٢٦)، ومسلم (٤/٢٠٧٠، رقم ٢٦٩٠). وأخرجه أيضًا: أحمد (٣/١٠١، رقم ١٢٠٠٠)، وأبو داود (٢/٨٥، رقم ١٥١٩)، وابن حبان (٣/٢٢٠، رقم ٩٤٠).

المطالب وثمرة جميع العبادات، والمقاصد سعده سعادة لا يتصور بعدها شقاوة رزقنا الله تعالى، وشقاوته شقاوة لا يتصور بعدها سعادة فسعده سعادة لا يوازنه سعادة، وشقاوته لا يحاذيه شقاوة – أعاذنا الله تعالى بلطفه وكرمه –.

(**وحقق**)؛ أي: أعط جميع ما سئلناه اعطاء محققًا ملابسًا (**بالزيادة آمالنا**)؛ أي: أعط جميع مأمولاتنا وكل ما سألنا مع زيادة ما أملنا ورجونا بما لم يسبق إليه خواطرنا، ولم يسمعه آذاننا، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

(**واقرن بالعافية غدونا وآصالنا**)؛ أي: نهارنا ولياليا أعاد الدعاء بالعافية بعد ما ذكر سابقًا لزيادة شرفها واهتمامها كما سبق (**واجعل إلى رحمتك مصيرنا**) مرجعنا فقوله: (**ومآلنا**) كعطف تفسير له، قال في « القاموس » آل إليه ولا ومآلا إذا رجع الظاهر اجعل انتقالنا من هذه الدار إلى تلك الدار انتقالا من السجن إلى الجنة ومن العقوبه إلى الراحة، ومن الزحمة إلى السلامة.

(**وصب سجال عفوك على ذنوبنا**) جمع سجل. قال في « القاموس »: السجل: الدلو العظيم مملوءة مذكر، وملأ الدلو، والرجل الجواد، والضرع العظيم فتطهير ذنوبك بالعفو كتطهير النجس والوسخ بالماء المصاب بالكثرة، فالمقصود طلب مبالغة العفو والغفران.

(**ومنّ علينا بإصلاح عيوبنا**) الظاهر أنه من المن؛ بمعني: الإحسان لعل المراد من إصلاح العيوب سترها وعفوها.

(**واجعل التقوى زادنا**) ذخرنا في سفرنا من الدنيا إلى الآخرة، وقد عرفت فضائل التقوى.

ونقل عن المص أيضا: أن خيرات الدنيا جمعت تحت هذه الخصلة الواحدة، وكل خير وسعادة في الدارين تحت هذه اللفظة إذ هي كنز عزيز عظيم، وعلو نفيس، وخير كثير، ورزق كريم، وفوز كبير، وملك عظيم فلا تنس نصيبك من الدنيا.

قال بعض العارفين لشيخه: أوصني، قال: أوصيك بوصية رب العالمين للأولين والآخرين، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب الآية كما عرفت سابقًا.

(**وفي دينك اجتهادنا**)؛ يعني: اجعل سعينا، ومجاهدتنا وجدنا في طاعتك ورضاك، (**وعليك توكلنا**) الظاهر بنصب معمول لا جعل كما يؤيده قوله: (**واعتمادنا**) دون اعتمادنا وقد عرفت سابقًا؛ معنى: التوكل (**وثبتنا**) من التثبيت والتقرير (**على نهج**) طريق (**الاستقامة**) وقد عرفت أيضا معنى الاستقامة (**وأعذنا**) من العصمة والحفظ؛ أي: اعصمنا (**في الدنيا من موجبات الندامة**) من فعل المنكرات، وترك المأمورات، وخلو الأوقات، مما يهيئ به إلى الملاقات، كما في الحديث ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم و لم يذكروا الله تعالى فيها (**يوم القيامة**) لم يرى من العذاب، والعقوبات، والعتاب، وحرمان الشفاعة، ولعدم نيل ما نال به الصديقون والسابقون بمجاهدتهم ومسارعاتهم في الدنيا (**وخفف عنا**) كناية عن الإعدام والإزالة (**ثقل الأوزار**)؛ أي: الأوزار كالأحمال الثقيلة التي شأنها إهلاك حواملها وإتلافها.

(**وارزقنا عيشة الأبرار**) من التوكل، وترك الحرص، والطمع، وترك ميولات الدنيا، وعد ميول النفوس الشهوانية، وحفظ الأوقات بالطاعات، وجعل الغداء واللذة والراحة بالأذكار وأنواع العبادات.

(**واكفنا**) الكف المنع (**واصرف عنا**) ارفع عنا (**شر الأشرار**) من الشيطان وشقاوة الإنسان.

(**واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا من النيران برحمتك**) كأن النفوس العصاة كرقاق النار لكون سعيهم وخدمتهم لها فالمراد أما الحفظ في الدنيا من الاشتغال بما يوجب النار أو العفو في الآخرة قبل مقاساة حرارة النار وقبل الدخول تحت ولايتها وتصرفها.

(**برحمتك يا عزيز يا غفار**)؛ يعني: اعط جميع ما سألناك بسبب رحمتك، وكمال شفقتك ورفقك لا باستحقاقنا، والأدب في الدعاء أن يوصف الله تعالى بأوصاف مناسبة لما دعي به فإتيان الأوصاف لهذا الأدب. ثم النسخ هنا مختلفة ففي أكثرها هكذا.

(**يا كريم، يا ستار، يا حليم، يا جبار، يا الله، يا الله، يا لله، يا رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة برحمتك يا أرحم**) الراحمين الأولى أن يكرر هذا لما في الحصن عند الطبراني أن لله

ملكا مؤكلا لمن يقول: يا أرحم الراحمين فمن قالها ثلاثا، قال له الملك أن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فاسأل والله الموفق.

تم الشرح بالكلام بعون الله الملك المنعام من قلم من أخرج من البياض إلى السواد بعون من هو يسهل الأمور ويعطي المراد عسى الله أن يجعله ذخرًا وافيا وسعيًا مشكورًا مقبولا كافيًا في سنة إحدى وستين ومائة وألف من هجرة من له غاية العز والشرف. صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما كثيرا مع أصحابه وجميع آله وأحبابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، آمين.

obeikandl.com

فوائد

إذا كان الشخص منفردًا عن مرشد كامل أو صديق ناصح فليطالع هذه النصائح حتى تكون نصب عينيه، يرجو من فضل الله ألا يكون للنفس والشيطان عليه استيلاء، ولا يقف عن الترقي في أحواله:

أحديها: أن يعرف دقائق الرياء حتى تكون أعماله خالصة لوجه الله.

والثانية: أنه إذا ظفر بشيء من مراتب الطريق لا يعجب به، يتهم نفسه ويعتقد أنه ليس في العالم بضال مثله ويرى تقصيره في كل عمل.

والثالثة: يحسن الظن بالله ويقول: إن الله يرزق الظلمة والفساق والكفار والكلاب وسائر المخلوقات فلا يحرمني مما قدّر لي من الرزق.

والرابعة: لا يستعجل في حصول المقصود.

والخامسة: يُعوّد نفيه على تحمل إيذاء الخاص والعام والصغير والكبير والمحب والعدو.

والسادسة: لا تحقرن مسلمًا بعصيان صدر منه لأن الخاتمة مبهمة.

والسابعة: يخاف من سوء الخاتمة، والعياذ بالله.

والثامنة: يقصر الأمد بحيث إذا صلى صلوات يعتقد أنها آخر صلواته يعيش إلى صلوات آخرى، أم لا؟!!

والله الموفق للصواب.

تمت هذه الوصية بعون الله الملك الوهاب

obeikandl.com

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – الأدب المفرد للبخاري، ترتيب: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط ١، سنة ١٤٠٤هـ.

٣ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، ط دار الإفتاء، الرياض، سنة ١٤٠٣هـ.

٤ – أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي، من مطبوعات مركز إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، تحقيق: د محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود.

٥ – الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، سنة ١٩٩٠ م.

٦ – الأنساب، للسمعاني، الناشر: محمد أمين دمج، بيروت، سنة ١٤٠٠ هـ.

٧ – إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة للشيخ حمود بن عبد الله التويجري، دار الصميعي، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٤ هـ.

٨ – الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين الفارسي، تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ١٤٠٧ هـ.

٩ – الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة للعلامة محمد صديق حسن القنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ.

١٠ – الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للعلامة صالح بن فوزان الفوزان، ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، الرياض، سنة ١٤١٠هـ.

١١ – الإشاعة لأشراط الساعةً للشريف محمد بن رسول البرزنجي، دار المنهاج، ط ١، سنة ١٤١٧هـ.

١٢ – إكمال إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم، لأبي عبد الله الأبي، مكتبة طبرية الرياض، بدون تاريخ.

١٣ – اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم تحقيق د / ناصر بن عبد الكريم العقل، مطابع العبيكان الرياض، ط١، سنة ١٤٠٤ هـ.

١٤- إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

١٥ – البداية والنهاية لابن كثير، اعتناء: عبد العزيز النجار، مكتبة الأصمعي وغيرها، الرياض.

١٦ – البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني، مطبعة السعادة، القاهرة ط ١، سنة ١٣٤٨ هـ.

١٧ – البعث والنشور للبيهقي.

١٨ – بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، للضبي، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٩٦٧م.

١٩ – بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت، ط ٢، سنة ١٣٩٩هـ.

٢٠ – تاج العروس في جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، طبعة وزارة الإعلام الكويتية، سنة ١٣٨٥ هـ.

٢١ – تاريخ ابن جرير الطبري – طبعة دار المعارف – الطبعة الثانية – تحقيق / محمد أبو الفضل.

٢٢ – تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٣ – تبيين كذب المفتري لابن عساكر، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٣٩٩هـ.

٢٤ – تذكرة الحفاظ للذهبي، تصحيح عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٥ – التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، تحقيق أحمد حجازي، مكتبة الكليات الأزهرية، سنة ١٤٠٠ هـ.

٢٦ – ترتيب القاموس للزاوي – دار الكتب العلمية – سنة ١٣٩٩ هـ.

٢٧ – ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض تحقيق سعيد أحمد أعرابي، طبعة وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية.

obeikandi.com

٢٨ – التصريح بما تواتر في نزول المسيح لمحمد أنور شاه الكشميري، مطبعة الأصيل، حلب، سنة ١٣٨٥هـ.

٢٩ – التصريح للشيخ عبد الفتاح أبي غدة – مقدمة الكتاب السابق –.

٣٥ – التعريفات للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٣ هـ.

٣١ – تفسير أبي السعود – نشر وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، سنة ١٤٠١ هـ.

٣٢ – تفسير ابن سعدي – نشر وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، سنة ١٤٠١ هـ.

٣٣ – تفسير البغوي، تحقيق خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة بيروت، ط١، سنة ١٤٠٦ هـ.

٣٤ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة بيروت، سنة ١٤٠٣ هـ.

٣٥ – تلبيس إبليس لابن الجوزي، دار الطباعة المنيرة، مصر، سنة ١٣٩٦ هـ.

٣٦ – تلخيص المستدرك على الصحيحين للذهبي، بذيل المستدرك للحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٧ – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر، طبع وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية، تحقيق جماعة من العلماء.

٣٨ – تهذيب التهذيب لابن حجر، طبع دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، سنة ١٣٢٦.

٣٩ – تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، مطبعة الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، سنة ١٩٦٦م.

٤٠ – تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، طبع المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت.

٤١ – التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

٤٢ – جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، طبعة الحلبي، القاهرة، ط ٣، سنة ١٣٨٨هـ.

٤٣ – جامع العلوم والحكم لابن رجب، من منشورات المؤسسة السعيدية، الرياض.

obeikandi.com

٤٤ – جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله لابن عبد البر – راجعه وصححه عبد الرحمن حسن، دار الكتب الحديثة، مصر.

٤٥ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة ١٣٨٧هـ.

٤٦ – حاشية العقيدة الطحاوية للشيخ الألباني.

٤٧ – حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للسيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، سنة ١٣٨٧هـ.

٤٨ – الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب – تقديم الألباني – دار مرجان للطباعة مصر.

٤٩ – خطبة الحاجة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه، للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٠هـ.

٥٠ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٣ هـ.

٥١ – الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون، القاهرة، تحقيق: محمد الأحمدي أبي النور.

٥٢ – دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ.

٥٣ – ذيل الروضتين لأبي شامة، القاهرة، سنة ١٣٦٦ هـ.

٥٤ – الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد – مطابع الرشيد – المدينة المنورة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٢ هـ.

٥٥ – الرسالة المستطرفة لبيان مشهور السنة المشرفة للكتاني، دار البشائر الإسلامية ط٤، سنة ١٤٠٦ هـ.

٥٦ – روح المعاني للألوسي، مصورة عن الطبعة المنيرية.

٥٧ – زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط١، سنة ١٣٩٩ هـ.

٥٨ – سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الدار السلفية، الكويت، المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى.

٥٩ – سلسلة الأحاديث الضعيفة لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى.

٦٥ – سنن أبي داود السجستاني، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، دار الحديث – حمص، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٣ هـ.

٦١ – سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، سنة ١٣٩٥هـ.

٦٢ – سنن الترمذي: للإمام الترمذي – تحقيق: أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، القاهرة، ط٢، سنة ١٣٩٥هـ.

٦٣ – سنن الدارقطني، اعتناء عبد الله هاشم اليماني المدينة المنورة، سنة ١٣٨٦هـ.

٦٤ – السنن الكبرى للبيهقي، دار الفكر، بيروت.

٦٥ – السنن الكبرى للنسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٦ هـ.

٦٦ – سنن النسائي، للإمام النسائي، المكتبة السلفية، لاهور، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٦هـ.

٦٧ – السنن للدارمي، طبعة مصورة في بيروت.

٦٨ – سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٤٠١ هـ. مجموعة من المحققين.

٦٩ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار المسيرة، بيروت.

٧٥ – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، تحقيق: د أحمد سعد حمدان الغامدي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.

٧١ – شرح السنة للبغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، سنة ١٩٧١ م.

٧٢ – شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي حققه وراجعه جماعة من العلماء، خرج أحاديثه الألباني، المكتب الإسلامي، ط٥، سنة ١٣٩٩هـ.

٧٣ – شرح سنن أبي داود للعلامة ابن القيم، مطبوع على حاشية عون المعبود، ط٢، الناشر: عبد المحسن الكتبي، صاحب المكتبة السلفية.

obeikandl.com

٧٤ – شرح صحيح مسلم للنووي، القاهرة، سنة ١٣٤٩هـ.

٧٥ – الشرح والإبانة لابن بطة – تحقيق رضا نعسان – المكتبة الفيصلية مكة المكرمة – سنة ١٤٠٤هـ.

٧٦ – الشريعة للآجري، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤١٠هـ.

٧٧ – الصحاح للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٢هـ.

٧٨ – صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣٧٤ هـ.

٧٩ – صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية، تركيا، سنة ١٩٨١م.

٨٠ – صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

٨١ – الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٨٢ – طبقات الحفاظ للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.

٨٣ – طبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى، طبع دار المعرفة، بيروت.

٨٤ – طبقات المفسرين للداودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٣هـ.

٨٥ – عقيدة أهل السنة في نزول عيسى عليه السلام لفضيلة الشيخ عبد المحسن العباد البدر – مطابع الرشيد – المدينة المنورة، سنة ١٤٠٢ هـ.

٨٦ – عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للشيخ عبد المحسن العباد – مطابع الرشيد –، ط١، سنة ١٤٠٢هـ.

٨٧ – عمدة التفسير، اختيار وتحقيق الشيخ أحمد شاكر، دار المعارف مصر، سنة ١٣٧٧هـ.

٨٨ – عون المعبود شرح سنن أبي داود للعلامة أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي، المكتبة السلفية، ط ٣، سنة ١٣٩٩ هـ.

٨٩ – غريب الحديث للخطابي تحقيق د عبد الكريم العزباوي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

obeikandl.com

٩٠ – الفتاوى للشيخ شلتوت، طبع دار الشروق ط ٨، بيروت، سنة ١٣٩٥ هـ.

٩١ – فتح الباري لابن حجر، المكتبة السلفية ومطبعتها، القاهرة، سنة ١٣٨٠هـ.

٩٢ – فتح الباري لابن رجب، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي،ط.١

٩٣ – فتح المعبود بترتيب مسند الطيالسي.

٩٤ – الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة.

٩٥ – الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطابع الرياض،ط.٢

٩٦ – فضائل الشام لابن رجب، مخطوط – توجد منه في المكتبة البلدية بالإسكندرية. نسخة برقم .١٠٨

٩٧ – فضائل الشام للربعي.

٩٨ – فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٩ – الفهرست لابن النديم، تحقيق: رضا تجدد، طهران، سنة ١٣٩١هـ.

١٠٠ – فيض القدير للمناوي – دار المعرفة – بيروت، سنة ١٣٩١هـ.

١٠١ – القاديانية دراسات وتحليل للعلامة إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السنة – لاهور – باكستان، الطبعة الثالثة.

١٠٢ – القاموس المحيط للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٦هـ.

١٠٣ – القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط الساعة للعلامة السخاوي، تحقيق: مجدي فتحي السيد، مكتبة القرآن، القاهرة.

١٠٤ – الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، سنة ١٤٠٣هـ.

١٠٥ – الكشاف للزمخشري، مطبعة الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٥ هـ.

١٠٦ – كشف الأستار عن زوائد البزار – للهيثمي – مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٩هـ.

obeikandl.com

١٠٧ – كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، دار إحياء التراث العربي، ط ٣ بيروت، سنة ١٣٥١هـ.

١٠٨ – كشف الظنون، حاجي خليفة، بيروت، سنة ١٤٠٢ هـ.

١٠٩ – اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي – دار المعرفة – بيروت.

١١٠ – لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.

١١١ – لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي – طبع دار الجيل – بيروت.

١١٢ – لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي – المطبعة المادية – مكة، سنة ١٣٨٥هـ.

١١٣ – لوامع الأنوار البهية للسفاريني – طبعة المنار – سنة ١٣٨٥ هـ.

١١٤ – مجلة معهد المخطوطات – مجلد ٢٦ الجزء الثاني.

١١٥ – مجمع الزوائد للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، سنة ١٤٠٢ هـ.

١١٦ – مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.

١١٧ – مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للعلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، جمع وترتيب: محمد بن سعد الشويعر، مطابع الفرزدق، ط٢، الرياض، سنة ١٤٠٩.

١١٨ – المختصر في أخبار البشر، لعماد الدين أبي الفداء، المطبعة الحسينية، المصرية، سنة ١٣٢٥هـ.

١١٩ – المستدرك على معجم المؤلفين، لمحمد رضا كحالة، مؤسسة الرسالة ط١، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ.

١٢٠ – المستدرك للحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٢١ – مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم، دار المأمون، ط١، بيروت سنة ١٤٠٤هـ.

١٢٢ – المسند للإمام أحمد، المكتب الإسلامي بيروت، ودار صادق، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٥٤م.

١٢٣ – مشاهير علماء الأمصار، لابن حبان، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٤ – مشكاة المصابيح، للتبريزي، تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢ بيروت، ١٣٩٩ هـ.

obeikandl.com

١٢٥ – مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، للبوصيري، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.

١٢٦ – معارك القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، لحافظ الحكمي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة.

١٢٧ – المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، إعداد وتصنيف: محمد محمد حسن شراب – الطبعة الأولى – سنة ١٤١١ هـ.

١٢٨ – معالم السنن، للخطابي المكتبة العلمية، ط ٢، بيروت، سنة ١٤٠١هـ.

١٢٩ – معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار الفكر، ط ٣، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ.

١٣٠ – المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف – ط١، الرياض، سنة ١٤٠٥ هـ.

١٣١ – معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٣٢ – المعجم الصغير للطبراني، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.

١٣٣ – المعجم الكبير للطبراني، مطبعة الوطن، ط١، بغداد، سنة ١٤٠٠ هـ.

١٣٤ – معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣٥ – المعجم الوسيط – جماعة من العلماء – الطبعة الثانية.

١٣٦ – المغازي، للواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، تحقيق: د. مارسدن جونس – عالم الكتب –.

١٣٧ – المغني، لابن قدامة، مكتبة الجمهورية العربية مصر.

١٣٨ – المفردات للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة الحلبي القاهرة، سنة ١٣٨١هـ.

١٣٩ – المقاصد الحسنة للسخاوي، دار الكتب العلمية – بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ.

١٤٠ – مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، سنة ١٣٨٩هـ.

١٤١ – المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم، مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب، سنة ١٣٩٠ هـ.

١٤٢ – المنتظم لابن الجوزي، طبعة دار المعارف العثمانية، ط١، سنة ١٣٥٩ هـ.

١٤٣ – منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ط.١

١٤٤ – المنهاج في شعب الإيمان للحليمي، تحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر، ط١، سنة ١٣٩٩هـ.

١٤٥ – الموطأ للإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.

١٤٦ – ميزان الاعتدال للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٤٧ – نظم المتناثر من الحديث المتواتر للعلامة محمد بن جعفر الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٨ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، سنة ١٩٦٨م.

١٤٩ – النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير – تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار إحياء التراث الإسلامي بالأزهر.

١٥٥ – النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق: محمد أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، بيروت، بدون تاريخ.

١٥١ – وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

obeikandl.com

فهرس

مقدمة التحقيق ٥
مقدمة في علم التصوف ٨
تمهيد ٨
تعريف «التصوف» ٨
النشأة والتاريخ ١٠
الطرق الصوفية ١٣
اتباعهم للقرآن والسنة ١٥
مصطلحات الصوفية ١٦
المنهج العملي في التصوف ٢٩
عقيدة الصوفية في الأولياء ٣٦
الشريعة والطريقة والحقيقة ٣٩
موقف أئمة السنة من التصوف ٤٢
الإمام الغزالي ورحلة البحث عن الحقيقة ٤٦
أفكار الإمام الغزالي التربوية ٦١
ترجمة الشارح: الشيخ محمد الخادمي ٧١
وصف النسخ الخطية ٧٣
عملنا في الكتاب ٧٤
[شرح الديباجة] ٨٣
النصيحة الأولى: نصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته ٩٣
النصيحة الثانية: في سبب تقديم النصيحة ٩٦
النصيحة الثالثة: لا تكن من الأعمال مفلسًا ١٠١
النصيحة الرابعة: لو قرأت العلم مائة سنة ١٠٦

obeikandl.com

النصيحة الخامسة: ما لم تعمل لم تجد الأجر	١١٢
النصيحة السادسة: كم من ليال أحييتها بتكرار العلم	١١٦
النصيحة السابعة: عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ	١٢٢
النصيحة الثامنة: تحصيل العلم	١٢٥
النصيحة التاسعة: العلم بلا عملٍ جنون	١٣٠
النصيحة العاشرة: اجعل الهمة في الروح	١٣٢
النصيحة الحادية عشر: لو كان العلم المجرّد كافيا لك	١٣٦
النصيحة الثانية عشر: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾	١٣٩
النصيحة الثالثة عشر: رُؤي في وصايا لقمان الحكيم	١٤٤
النصيحة الرابعة عشر: في خلاصة العلم	١٤٧
النصيحة الخامسة عشر: موافقة الشرع	١٤٩
النصيحة السادسة عشر: بعض مسائلك من هذا القبيل	١٥٤
النصيحة السابعة عشر: لا حاجة إلى العلم الكثير	١٦١
النصيحة الثامنة عشر: ما يجب على سالك سبيل الحق	١٧٥
النصيحة التاسعة عشر: اعمل بما تعلم	١٩٦
النصيحة العشرون: لا تسألني قبل الوقت	١٩٨
النصيحة الحادية والعشرون: إن تسر تر العجائب	٢٠٠
النصيحة الثانية والعشرون: أنصحك بثمانية أشياء	201
النصيحة الثالثة والعشرون: الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها	٢٢٧
النصيحة الرابعة والعشرون: اسمع مني كلاما آخر وتفكر فيه	٢٣٢
النصيحة الخامسة والعشرون: الدعاء والخاتمة	٢٣٥
فوائد	٢٤٤
المصادر والمراجع	٢٤٥
الفهرس	٢٥٥

obeikandl.com